الطبعة الثانية

جروح الذاكرة

تركي الحمد





إهداء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن على الدعيس

المملكة العربية السعودية



صدر للمؤلف عن دار الساقي

- العدامة
- الكراديب
- الشميسي
- الثقافة العربية في عصر العولمة
- الثقافة العربية أمام تحديات التغيير
- شرق الوادي
- السياسة بين الحلال والحرام

تركي الحمد





الطبعة الثانية ٢٠٠٢

ISBN 1 85516 557 0

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7-221 9347, Fax: 020-7-229 7492

المحتويات

إلى لعنة الظلام..

أهدي هذه الشمعة،

عسى أن تكون شمعة..

قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون.

[**القرآن الكريم**: سورة الأعراف، الآية ١٨٨]

تمضي الحياة ويدور تطورها بطيئاً كما يدور الدولاب الذي يحرك الماء. ولا بد للإنسان من أن يكون قادراً بتوازنه على أن يدع الظرف الذي لا يلائمه ينزلق عليه انزلاقاً. أما بالنسبة للظرف الملائم، فإنه يتطلب أن يفيد منه الإنسان. ولكن استخدام الظرف استخداماً جيداً أو سيئاً أمر منوط بحالة الوضوح لدينا. وعلى الغالب، فإن أولئك الذين يلبثون عاجزين عن استخدام أحد الظروف هم «سجناء» حالتهم الذهنية. إنهم أولئك الذين أصيبوا بانحرافات داخلية. فالحياة ليست عادلة ولا ظالمة، وليست صالحة ولا عمياء. إن هذه الصفات هي صفات إنسانية. والحياة هي ما هي عليه: فلماذا نريدها أن تكون صالحة أو عمياء؟ الحياة منطقية. إنها تسيل كما يسيل النهر الهادئ حاملاً قوارب الناس. والمهم أن نعرف ما إذا كان قاربنا لا يسمح بنفاذ الماء..

[بيير داكو: **الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث**، ص ٦٥٦].

الكتاب الأول:

أطياف الماضي

وأخيراً خرج الحرف الأول، وكأنه رأس وليد طال انتظاره في ولادة متعسرة، أو تلك الشرارة الأولى المجهولة في انفجار عظيم وبداية كون جديد ووجود لم يكن قبله إلا سر الوجود ذاته. ثم بدأ صراخ الحياة يمزق الصمت الذي طال، وأخذت بقية جسد الوليد في الانزلاق السريع، والكلمات تتزاحم عند بوابة رأسها تحاول الخروج، كما تزاحم السجناء عند بوابة سجن انهارت فجأة. ثم راحت الحروف في ذهنها تتشكل سريعاً لتصبح كلمات، والكلمات تتجمع على الورق لتتحول إلى جمل مفيدة، وأصابعها تضغط على القلم بقسوة تريد منه أن يكون أسرع وأسرع، ولكن القلم كان عاجزاً عن مجاراة تفكيرها الملتهب، فتتكسر الأقلام واحداً تلو الآخر، وتزاحم ما في داخلها لا يريد أن يهدأ، فتبقى البوابة مشغولة على الدوام، وتبقى الأوراق عاجزة عن الاستيعاب. ويتجسد كل ذلك كياناً ملتهباً على ورق يحترق أمامها، ويصرخ طالباً الرحمة، ولكنها لا ترحم، وقلبها لا يلين، كما سجين وسجان في بلد منسي من بلاد الشرق البعيد. وتتكوم أمامها صفحات تلو صفحات من أوراق اختلط بياضها بزرقة المداد، فغدت وكأنها زرقاء يخالطها بياض، أو بيضاء تخالطها زرقة، وحروف مشوشة تكاد تنطق. .بل كانت بالفعل من الناطقين وهي تقول بصمت وسكينة. .

المخاض

فتحت عينيها المسهدتين، وعتمة كثيفة لا تزال جاثمة على صدر المكان، عدا ذلك البصيص الخجول من نور أزرق باهت يأتي من مصباح الممر الواهن، وهو يحاول اختراق عتمة ليس له معها أية حيلة. دعكت عينيها الواسعتين بقوة وهي تحاول فتحهما على اتساعهما، ونظرت إلى يديها في الظلام، وكلها حرقة على تلك الشعيرات القليلة التي تعلم أنها سقطت من أهدابها الطويلة التي طالما كانت محل اعتزازها وغيرة رفيقاتها. كانت قد عاهدت نفسها كثيراً على ترك هذه العادة السيئة، كما كانت تصفها، حفاظاً منها على أهدابها الجميلة، ولكنها لم تفلح، فقد كانت متعة الدعك تفوق ذلك الثمن البخس المدفوع من شعيرات متساقطة معدودة بمراحل كثيرة. تنهدت بصوت حاولت أن يكون صامتاً، ثم نظرت حولها بعينين ألفتا العتمة منذ نعومة الأظفار، وإن كانت نفسها لا تزال تنفر من العتمة رغم الإلفة وذكريات الطفولة وأيام القرية والزواج الأولى.

التفتت بتلقائية نحو الساعة العاجية بجانبها. كانت عقاربها الفسفورية قد تجاوزت الرابعة صباحاً، وعما قليل ستنشر أنفاس الصبح أريجها على الهاجعين والسارين. تثاءبت بقوة كاشفة عن أسنان لؤلؤية المظهر والبريق، صغيرة الحجم بتناسق واضح وفريد، وبياض ناصع كبياض نوارس الشتاء على جزر الخليج المنسية متحدية كل عتمة، ثم تمطت بلذة وهي تطلق أنيناً خافتاً في غاية الاسترخاء، أشبه ما يكون بأنين النشوة وارتواء الشهوة، وقد غارت عيناها باسترخاء، ونظرت إلى النائم بجانبها، وقد علا شخيره كمنشار مثلومة أسنانه

يحاول شق طريقه في قطعة خشب قديمة أحرقتها شمس خالدة السطوع، قبل أن تجد طريقها للاحتراق والتشتت في يم الفناء. ابتسمت بحنان وحب خالصين، وشريط خاطف من الذكريات يمر في خاطرها، ثم حاولت أن تستعيد لحظات النوم الهاربة..

*

تقلبت ذات اليمين وذات الشمال، وتكومت تكوم جنين في بطن أمه تارة، وكما دودة قز في شرنقتها تارة أخرى، أو كما عصفورة في عشها تارات وتارات. واضطجعت على ظهرها تارة وعلى بطنها تارة أخرى، ونصائح أمها ترن في أذنها في التحذير من النوم على البطن للذكر، وعلى الظهر للأنثى، فالشيطان موجود دائماً، وهو لا يفوت الفرصة لتحقيق هدف وجوده، وأذية بني آدم أجمعين، الذكور منهم والإناث، منذ الأزل وإلى الأبد. ولكن الكرى الهارب يأبى أن يعود، وجفناها يرفضان التعاون معها وكأنهما يرفضان الانتماء إليها، وبقي السهاد سيداً للموقف. كانت مستعدة للاستلقاء في أي وضع ووضعية، شريطة أن يغازلها من لا تُرفض مغازلته، ويعانقها من لا يُملك صده. لقد كان رأسها مليئاً بأفكار كثيرة تتصارع في داخله هذه الأيام، فاستسلمت لتفكير لم يكن لها معه من حيلة إلا الاستسلام. فإن لم تستطع هزيمة الخصم، فعليك أن تجاريه..أو حتى أن تنضم إليه..هكذا علمتها الأيام ولحظات الزمان وفلسفة الأميركان التي أمست فلسفة هذا الزمان. فهكذا هي الدنيا: لكل وقت أذان، ولكل عصر فلسفة وكيان..

وهذه الأيام التي وإن كانت كغيرها من أيام تحددها شمس الشروق وشمس الغروب، إلا أنها ليست كغيرها بالنسبة لها. فالزمن ليس شيئاً واحداً، ولكل ذات زمنها رغم أن الزمن واحد. فهي تعلم أنها اليوم قد عانقت الخمسين من عمرها، أو ربما تكون قد تجاوزتها، أو أقل منها بقليل، لا تدري على وجه الدقة. فهي في الحقيقة لا تعرف تماماً متى ولدت، ككل امرأة ورجل من جيلها، ومن هم قبل جيلها، ومعظم من هم بعد جيلها، رغم حرصها على الاحتفال بعيد ميلادها كل عام، منذ انتقالهم إلى حي «العليا»، وفي تاريخ اختارته في العشر الأواخر من آذار، حين تعود عشتار

منتصرة من العالم السفلي، تقود تموز بيدها، فيتشر الخصب، ويعم الرغد، وتزغرد الأرض فرحاً بعودة الحياة، وتعزف السماء على أوتار الوجود نشيد الأمل ولحن الخلود. كان الجميع يعرفون أنها لا تعرف يوم مولدها. وكانت هي تعلم أنهم يعلمون أنها لا تعلم، كما تعلم أنهم لا يعرفون تواريخ ميلادهم أيضاً، ولكنهم كانوا يهرعون إلى حفلات عيد ميلادها، كما تهرع هي إلى حفلات أعياد ميلادهم، محملين بالهدايا الثمينة، وهم يغنون: «سنة حلوة يا جميل تارة، و.. Happy Birthday to You تارة أخرى»، فتشعر بسعادة طفل سُمح له بتناول ما شاء من حلوى. ففي قريتها لم تكن التواريخ تعني الشيء الكثير لأحد، بل ولا كل الزمن، مجرد شمس تشرق وأخرى تغرب، وبينهما قمر يظهر هلالاً وينتهي مُحاقاً بعد أن يكتمل بدراً. يولد ويكتمل ثم إلى النقصان يسير، وكان الله بعباده لطيفاً.

لا يحتاجون الشمس إلا لتحديد أوقات الزرع والحصاد، أو لتحديد أوقات الصلاة، أو للتأريخ بمداياناتهم وعقودهم القليلة، أو لبعث شيء من الدفء في أجسادهم الهزيلة أيام الشتاء وزمهرير الصحراء الذي ليس كمثله زمهرير، وما عدا ذلك فهو غير مهم، وليس له أن يكون مهماً. ولا يحتاجون القمر إلا لتحديد متى يكون الصوم ومتى يكون الفطر. متى يكون الحج إلى البيت العتيق، ومتى تتوجب الأضحية، ومتى تكون الليالي البيض حيث يتضاعف الأجر لدى خالق الخلق الرحمن الرحيم، ويحلو السمر على الرمال الناعمة في ليالي الصيف الحارة، حين تزفر الصحراء ناراً صافية في النهار، كما التنين في بلاد الصين والوجوه الصفر، بل وزفرات جهنم ذاتها في الظهيرة. يولد الناس ويتناكحون ويتناسلون ويموتون ويدفنون، دون حاجة لتحديد زمن هذا أو ذاك، فالأمور تجري هكذا، وكانت دوماً تجري هكذا، ولا حاجة لتقييدها باليوم أو الساعة أو الدقيقة، فما هذه الأمور إلا مما اتفق عليه البشر، وليست من طبائع الأشياء كما خلقها الله. هكذا كان الأمر منذ آدم، وهكذا سيبقى الأمر حتى يأتي ابن مريم، ثم يُنفخ في الصور، ويبعث ما في القبور، وينشر ما في الصدور، ويرث الله الأرض وما عليها. فليس الزمن في النهاية إلا عقاباً لآدم وحواء وذريتهما بعد خطيئة الأكل من تلك الشجرة المحرمة، وعذاباً مؤقتاً في انتظار تلك اللحظة التي يطوي فيها الديان

السماوات والأرض بين يديه كما تطوى الصحف، ويعود آدم إلى جنة الخلد التي أهبط منها كارهاً، ويُلقى بإبليس اللعين في أسفل سافلين جزاء جريمته السرمدية، وتحديه رب الخلق أجمعين.

ولكن أحاديث والديها المتفرقة تشير بعض الإشارة إلى متى كان ذاك اليوم الذي خرجت فيه إلى الوجود، واستنشقت أول نسمات الحياة. فهذه الأحاديث تؤكد أنها ولدت فجر ذات يوم من أيام الشتاء، في أعقاب ليلة اختفت فيها الأرض، وغابت فيها السماء ونجومها، واشتد بردها، وعبثت عواصفها، وارتدت فيها الدنيا لباساً حالك السواد، من أيام «العقرب» الأول، أو أوائل «العقرب» الثاني على أكثر تقدير. ورغم كل ذلك، كانت ليلة ولادتها ليلة خير وبركة، على حد تعبير والدها، فقد انشقت السماء عن قرب مترعة بالماء بعد طول انتظار، حتى خشي البعض أن يكون طوفان نوح قد عاد من جديد عقاباً للبشر على خطاياهم التي أصبحت أكثر عدداً من حبات الرمل وفراقد السماء، فهرعوا إلى المسجد تلك الليلة متضرعين إلى العلي القدير أن يجعلها سقيا رحمة لا سقيا عذاب، وحواليهم لا عليهم، وفي الآكام وبطون الأودية، في ذات الوقت الذي كانت قلوبهم ترجف هلعاً من أن ينهار المسجد الطيني عليهم، أو تنهار بيوتهم على أطفالهم ومن يحبون. غير أن مطوع القرية وإمام المسجد طمأنهم تلك الليلة بأن الطوفان لن يعود من جديد، فقد أخذ الله على نفسه عهداً بعد طوفان نوح بأن لا يتكرر الحدث، وما قوس قزح إلا علامة من علامات الرب الرحيم بأنه لن يهلك الأرض ومن عليها بالطوفان. هكذا كانت أقاصيص والدها تقول فيما تتذكر..

*

وقد أسموها «لطيفة»، كما تذكر أمها دائماً، استبشاراً بلطف الله بعباده تلك الليلة، إذ انقشعت الغمة مع تباشير الصباح الأولى، وكان فجراً منيراً باسماً، فكانت سقيا رحمة لا سقيا عذاب، وفى الآكام وبطون الأودية، حتى أن وادي «الرمة» العظيم، ووادي حنيفة جريا كما لم يجريا منذ سنين، وفاضت الشعبان الأخرى كما لم تفض من قبل، كما أكد كبار السن من أهل القرية. وتناقل الجميع خبراً يقول بأن نجداً مقبلة على طقس أشبه ما يكون بطقسها

تلك الأيام الخوالي قبل آلاف من السنين، عندما كانت الأرض سخية بعطاياها، رغم التوجس بأن ذلك قد يكون من علامات الساعة القريبة، وما أدراك ما صيحة الساعة، فذاك يوم شديد، وعلى العالمين عصيب. فقد كانوا يروون حديثاً عن رسول الله بأن جزيرة العرب سوف تعود خضراء كما كانت، وتجري فيها الأنهار في آخر الزمان ونهاية الحياة على هذه الفانية، فكان فرحهم مشوباً بقلق عظيم. وقد علمتهم الأيام الا يفرحوا كثيراً بأي شيء، فكما أن الدنيا تقبل أحياناً، فإنها تدبر دائماً، وهم يتوجسون خيفة حين إقبالها من أن إدبارها قادم لا محالة. بل إنهم يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم حين يستغرقون أحياناً في الضحك في ساعة من ساعات الصفاء النادرة، ويرددون والخوف يغشى قلوبهم: «اللهم اكفنا شر هذا الضحك.. اللهم اكفنا شر هذا الضحك..»، وينقلبون إلى أهلهم قلقين.

لكم تمنى والدها لو كان هذا المولود المبارك الجديد ذكراً، كي ينضم إلى أخويه محمد وعبدالرحمن، فيفاخر بهم أهل قريته، ويشدون من عضده، وتمتد بهم عائلة «الأثلة» وتقوى، ولكن «الخيرة فيما اختاره الله على كل حال»، كما كان يردد دائماً. وكان الوالد يريد أن يسميها «مزنه» على اسم أمه المتوفاة، وهو كان سيسمي ابنته الكبرى بهذا الاسم، ولكن الجدة كانت على قيد الحياة آنذاك، ولم تأذن له بذلك، تطيراً ونفوراً من تسمية حفيدتها باسمها وهي لا تزال على قيد الحياة، رغم تجاوزها الثمانين، فكان أن سماها الوالد «قماشة»، على اسم جدته لأمه، تنفيذاً لرغبتها. ولكن بعد تلك الليلة المطيرة، لم تعد «المزنه» مما يُتمنى أو يستحب، فهي أخت السحابة أو ابنتها، كما كانت والدتها تعلق ضاحكة وهي تستغفر رب العرش العظيم، فهي كالنسيم حين يرق، ولكنها كالإعصار حين يهب، وقد علمتهم الأيام أن لا يثقوا حتى بالمزن وإن صفت. فالفرق بين العقاب والثواب هو كالفرق بين الليل والنهار: لحظة من غسق سريع أو سحر عجل، لا يلبث أن ينتهي إلى ليل أو نهار، عتمة أو ضياء.

كما أن أخاها الكبير محمد، أكد لها أن مولدها كان بالتأكيد في أحد أيام رمضان، وبالتحديد في أحد العشر الأواخر منه، إذ لا يزال يذكر متابعتهم للقمر وهو يموت، في طريقه لأن يولد من جديد ويكون العيد، حيث

الملابس الجديدة، وكل ذلك اللذيذ من طعام، وخاصة ما يجلبه صالح ابن عمهم معه من الرياض. كما أنه لا زال يذكر ليالي التهجد الطويلة التي كان والده يوقظه فيها من فراشه الدافئ، والعتمة لا تزال تجثم بكلكلها على كل المكان، والزمهرير يئز بين النخيل التي تبدو وكأنها رؤوس شياطين انبثقت من حيث لا أحد يدري، حتى يرافقه إلى مسجد القرية. ومع استخدام حسبة بسيطة لاحقة قام بها طارق على جهاز الكمبيوتر، خمنت أن يوم ميلادها لا بد أن يكون في مثل هذا اليوم من أيام شباط الباردة، أو قبله أو بعده بيوم أو يومين أو حتى عدة أيام. على أية حال، فهي لا شك في الخمسين من عمرها، قد تزيد قليلاً وقد تنقص قليلاً، ولكنها فيها أو تدور حولها، فماذا تعني عدة أيام أو حتى شهور بالنسبة لنصف قرن من الزمان. فهي إن لم تكن قد ولدت في السنة الأخيرة للحرب العظمى، فلا بد أن يكون ذلك بعدها أو قبلها بسنة على الأكثر، حيث أن أحاديث والدتها عن تلك الفترة كانت تؤكد أن السكر الأبيض النقي كان متوافراً في سنة ولادتها، وكانت كافة مستلزمات النفساء من حلبة ورشاد وغيرها، تملأ الأسواق، بالإضافة إلى بضائع عقيل وغيرهم من تجار نجد، من أقمشة الشام وحُلي مصر وتمن العراق، وهم الذين لم يعرفوا قبل ذلك إلا ذلك السكر الأحمر، وتلك الحوانيت الخالية طوال سنوات الحرب.

*

خمسون عاماً سرقها منها الزمن، أو سرقتها هي من الزمن، أو تناوبا السرقة فيما بينهما، فليس هناك معيار دقيق للتفرقة بين السارق والمسروق، والغاصب والمغصوب، حين يكون الزمن هو القاضي وهو الجلاد وهو المتهم وهو المجني عليه، وهو الفاعل والمفعول به والمفعول فيه في الوقت ذاته، بل هو البطل في مسرحية من فصل واحد، تكون فيها الحياة هي المسرح. خمسون عاماً مرت وكأنها مجرد خمس دقائقُ، أو ربما مجرد شيء أشبه ما يكون بلحظة ما بين طرفة العين وانتباهتها، أو أقل من ذلك، رغم أنها مرت بأوقات كانت تشعر فيها وكأن الثانية الواحدة فيها قد تحولت إلى دهر أو أطول من ذلك بكثير.

وابتسمت بطرف فمها وهي تتذكر أحاديث أبيها عن الموت في آخر

أيامه، وكيف أن المحتضر تمر أمامه كل تفاصيل حياته بسرعة عجيبة، حتى أن كل الحياة التي عاشها لا تتجاوز اللحظة أو بعضها، أو حتى ومضة برق عابرة. والحقيقة أن تلك الأيام لم تكن بمثل هذه الأيام، فقد كان الزمن في القرية ميتاً أو شبه ميت. .أو ربما ليس له وجود من الأساس. .اليوم مثل الأمس، والغد مثل اليوم، ولم يكن هناك حاجة لشريط كي يصور ما جرى وما يجري، بل إن مجرد صورة فوتوغرافية صامتة وساكنة كافية بالغرض، وربما لأجل ذلك كانت أيام زمان أطول من أيام هذا الزمان، إذ كلما تباطأ وقع الحياة، كان الزمن أطول، رغم أن الزمن هو الزمن في كل الأحوال، ولكنه ليس كذلك في بعض الأحوال. وابتسمت وهي تتصور أن الشريط الذي يمر في ذهن محتضري القرية لا بد أن يكون جديداً، فليس هناك ما يمكن أن يكون مطبوعاً عليه من صور. .واستغفرت الله بسرعة وعجلة وهي تتذكر قولاً لأبيها، رحمه الله، بأنه ليس المهم هو ما يجري حولنا، ولكن المهم هو ما يجري فينا. .الزمن إحساس لما في الداخل، وليس حساباً لما في الخارج. لم يكن أبوها فيلسوفاً، ولم يعبر عن المسألة كما تفكر هي فيها الآن، ولكن الحياة جعلت منه فيلسوفاً على طريقته دون أن يشعر، رغم أنه لم يكن يعلم ما هي الفلسفة، ولم يكن يهمه أن يعلم، وربما لو علم لاستعاذ منها كثيراً. والحقيقة أنها لم تكن تكترث كثيراً «بسوالف» والدها آنذاك، وما كان أكثرها! وخاصة أيام رمضان ولياليه، ولكنها مع تقدم العمر، وتسارع وقع الحياة التي لا تتوقف، بدأت تفكر بالحياة فعلاً وكأنها شريط سينمائي سريع، أو شريط فيديو لا يلبث أن ينتهي بمجرد أن يبدأ.

وأحست برعشة سريعة تعتريها، وينتفض لها كل جزء في جسدها المكتنز. .رباه. . .أكل تلك الآمال والآلام، وكل تلك الأحزان والمسرات، وكل ذلك الانتظار الذي يخاله الفرد في حينه دهراً، أكل ذلك مجرد لحظة عابرة، أو حتى أقل من ذلك؟! . .خمسون عاماً بأفراحها وأتراحها، أو هي أتراحها وومضات أفراحها، مرت دون أن تدري أن العمر يضوي كما يضوي كل شيء حُكم عليه بالفناء، أو شمعة لابد لها في النهاية أن تنطفىء، مهما كان حجمها أو طولها. فكل ما له بداية لا بد أن يكون له نهاية، وصرخة الميلاد ليست إلا إعلاناً عن تناقص العمر وعويل الموت بعد حين، وما حرارة

الميلاد وفرحه، إلا بداية لبرود الموت وترحه. إنها تدري بهذه الحقيقة، أو قل إنها تشعر بها دون أن تدريها ربما، ولكنها تتجاهلها ككل البشر منذ أن جبل الرب العظيم آدم بيديه من صلصال لا روح فيه، وحتى يكون يوم البعث والنشور ومحاسبة من في القبور.

وطافت في ذهنها صورة رجل وقور بلحية بيضاء طويلة يسبح في الفضاء، ويمد يده إلى رجل عار على الأرض، فابتسمت وهي تتذكر لوحة «خلق آدم» لمايكل أنجلو، تلك اللوحة التي بهرها جمالها وأسرتها روعتها حين رأتها لأول مرة تحت قبة «السستين» في الفاتيكان، وإن شعرت بالكثير من النفور آنذاك من قدرة البعض وجرأتهم على تصور الخالق ورسمه، وهي إلى هذه اللحظة لا تزال تحمل شيئاً من الدهشة حيال تلك الجرأة. وتنهدت بحرقة، وخاطرة تطوف برأسها على عجل: . .«نوهم النفس بأننا من الخالدين في لحظة غفلة، ثم نكتشف فجأة أننا من المخدوعين في لحظة نور خاطفة لا تلبث أن تنطفئ بمثل ما ومضت، ونعود إلى الغفلة من جديد، كما يعود الظلام الدامس إلى فلاة بلا تخوم بعد اختفاء نور برق عابر، ولا يبقى إلا هدير الرعد في الأذان، والظلام المحيط ببصر انتفت قيمته». ولا تدري لماذا طاف الخيّام بذهنها في تلك اللحظة، وأحست بالست وهي تغني في رأسها، وكأنما تغني لها وحدها: «لبست ثوب العيش لم أُستشر، وحرت فيه بين شتى الفكر». .ثم لا يلبث أبو ماضي أن يدخل على الخط وهو يشتكي حائراً: «جئت، لا أعلم من أين، ولكني أتيت». .

*

طردت الخيّام وأبا ماضي من ذهنها، وحاولت التخلص من آهات الست ورجع صوتها في رأسها، وألقت باللحاف المخملي جانباً، فأحست بقشعريرة برد لذيذة، رغم تلك الحرارة التي كان يبثها جهاز التكييف، ثم تأكدت من إحكام الغطاء على جسد صالح بجانبها، وغطت فخذه السمراء الدقيقة المكشوفة، وقد علا شخيره أكثر من ذي قبل، وانتشرت رائحة الكحول في كل أرجاء الغرفة. كم كانت تتأذى من هذه الرائحة في البداية، وكانت تثير المشاكل مع صالح من جراء شربه الليلي المستمر، وتهاونه في أداء واجباته

الدينية، وهو المسلم ابن الحمولة ولا يصح منه مثل هذا السلوك، وخاصة صلاتي الفجر والعصر، اللتين يكون خلالهما مستغرقاً في نوم عميق، مذكرة إياه بتشديد الخالق جل وعلا على الصلاة الوسطى خاصة في كتابه الكريم. إلا أنها في النهاية رضخت لما رأت أنه قدرها في الحياة، وتقبلت زوجها على علاته، وأقنعت نفسها بنصائح أمها الدائمة من أن «طاعة الزوج من طاعة الرب، وأن الرسول الكريم قال إنه لو كان آمراً أحداً بالسجود لغير الله، لأمر الزوجة بالسجود لزوجها، أو كما قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم. . فالأجر على قدر المشقة، ولعل الله يهديه على يديها وإن طال الزمان، فيتضاعف أجرها عند علي قدير لا تخفيه خافية».

وهي لا تزال تذكر نصائح والدتها لشقيقتها قماشة، حين تأتيها وقد فاض بها الكيل من «جلافة» زوجها وقذارته التي تجاوزت كل حدود، فكانت تهدئ من روعها، وتقول لها دائماً: «طوبى للنساء يا بنيتي، فطريق الجنة أمامهن سهل يسير، وما عليهن إلا الصبر على هذه الفانية وفيها. فالمرأة يا بنيتي إذا صلت فرضها، وصامت شهرها، وصانت فرجها، وأطاعت بعلها، وقرت في بيتها فإنها تدخل الجنة من أي باب شاءت إن شاء الله. . عليك بالصبر يا بنيتي في هذه الفانية، فالعاقبة هي السعادة الدائمة إن شاء الله، وما نحن في هذه الدنيا إلا كمسافر استظل تحت شجرة ثم لم يلبث أن غادرها، كما يعلمنا سيد الخلق أجمعين، صلوات الله وسلامه عليه». .

رحم الله الوالدة، فقد كانت كلماتها تفعل فعل السحر في شقيقتها، فتعود إلى بيت زوجها راضية، رغم أن «عيون الفأر»، كما كانت تسمي زوج شقيقتها، لا يمكن أن يحتمله ولا الخنزير ذاته، رغم أنها لم تر خنزيراً حقيقياً في حياتها، ولكنها تعلم أنه الأقذر بين مخلوقات الرحمن. وطاف ظل ابتسامة على ثغرها وهي تتذكر تلك القصة التي قرأتها في أحد الكتب التي أدمنتها في وحدتها أيام الزواج الأولى، حين قالت إحدى الجميلات لزوجها الدميم: «أنا وأنت في الجنة». وحين سألها لماذا، أجابت بأنه رُزق بمثلها فشكر، وبُليت هي بمثله فصبرت، والصابر والشاكر في الجنة»

والحقيقة أن مثالب صالح لم تكن كثيرة عندما تُمعن التفكير في أيامها

معه، مقارنة بآخرين تعرفهم من أقاربهم ومعارفهم. بل على العكس من ذلك، كان كثير الحسنات، لولا حكاية الشرب هذه، والسفر الكثير إلى الخارج، الذي أدمنه في فترة من الفترات، وخاصة إلى مصر وشرق آسيا في البداية، ثم إلى المغرب وأوروبا بعد ذلك، والتي لم يكن يؤوب منها حتى يعود إليها ثانية. وعندما كانت تسأله عن سر هذه السفرات الكثيرة، كان يتأفف وهو يتذرع باحتياجات العمل وضغطه الذي لا يهدأ، ولكن عينيه الصغيرتين الحادتين كانتا تومضان ببريق غريب، وينفخ دخان سيجارته الكثيف في أرجاء الغرفة، وتفتر شفتاه الداكنتان الغليظتان عن بسمة سريعة غامضة لم تكن تجد لها تفسيراً، ثم لا تلبث أن تنسى المسألة بعد حين، أو تضغط على نفسها كي تنسى، وتخنق كل تلك الشكوك التي تنخر صدرها، والتي كانت تزداد وتصبح كالنار في الصدر بعد كل جلسة تجمعها بجاراتها وصاحباتها، وخاصة جارتهم أم فهد، التي تكاد تكون شكاً مجسداً على شكل امرأة.

بل إن صالحاً في الآونة الأخيرة لم يعد يشرب إلا قليلاً، وغالباً في ليالي الجمعة، وأكثر الأحيان بمفرده دون الذهاب إلى شلة أصحابه المعتادة، أو مجيء الشلة إليه. وعندما كانت تسأله عن السبب، كان يضحك باقتضاب، ثم يقول: «اشتقت لك.. هل من ضير في ذلك؟!». فتبتسم بلذة ودلال، ولكنها تعلم في داخلها بأن الطبيب قد حذره من مغبة الإفراط في الشرب، حين تبين أن وظائف الكبد لديه لم تكن بالدرجة المرضية تماماً، بعد رحلة علاج سياحية إلى أميركا، قبل حوالى سنوات خمس. لم يكن يحس بشيء حينها، ولكنه ذهب إلى «كليفلاند» ومستشفاها الشهير، تقليداً لأثرياء الطفرة الجدد، الذين أصبحت رحلات الفحص الطبي في بريطانيا وأميركا وألمانيا جزءاً من الإعلان عن الثراء قبل أن يكون لحاجة حقيقية. كما أنها تعلم أن «البزنس» لم يعد جيداً كما في الأيام الخوالي. فبعد انتهاء حرب تحرير الكويت، كما أسموها، أو «الفضيحة» كما تحب أن تسميها، وكل تلك الأموال التي ذهبت أدراج الرياح، وبعد انخفاض أسعار النفط وارتفاع مديونية الحكومة وعدم وجود مشاريع ومناقصات جديدة، بالإضافة إلى عدم قدرة الحكومة على الوفاء بالتزاماتها كما في السابق، ركدت الحركة، وسكنت سوق العقار، بل وكافة الأسواق، وانخفضت أسعار الأسهم، ولم يعد صالح يجد نفسه مجبراً على تلك

الجلسات الاجتماعية المظهر، أو جلسات النفاق كما تسميها، والمكرسة لعقد الصفقات قبل عقدها بالفعل.

ومع الأيام، اعتادت على مكوثه الليلي غير المعتاد في المنزل، وكانت مسرورة بذلك، ولكنه كان سروراً مشوباً ببعض القلق، فقد بدأ يتسرب إلى داخلها خوف من المستقبل رغم الثروة، وقلق من عودة أيام الفقر رغم أن كل شيء يوحي بأن أيام الفقر والمسغبة ولت بغير رجعة. فحساباتهم في بنوك أوروبا وأميركا وحدها كافية لأن يعيشوا في بحبوحة إلى أجل غير منظور، ولكن هذا الإحساس بالخوف من المجهول لا يريد تركها، وهو إحساس لا تدري كنهه ولا هي قادرة على السيطرة عليه، رغم علمها بأن لا مبرر له.

*

وتمطت بكسل وهي تنهض من السرير، ثم تلفعت بروبها المخملي الأزرق البراق وهي تحس بلذة الدفء في جنباته، بعد احتواء لسعته الباردة الأولى، وأحكمت الغطاء على جسد صالح الهزيل، بعد أن أمعنت النظر لبرهة في آثار الكي الكثيرة على بطنه وظهره، وخاصة ذاك الأثر الكبير الذي يبدو بوضوح على مؤخرة العنق، وكأنها ترى هذه الآثار لأول مرة. وابتسمت وهي تذكر كلماته في أول رحلة لهم إلى لندن حين قال لها ضاحكاً: «هل تعلمين يا لطيفة؟..أستطيع أن أميز ابن نجد من بين جميع أصناف البشر..»، ودون أن يعطيها فرصة التعجب قال: «انظري إلى مؤخرة عنقه، وسترين الدمغة النجدية..دمغة الجودة..كي على اتساع ريال الفضة العربي القديم لا تجدينه عند أي جنسية أخرى»، ويضحك الاثنان بحبور أطفال قرية يكتشفون طعم الأيس كريم في أول رحلة لهم إلى المدينة، فيما يتحسس صالح مؤخرة عنقه وهو لا يزال يضحك.

اتجهت إلى النافذة الزجاجية الواسعة وبسمة صافية لا زالت تحتل ثغرها المرسوم بدقة فرشاة فنان من عصر النهضة، وأخذت تتأمل شوارع «العليا» الفسيحة الخالية في مثل هذه الساعة المبكرة من يوم الجمعة، إلا من بعض سيارات ساهرة تجوب الشوارع دون هدف، أو ربما لهدف لا تدري عنه، وقد غسلها رذاذ خفيف من مطر خجول ومغرور طال انتظاره، وأقيمت

صلوات الاستسقاء بأمر الملك نفسه من أجله، فبدت لامعة وجميلة بشكل غريب في مثل تلك الساعة من ليل ينحدر نحو النهاية. وطافت فكرة غريبة في ذهنها، ولكنها سرعان ما طردتها، أو هي قمعتها على رأي الدكتور سليم كزبرة.. لماذا يصلون صلاة الاستسقاء في أيام الموسم فقط؟.. لما لا يجربون الصلاة في الصيف مثلاً؟..ولم تستطع المضي إلى الآخر في فكرتها تلك، فقد سيطر عليها الهلع لمجرد التفكير بذلك، فطردتها بعجلة وهي تستغفر الله كثيراً، وصورة هيفاء عصفور تحتل ذهنها كله..

ثم نظرت إلى السماء الصافية في الأعلى، وغابت مع ضوء نجمة بعيدة شديدة اللمعان في الأفق الغربي، كأنها الكوكب الدري في الأفق، وطاف أبو فراس في ذهنها وهو يشتكي متألماً: «إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى، وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر»، فأحست برغبة عارمة في البكاء، ومسحت دمعة صارعت حتى استطاعت الفرار من سجن عينها. أخذت نفساً عميقاً، فوجدت لذة غريبة تسري في جنباتها وهي ترى كل تلك النجوم الساطعة، وقد زينت تلك السماء الصافية الغارقة في ظلام ساحر يستوعب كل أبعاد المكان والزمان. وأحست لبرهة أنها جزء من هذا الكيان الساحر، وأنها نجمة في سلسلة من نجوم هائمة في ملكوت لا أول له ولا آخر، بل وتصورت للحظة أنها «فينوس» ذاتها وقد تاهت دلالاً على بقية النجوم بجمالها وألوانها الزاهرة. ثم لم تلبث هذه البرهة أن تنجلي بالسرعة ذاتها التي حلت بها، وهي لذلك من الآسفين..

لم تتغير السماء ولا نجومها ولا فراقدها ولا كواكبها، هي السماء ذاتها والنجوم ذاتها التي كانت تراها في القرية صغيرة، ولكن كل ما تحت تلك السماء وتظلله النجوم قد تغير وتحول. ربما لو كانت هي نجمة من نجوم السماء تنظر إلى الأرض لطافت في ذهنها الفكرة نفسها، حيث تصبح الأرض هي السماء، وتصبح السماء هي الأرض، وتنتفي الفروق بين الأعلى والأسفل، ولا يعود إلا كون بلا أبعاد.. ربما..

وطردت أيضاً هذه الفكرة العابرة الثقيلة من خيالها، وفتحت النافذة لبرهة صغيرة، وأخذت تستنشق بعمق ولذة هواءً بارداً مُشبعاً برطوبة في غاية

النعومة، ثم أغلقت النافذة بإحكام وهي تعود إلى ذاتها. . يا إلّهي ما أجمل الرياض في الشتاء وبعض أسابيع من الربيع، بل ما أجمل الدنيا كلها في تلك الأيام! فلا يقارن بقسوة الرياض وسمومها في الصيف، إلا جمالها أيام النسيم والمطر. ولكن. . «لولا القبح ما كان الجمال، ولولا الخريف ما كان الربيع». وابتسمت وهذه الخاطرة تعبر ذهنها، وتأخذها لحظة اعتداد بالنفس، فقد أصبحت فيلسوفة دون أن تدري. . ولم لا؟ ألم يقل أرسطو إن الفلسفة ما هي إلا لحظة اندهاش وتعجب؟ كم كانت تتمنى لو أنها قادرة على قرض الشعر، فربما جادت قريحتها بأنشودة مطر تتحدى بها أنشودة السياب البصري ويكائيات بويب، وشتائيات نزار الدمشقي خلف الأبواب الموصدة، أو تخرج بقصيدة «عدت يا يوم مولدي» تتحدى بها بيرم وآهات فريد. رباه!. . لقد تغيرت الرياض كثيراً منذ مجيئها إليها لأول مرة، بل وفي بضع سنين معدودة، ولم يعد من الممكن تحديد أين تبدأ وأين تنتهي، لدرجة أن الرياض لم تعد هي الرياض، بل تحولت إلى «رياضات» منذ مجيئها إليها لأول مرة. .

*

فالرياض اليوم ليست الرياض التي أتتها أول مرة، وليست الرياض التي سكنتها في الصالحية، وليست هي الرياض التي سكنتها في الشميسي أو الملز. والمشكلة أنها لا تدري اليوم أين تقع الرياض في الرياض، فهي تتقلب وتتغير في اليوم الواحد ألف مرة، كتقلب قلوب أهل هذا الزمان وأيامه. وتبتسم وهي تتذكر كيف كان صالح يأتي بها في عصريات أيام الجمعة للفرجة على قصر «الناصرية» من بعيد، وهو الذي كان يعتبر من عجائب دنياهم السبع في حينه. وكان صالح يحدثها عما يجري في القصر مما يقوله الناس، ومما لا يحدث ولا حتى في أحلام هارون الرشيد نفسه. حتى أنه حدثها ذات مرة بأن واحداً من أصحابه «الواصلين» أخبره أن الملك يتناول بعيراً كاملاً كل صباح على الريق. وعندما أبدت استغرابها واستنكارها، ضحك صالح بغبطة، حتى بدت نواجذه المُصفرة وهو يقول: «هكذا يقول أبو فهد، وما يتداوله معظم الناس. . إنه يتناول البعير معصوراً بعظامه وشحمه ولحمه في كأس واحدة»، ثم يضحك من جديد وهو يقول: «الله يغربلك يا ابو فهد، لا أدري من أين يأتي بهذا الكلام»، ثم وهو يتنحنح وينظر إلى البعيد متأملاً: «كل شيء جائز

في هذا الزمان. كل شيء جائز..»، ويبقى الشك والاستنكار يحتلان صدرها، ولكنها لا تلبث أن توافقه وهي تقول: «نعم.. كل شيء جائز. كل شيء جائز..»، فمصداقية صالح عندها لا يرقى إليها الشك، وكان بنظرها مثالاً لمعرفة تتوق إلى بعض منها. ثم يأخذ صالح في الحديث عما يتناقله الناس من خلاف بين الملك سعود، وولي عهده ورئيس وزرائه الأمير فيصل، وهو يردد «الله يستر. .الله يستر. .أيام هالوقت لا يؤمن لها..»، فيخفق قلبها بعنف، ويهبط إلى ما دون قدميها لمثل هذا الحديث وهي تردد بسرعة وقلق: «الله يستر.. الله يستر.. ولكن دعنا من حديث السياسة، فما ورائها إلا قطع الروس.. الشيوخ أبخص.. الشيوخ أبخص..»، فيوافقها صالح بهزة من رأسه، ثم يواصل حديثه عن القصور وأهل القصور، وآخر ما سمع من طُرف، دون أن تسمعه لطيفة التي كانت غارقة في التفكير في مخاوف كانت تعتمل في صدرها، وهي عاجزة عن فهم كنهها أو حتى التعبير عنها. وتبتسم لطيفة وهي تتذكر كل ذلك، وتحدث نفسها قائلة: «إذا كان كل شيء جائزاً في ذلك الزمان، فماذا يمكن أن نقول في هذا الزمان؟ وإذا كانت تلك الأيام لا يؤمن لها، فماذا نقول عن أيامنا هذه؟.. آيه.. ما علينا، لتمضي الأيام ما شاء لها القدر أن تمضي»، وتعود إلى شريط الذكريات بحنين دافئ..

لكم تحنّ لتلك «الفولكس واغن» البيضاء التي كان صالح يسميها «عقاره الوحيد»، ويدللها بالغسيل والتلميع صباح كل يوم جمعة. وتلتفت دون شعور إلى حيث «جراج» سيارات الأسرة، حيث تقبع هناك المرسيدس السوداء الخاصة بصالح، والجاغوار الخاصة بمشاويرها الخاصة، والجيب الخاص برحلات البر، و«الموتر هوم» الخاص بالكشتات الطويلة، والسوبربان الخاص بالعائلة، والستايشن واغن الخاصة بالسائق لأغراض المنزل، وتبتسم.. فرغم السيارات الكثيرة التي مرت عليهم في حياتهم، والتي يملكونها اليوم، إلا أنه يبقى لتلك السيارة مكانة خاصة، وذكرى خاصة، لم تستطع أي سيارة أخرى أن تحل محلها. وتقودها الذكريات أكثر وأكثر بالرغم منها، فتغوص في الزمان، وتخترقها اللحظات، وهي مستسلمة استسلام عاشق لمعشوق طال انتظاره في قصة من قصص ألف ليلة وليلة..

جمرات تحت الرماد

لقد خرجت إلى الوجود في قرية مجهولة الزمان ومنفية في المكان، ككل القرى في بلادها تلك الأيام. كان السكون والثبات هما حقيقتها المطلقة التي لا تعرف تحولاً ولا تغيراً. قرية هي ذاتها التي عاش فيها أبوها وجدها وجد جدها، وصولاً لربيعة أو عدنان أو قحطان، وربما أبعد من ذلك. فهي لا تدري ولا يهمها أن تدري، ولكن حتى قريتها تلك لم تعد موجودة اليوم منذ أن نُسفت حقيقتها المطلقة في لحظة غفل فيها الدهر عن نفسه، فانفلت فيها الزمان من عقاله، وتناثرت حبات العقد بلا نظام ولا ترتيب. لقد تحولت كما أخذ يتحول كل شيء آخر، ولم يبق من تلك الأشياء القديمة إلا أسماؤها. ربما كانت الأسماء هي جواهر الأشياء في النهاية، ولأجل ذلك علّم الرب العليم آدم الأسماء كلها منذ الأزل، لأنها هي الجواهر الباقية؟.. وربما تكمن الحقيقة في اللاحقيقة، وليس هناك فرق بين جوهر ومظهر، ثابت أو متحول، فالكل في يم السرمدية يعوم، وفي بحر الأبدية يغرق بصمت دون صراخ.. لا تدري..

وطاف في ذهنها بيت أبي الطيب المتنبي: «لك يا منازلُ في القلوب منازلُ، أقفرت أنت وهن منك أواهلُ».. ما أبعد غور هذا الرجل.. ربما كان أبو الطيب محقاً بادعائه النبوة كما يقولون إنه قال؟ فإذا كانت الرؤيا جزءاً من أربعين جزء من النبوة، فالمتنبي صاحب رؤيا، وإن لم تكن من الأحلام. كل هذه الحكمة في شعره إلهام من عزيز قدير لا شك. وأحست برعدة خفيفة تجتاح كامل جسدها، فاستغفرت الله كثيراً في سرها، وصلت على النبي

المصطفى المختار، فليس بعد النبي نبي، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وسيد بني آدم أجمعين. وعادت إلى التطلع أمامها دون أن ترى شيئاً وهي تفكر. .ربما لو كان أبو الطيب المتنبي موجوداً اليوم، لحوَّر في بيته وقال: «لك يا مدائن في القلوب مدائن، أقفرت أنت وهن منك أواهل». بل لعله يرى أن كل شيء قد أقفر: المنازل والمدائن والقلوب، فلم تعد الأشياء هي ذات الأشياء، ولم يعد إلا القبور رغم الحياة، وربما أنشد: «لك يا مقابر في القلوب منازل، امتلأت أنت وهن منك خوالِ». .

طردت أبا الطيب من ذهنها، وانتقل مؤشر بوصلة الذكريات إلى جهة أخرى دون تخطيط منها. .إنها تتذكر الآن هلعها القديم من عواء الكلاب، ومواء القطط، وقهقهات «الزكرت» في آخر الليل، و«نحنحة» العسس وسعالهم المفتعل في الهزيع الأخير من الليل، وذلك حين كان لليل هزيع أخير. فاليوم لم يعد هناك فرق بين الهزيع الأخير من الليل وبين الهزيع الأول من النهار، بل لم يعد هناك فرق بين ليل ونهار. اختفت كلاب الشوارع، وضاع العسس بين سيارات الساهرين ودوريات رجال الأمن، ورجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المتربصين على الدوام بكل أحد وأي أحد، وأصبح «الزكرت» من أهل الجاه والثراء، فاختفوا في فلل العليا والسليمانية، ومزارع الخرج والمزاحمية، ولم تعد الرياض هي الرياض. .

وتبتسم بسخرية وهي تتذكر. . .يا للعجب وغرابة الأيام، فبعد خوفها من الكلاب وكل ما يدب من غير الأنعام، وهي التي نشأت في قرية كل شيء فيها كان يدب، ها هي اليوم تعتني بكلبة سوداء قبيحة من نوع «كولي» دميمة الوجه كما تراها، لا نفع لها ولا فائدة، وأكبر حجماً من شاة نجدية على أيامها، اعتنت هي نفسها بها منذ اشتروها جرواً صغيراً، وقطة فارسية بيضاء أغنج من عذراء في خدرها، وأنعم من أميرة مترفة في قصرها، تأكل طعاماً معلباً ما كانت تحلم به أو حتى تتصوره هي نفسها في الأيام الخوالي، وسمكتان ذهبيتان هما أعز عند هدى وندى من والديهما. إنها تكره كل الحيوانات، ولكن «إذا ما طاعك الزمان طيعه»، كما كانت تردد وهي تبتسم بحنان، وصورة طارق وعبيدة ولطيفة الصغيرة تطوف بخيالها، فلولاهم لما سمحت لكلبة وقطة أن تعيشا بينهم، وتتجولان في المنزل كأحد أفراده. بل

لولا طارق بالذات لألقت بالكلبة خارج المنزل منذ زمن بعيد، بل لما اشترتها جرواً صغيراً من الأساس. فمنذ عودتها من بيروت وهي تحاول أن تعوض طارقاً عن تلك السنوات التي غابتها عنه، حين كان في أشد الحاجة إليها، ولا تدري كيف أثرت تلك السنوات في شخصيته.

حاولت أن تتقبل وجود القطة والكلبة في المنزل برحابة صدر، ولكن شيئاً في ذاك الصدر يأبى القبول مهما حاولت إقناع نفسها. ولكن ماذا تفعل وطارق وعبيدة لا يطيقان فراق «لوسي»، ولا لوسي تطيق فراقهما، وتغلّب الحب على الكره، خاصة بعد أن خلى البيت عليها وعلى طارق والصغار، بعد زواج البنات واختفاء خالد حيث لا يدري أحد، وهي لا تزال لا تفهم ما الذي يجعل طارقاً متعلقاً بكلبة قبيحة الوجه مثل لوسي، رغم أنه يؤكد أن لوسي ليست إلا نسخة من كلبة المسلسل الشهير «لاسي». وتنهدت بعمق وهي تتذكر خالداً. .كم تشتاق له، ولكن يبدو أنه لا يشتاق لها. كم كان صادقاً ذاك الذي قال: «قلبي على ولدي انفطر، وقلب ولدي على حجر». .رأته آخر مرة في بيروت، قبيل «هبوب» عاصفة الصحراء ببضعة أسابيع، حين زارها ووالده، وكانت حينها تستعد للعودة إلى الرياض، ثم اختفى من جديد إلى حيث لا أحد يدري. .

هل كان خجلاً منها ومن حالتها؟. . ربما. . هل كان يمقتها لما فعلته بنفسها؟. .ربما. ولكنها لا تكف عن التفكير فيه. .وهي تتذكر الآن كيف علقت بسخرية على تلك اللحية الطويلة، وتلك الرأس الحليقة التي لم تعتدها من خالد حين زارها في بيروت لأول وآخر مرة، وتمنت بعد ذلك لو أنها لم تعلق على أي شيء فيه. إنها تشتاق إليه في أي صورة كانت. فهو يبقى طفلها مهما كانت صورته. كم كانت تخاف عليه من شلل السوء التي كانت تعتقد أنه يرافقها في الأيام الخوالي، ومن أن يكون قد أدمن المخدرات، وهو الشاب الذي لا ينقصه المال كي يوفر لنفسه ما شاء مما هو محرم أو ممنوع. فطالما انتظرته حتى ساعات الصباح الأولى، وحين يعود يكون في حالة من الغيبوبة وانطفاء العين بشكل لم تكن قادرة على فهمه. لم يكن سكران، فهي تعرف رائحة الخمر، وشكل السكارى، وهو ليس منهم. واكتشفت ذات يوم حبوباً حمراء وصفراء وبيضاء غريبة في غرفته، وواجهته بالأمر، فقال إنها مجرد

حبوب مسكنة، مثلها مثل الأسبرين والتيليانول، تخفف من صداع رأسه حين المذاكرة، ولكن شيئاً من الشك كان يعبث في صدرها، عبث فأر في جحر مجهول.

ساورها شك في تعاطي خالد للمخدرات، ولكنها لم تسمح لهذا الهاجس الأخرق، كما كانت تسميه، أن يستولي عليها، ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الشك. ولم تجد إلا طريقة واحدة لمحاولة إبعاده عما هو فيه، حسب ما كانت تعتقد أيامها. اشترت المجموعة الكاملة لسلسلة كتيبات «التائبون»، و«العائدون إلى الله»، و«رجال عرفوا الله»، بالإضافة إلى كتاب الله، وبعض أحاديث نبوية منتقاة، ووضعتها على طاولة مكتبه. بعدها بعدة أشهر، بدأت تلاحظ أن خالداً قد نزع العقال، وهو المفرط في حرصه على أناقته، وأخذ يرتاد المسجد بكثرة، وترك للحيته العنان، وأصبح لا يشاركهم جلسات التلفزيون أو غيرها، وهو الذي كانت آخر النكات لا تأتي إلا على لسانه. كانت فرحة بالتغير الذي طرأ على سلوك خالد، ولكن قلقاً دفيناً كان ينغص عليها فرحتها. .كان هنالك هاجس يلح عليها بأنها ربما تكون قد أخرجته من هوة ليقع في هوة أخرى، فتطرد هذا الهاجس من ذهنها وهي تردد: «له الأمر من قبل ومن بعد، وعليه توكلنا. .له الأمر من قبل ومن بعد، وعليه توكلنا. .»

وتبتسم حين تتذكر ليلة زفاف خالد بعد تخرجه من الجامعة مباشرة. لقد كانت ليلة من ليالي الرياض التي لا تنسى. رقصت فيها هي وشقيقتاه حتى ساعات الصباح الأولى، رغم أنها لم تكن موافقة على زواجه بهذه السرعة وتلك السن الصغيرة، وهو الذي دخل المدرسة صغيراً على أية حال، وتخرج صغيراً. ولكن ماذا تفعل أمام إصرار والده على تزويجه، فهو يريد لذريته أن تتكاثر وتملأ الأرض، وإلا ما فائدة المال دون بنين، كما كان يقول. مسكينة هي إيمان، فلم تتمتع بزواجها طويلاً، وهي الجميلة والخلوقة وبنت الحمولة، فقد طلقها خالد قبل أن تتم سنتين معه، وكانت حينها في أشهر الحمل الأولى. سامحك الله يا خالد، لماذا تمزق قلوب أحبابك؟. ولكنها تحمد الله على وجود عبيدة بن خالد في أحضانها، بعد زواج أمه إيمان، إذ لولا ذلك لربما ما كانت تدري ماذا كان حل بها. .«عز الله ما لك في الطيب نصيب يا

بني. . ليس كإيمان زوجاً، مال وجمال وأصل. . ولكن. . الخيرة فيما اختاره الله. . الخيرة فيما اختاره الله. . » وتمسح دمعة لم تفلح في منعها من الانسياب، وتعود إلى ذكرياتها. .

*

ويبدو أن لوسي كانت مدركة لنفور لطيفة منها، فهي تتراجع إلى الوراء بخوف ظاهر ما أن ترى لطيفة مقبلة، حتى وإن كانت تحمل لها شيئاً من الطعام على كره منها، إرضاءً لطارق وعبيدة، وهي تصدر أصواتاً أشبه ما تكون بالأنين. أما «فرح»، تلك القطة الفارسية المدللة، فكانت لذة لطيفة الصغيرة وهي تشاهد التلفزيون، إذ كانت تجلسها في حضنها، وتملس على فروتها الناعمة بلذة، فيما كان صالح ينظر إليها وهو يبتسم بحب وحنان صافيين، كانت أحياناً تدفع لطيفة إلى الغيرة، وتتمنى لو كانت نظرات صالح إليها، وليس إلى ابنة ضرتها السابقة. إنها تحب لطيفة الصغيرة كواحدة من بناتها، فهي من رباها منذ أن كانت في الرابعة من العمر، وهي من يعتني بها، كما أن لطيفة الصغيرة لا تعرف لها أماً فعلية سواها، وهي متعلقة بها إلى درجة الجنون. ولكن لطيفة لا تستطيع أن تمحو صورة جواهر من خيالها وهي تنظر إليها، فقد كادت الفتاة أن تكون نسخة مصغرة من والدتها.

تشعر بالغضب والغيرة والتوتر تجتاح ذرات جسدها، فتهم بالتقاط القطة وقذفها من النافذة إلى أسفل سافلين، ولكنها تتمالك نفسها في اللحظة الأخيرة، وتقمع هذه الرغبة في أعماقها، إذ كيف تغار من فتاة بريئة هي بمثابة ابنتها، بل هي ابنتها فعلياً، وكيف تسمح لنفسها بصب جام غضبها على هرة لا قيمة لها، وتقنع نفسها في النهاية إن هي إلا مجرد حيوان أعجم، وإن وجود الحيوانات في المنزل سلوك حضاري هذه الأيام، خاصة بالنسبة لأناس في مثل ثروتهم ومكانتهم الاجتماعية.

ورضخت أخيراً للأمر، ولم يعد هناك ما تستطيع فعله سوى الحرص على أن لا تجلس الكلبة على أحد أرائك مجلس العائلة، حتى لو أغضب ذلك طارقاً وعبيدة لبعض الوقت، وأن لا تلعق شيئاً من أوانيهم، وإن فعلت ذلك، كانت حريصة كل الحرص على غسل الإناء سبع مرات بكل أنواع المنظفات

المتاحة، على أن يكون الغسل بالتراب أحدها، وسط نظرات الخادمات المستغربة. ورغم انتقاد طارق لها على دعوتها «لوسي» بالكلبة، وليس باسمها المختار، إلا أنها بقيت تناديها بالكلبة، ولم يطاوعها لسانها يوماً على دعوتها بغير ذلك. أما فرح، فبقيت هي الأخرى مجرد «القطوه»، أو «البسة»، وسط بسمات أهل البيت الساخرة. ليسخروا ما شاء لهم، ولكنها لن تحب لوسي في يوم من الأيام، ولن تتقبل فرح مهما كانت الأسباب.

*

يا لهذا الزمن.. ما أعجبه! فهي لا تزال تتذكر مجيئها إلى الرياض لأول مرة وكأنه لم يكن إلا ليلة البارحة، وربما ليلة ما قبل البارحة على أكثر تقدير، ومع ذلك تحس أن ذلك كان منذ زمن بعيد. لم تكن وقتها قد تجاوزت السابعة عشرة من العمر بأي حال من الأحوال، إن لم تكن أصغر من ذلك. اسكنها صالح في منزل طيني صغير في حي «الصالحية» على الأطراف الجنوبية القصية لمدينة لرياض، وفي منطقة نائية أقرب ما تكون إلى الخرج منها إلى الرياض، في زقاق ضيق يملأه صراخ الصبية نهاراً، وعواء الكلاب الشاردة وصراع القطط الضالة ومواءها ليلاً، ولا يؤنس وحدتها أحد لا ليلاً ولا نهاراً، إلا تلك العجوز الشمطاء «أم دحيم». فقد كان صالح منهمكاً في عمله طوال النهار، وفي الليل مع شلته يلعبون «البلوت»، ثم لاحقاً يشربون العرق، ولا يعود إليها إلا آخر الليل منهكاً مترنحاً. لكم تذكر كم ليلة أمضتها في انتظاره والخوف يلفها في ذلك البيت وحيدة، وهي تكاد تجزم بأنها تسمع ضحكات الجن وعويلهم من حولها، حتى أنهم يكادون يمسونها بأيديهم اللزجة، وأصابعهم ذات الأظافر السوداء القذرة. وتجزم أن الكلاب في الخارج سوف تنقض عليها في أية لحظة، أو أن أحدهم سوف ينال منها في غياب الزوج. فالكل في الحي يعلم أنها زوجة جديدة ووحيدة، والحارة مليئة بعزاب شبقين مستعدين لنكح كل شيء وأي شيء يمكن أن ينكح، حتى شقوق الجدران من حولهم، كما كانت تحذرها جارتهم العجوز أم دحيم وهي تضحك بحبور ظاهر، وقد تورد خداها الجافان.

قصص كثيرة كانت أم دحيم ترددها على مسامعها من باب التسلية

وإزجاء الوقت، ولكنها كانت تبعث الرعب في مفاصل لطيفة. أخبرتها أم دحيم كيف أن أحدهم نكح كلبة شاردة ذات مرة في بيت مهجور، كان كل من في الحارة يقول إنه بيت مسكون ويبتعدون عنه، ولكنه لم يستطع التخلص من الكلبة بعد إطفاء نار شهوته، فجرته الكلبة إلى وسط الحارة، وكانت فضيحةً عامة أصبح الناس يؤرخون بها، وغادر الشاب وكل عائلته إلى حيث لا أحد يعلم حتى الآن. وما زالت الحارة تتندر برواية تلك القصة بين حين وآخر، والجميع متفقون على أنها لم تكن كلبة عادية، بل هي جنية من سكان البيت كانوا يرونها دائماً تقف أمام بابه، وهي تحدق فيهم بنظرات غريبة، وتمد لسانها بشكل غريب حين ترى الرجال.

كما كانت أم دحيم تروي لها قصصاً كثيرة عن تلك الشابة التي استفاقت فجأة في إحدى ليالي الصيف الحارة وهي نائمة على السطح بمفردها، وهي تحس بثقل يجثم على صدرها، وأنفاس حارة تلفح عنقها. وعندما فتحت عينيها، كان أول ما وقعت عليه نظراتها هو شاب ملثم يرقد على بطنها، وقد كتم أنفاسها بكفه، ويده الأخرى تحاول نزع سروالها الداخلي. ورغم الرعب الذي شلها للحظة، إلا أنها عضته بقوة حتى انتزعت جزءاً من لحم يده، ثم أخذت في صراخ أيقظ أهلها النائمون في حوش البيت والحارة كلها، ففر الشاب ولكنهم امسكوه لاحقاً بعد أن فضحته يده المجروحة. أو تلك الشابة التي استفاقت على شيء يثقل أنفاسها، ففتحت عينيها ولكنها لم تر شيئاً، مجرد فأر أسود صغير كان يسير على أحد جدران السطح، فعادت إلى النوم، ولا يلبث ذلك الشيء أن يعود، فتستيقظ من جديد، فترى الفأر واقفاً هناك وعيناه تلمعان بشكل غريب. تطرده فيعود، وهكذا إلى انبلاج الفجر. وعندما أفاقت في الصباح، وجدت ثعباناً كبيراً أسود ينام إلى جانبها، وفي فمه كان ذلك الفأر الأسود، وعيناه تنظران إليها بحرارة رغم موته، فيما كانت زخات من مطر خفيف وغريب، فلم يكن موسم أمطار، تبلل أجزاء من جسدها. والغريب أنها اكتشفت أن المطر لم يكن إلا في البقعة التي كانت تنام فيها.

هبت الفتاة من نومها وهي تصرخ، وبقيت تصرخ إلى يوم اختفائها، فحبسها أهلها في غرفة لا يدخلها غيرهم. وبعد فترة حملت الفتاة، رغم أنها

كانت عذراء، كما أكد الأطباء ذلك. وعندما حان موعد وضعها، لم يكن هناك أي جنين، بل مجرد دم أسود كريه الرائحة، وريح غريبة خرجت من فرجها، رغم أن البعض يقسم أنها أنجبت طفلاً ميتاً، وكان له لسان بطرفين كلسان الأفعى، وذيل طويل كذيل الفأر. وسرعان ما تخلص أهلها من الجنين بسرية تامة، برميه في بالوعة المنزل بعد أن قطعوه إرباً، ولكن «هل تمكث الأسرار أسراراً في هذه الحارة؟»، علقت أم دحيم. بل وبعد هذه الحادثة، اختفت الفتاة في ظروف غامضة، إذ استفاق أهلها ذات يوم وهم لا يسمعون لها صراخاً كالعادة. وعندما فتحوا الغرفة التي يحبسونها فيها، لم يجدوا إلا شالها الأسود، وقد تلطخت جدران الغرفة ببعض قطرات من دم أسود، وكان الفأر الأسود هناك. ولا يدري أحد حتى هذه اللحظة ما الذي جرى، وكيف يمكن أن تُفسر الحكاية، رغم أن الجميع متفقون على أن للجن يداً في القضية، والجن الكافر تحديداً.

ويروي بعض سكان الحارة أنه بعد اختفاء الفتاة بعدة أشهر، كانوا يرون قبيل الفجر شبحاً بين أشجار النخيل القريبة أشبه ما يكون بفتاة يتناثر الشعر على رأسها وجسدها العاري تماماً، تمسك في يدها طفلاً له ذيل طويل، ولسان من شقين يلعق فيه الفتاة وهي تقف تراقب الخارجين لصلاة الفجر. وعندما حاول البعض التأكد من هذه الحكاية، وتربص للفتاة في مكان بين أشجار النخيل، وجدوا في اليوم التالي موتى دون أن يكون هناك سبب ظاهر لموتهم، كما وجدت أعينهم المقلوعة مرمية إلى جوارهم وقد امتُص ماؤها، وكان الرعب واضحاً على تقاطيع وجوههم. ومنذ ذلك الوقت لم يعد أحد يحاول معرفة ما يجري، بل إنهم أصبحوا يسيرون مسرعين إلى الصلاة وهم يحاولون أن لا ينظرون إلى النخيل. وبقي شبح الفتاة وطفلها يقفان حيث يقفان كل ليلة بين النخيل، «واذهبي بنفسك كي تتأكدي إن لم تكوني من المصدقين» ـ قالت أم دحيم ذلك وهي تنظر للطيفة بعينين أكلهما الرمد والتراخوما، وظل ابتسامة يحتل ما بقي من فمها، ويكشف عن جزء من ناب بقي وحيداً يصارع الزمن. وابتسمت لطيفة برعب لتعليق أم دحيم الأخير.. تتأكد؟.. من ماذا تتأكد؟.. ليكن ما يكون فهي لن تغادر منزلها قبل الصباح، بل لن تغادر غرفتها قبل أن يملأ نور الشمس أرجاء المكان.. إنها ومنذ زمن بعيد كانت

تشعر بالرعب من منظر الأشجار الملتفة على بعضها، ومن رعب دفين لم تستطع التحكم فيه لمجرد رؤية أشجار النخيل، فكيف تريد منها هذه الحيزبون الشمطاء المخبولة أن تذهب إلى الرعب بقدميها؟!..

*

كانت أم دحيم تروي هذه القصص، وعيناها الصغيرتان تفرزان مزيداً من الدمع وهي تضحك بلذة واضحة، فوق تلك الدموع التي كانت لا تفارق عينيها الرمدتين طوال العام، وخاصة أيام الشتاء الرطبة، فيما كان ما تبقى لها من أسنان يبدو وكأنه ناب أفعى عجوز، أو مخلب «أرملة سوداء» تبحث عن غرزهما في أي ذكر يلقحها، مما يجعل لطيفة تشعر بالخوف والرعب يمتزجان بدماء عروقها، ونسيج جسدها المرتعش، وأطياف كل تلك القصص والحوادث التي مرت عليها في القرية تعود إلى ذهنها دفعة واحدة، وتحس بتلك الأنفاس الحارة تلسع عنقها من جديد، رغم أنها حريصة على تغطيته بالكامل منذ حادثة النخيل.

ويبدو أن أم دحيم كانت تجد لذة غريبة في خوف لطيفة الذي تترجمه حركة عينيها الواسعتين بكل جلاء، فتأخذ في سرد مزيد من القصص الغريبة، غير آبهة بوجه لطيفة الذي فرت منه الدماء، ولا بجسدها الذي أخذ بالارتجاف رغم حرارة الجو الخانقة في تلك الأيام من آب. إنها لا تصدق ما تقوله «عجوز قريح» هذه، كما كانت تسميها، ولكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من الخوف، أو ذاك الرعب الذي يسيطر على كل ذرة في جسدها الهزيل. وما أن تتأكد من أن أم دحيم قد غادرت قبيل آذان العشاء بقليل، حتى تسرع فتتأكد من إغلاق الأبواب، ثم تقفل على نفسها غرفة النوم وهي تلعن «عجوز إبليس» والساعة التي جعلتها تعرفها، وتحاول النوم ولكن دون جدوى. فعويل القطط الجائعة دائماً، والشبقة صيفاً وشتاءً في مثل هذا المكان يرعبها، وتتخيل أن الجن والعزاب أخذوا يحاصرونها من كل مكان، فتنظر إلى شقوق الغرفة ويتهيأ لها أن شيئاً لا يلبث أن ينخرط منها، مارد من مردة ألف ليلة، أو أعزب متوتر.. أو ربما حيزبون شمطاء كأم دحيم لا تلبث أن تتحول إلى غولة بعين واحدة، فتتذكر سبحانية «الشاة المتجنسة» التي كانت

ترويها لهم شقيقتها قماشة في الصغر، فتتصور أن أم دحيم ليست إلا غولة أكلت أم دحيم الحقيقية، وتخفت في جلدها الهرم، فتشعر بالرعب يطعنها في معدتها، ثم ينتشر في بقية الجسد.

تتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم، وتقرأ المعوّذتين، حتى تسمع صوت الباب الخارجي وهو يُفتح، ثم تسمع سعلة صالح المعهودة، ورائحة سيجارته النفاذة، فتشعر بشيء من الأمان يسري في عروقها، وبالاشمئزاز في الوقت ذاته. فعما قليل سوف يدخل صالح إلى غرفة النوم، ويطالب بحقوقه الزوجية. وهي تشعر بالقرف من تلك العملية القذرة منذ أن انتبهت ذات ليلة ورأت أباها مضطجعاً على بطن أمها، ورأت كل تلك الأشياء المقززة، والغريب أن أمها كانت واضحة الاستمتاع بتلك الأمور المقرفة، رغم أنها كانت تتأوه ألماً، وبصوت تحاول أن لا يكون مسموعاً، كما بدا لها ساعتها. لم تكن تستطيع المواءمة بين أحاديث أمها المنفرة عن الجنس وعلاقة الرجل بالمرأة، وما رأته تلك الليلة بين أمها وأبيها، وكل ذاك الاستمتاع الذي لم تكن أمها قادرة على قمعه، في الوقت الذي كانت تتألم. .لغز لم تستطع حله إلا بعد حين، بل تحديداً بعد زواجها بفترة ليست قصيرة.

فلطالما حدثتها أمها على أن العلاقة بين الرجل والمرأة شبيهة بالعلاقة بين الزبدة والشمس. الرجل هو الشمس، والمرأة هي الزبدة. فمهما قاومت الزبدة حرارة الشمس، ومهما كانت الزبدة قاسية وصلبة، فلا بد أنها ستذوب في النهاية. والحل هو عدم تعرض الزبدة للشمس على الإطلاق. الشمس تترصد الزبدة. والزبدة تتوق للذوبان في الشمس مهما بدا غير ذلك. ولكن الشمس محرقة ومؤلمة في الوقت ذاته، ولم تستطع أن تفهم ساعتها. .

ورغم نفورها واشمئزازها مما رأته تلك الليلة بين أمها وأبيها، وكل تلك النصائح التي حشتها بها أمها، إلا أنها وجدت لذة غريبة في التلصص على والديها بعد ذلك، وأصبحت تنتظر لحظة التقاء والديها بفارغ الصبر. حتى إذا ما تم لها ذلك، عاد الاشمئزاز، وعاد القرف وتلك الرغبة في الاستفراغ. كم كرهت أمها بعد ذلك كرهاً لم تستطع أن تسيطر عليه، والغريب أنها حاولت أن تكره والدها، ولكنها لم تستطع. وبالرغم مما كانت تحس به من كره لأمها،

إلا أنها تفانت بعد ذلك في طاعتها وخدمتها بشكل أثار انتباه الوالدة، وإن كانت مسرورة بذلك. بل إنها أصبحت تتودد إلى أمها كثيراً وتردد كلمات الحب على مسامعها، وكانت الوالدة في غاية السرور. ولكنها خلال هذه الفترة، كانت حريصة على أن تتأكد من نوم شقيقتها منيرة بجانبها، وزيادة في الحرص، كانت تغطي عينيها بغدفتها السوداء. ولكنها إن نسيت فلن تنسى تلك الحادثة خلال فترة تلصصها على والديها. حادثة بعيدة الزمن، تبدو اليوم وكأنها حلم غير محدد الملامح في ليلة من ليالي صيف سرمدي أبدي..

عبق العود

في حدود العاشرة من عمرها، أو أقل من ذلك ربما. . لا تدري بالضبط. كانت تجمع بعض السعف الجاف من بين النخيل لاستخدامه وقوداً تحت «المقرصة»، بعد ظهر يوم اشتد حره من أيام «سهيل» اللاهبة، وكل شيء في القرية ساكن لا يسمع فيها إلا صوت زفرات الجن الحارة المنتشرة في كل مكان، وهي التي كانت قد اعتادت عليها رغم الخوف الدفين. كانت غالباً ما تكلف بهذا العمل من قبل أمها، وفي الآونة الأخيرة كانت تلح على إرسال منيرة معها كي تساعدها، وكي تتدرب على أعمال المنزل في الوقت ذاته، ولكنها كانت ترفض بإصرار. فهذه هي الفرصة الوحيدة للعب مع ابن عمها فالح بحرية، بعيداً عن انتقاد أقرانه له باللعب مع البنات، وبعيداً عن انتقاد أمها لها باللعب مع الأولاد، وهي المغرمة بذلك، وخاصة مع فتى قد تعتاد عليه، مما لا يجوز للفتاة في مثل سنها وفي كل الأحوال. فإلى سن السادسة، كانت تلعب بحرية مع أقرانها من صبيان القرية، فقد كانت تكره اللعب مع البنات، وتمقت ألعاب البنات، وتشعر بسأم قاتل وهي تلعب «الصقلة»، وألعاب البنات المملة الأخرى كل يوم مع ذات البنات، وذات الحركات المكرورة. كانت تجد نفسها في ألعاب الصبيان أكثر، وتشعر بالإثارة تجتاحها وهي تركض يميناً وشمالاً، وتتعارك مع هذا وذاك من الصبيان، غير عابئة بسخرية قريناتها، وغمز ولمز نساء القرية، وهن يدعونها «الطيف»، ويتضاحكن من أنوفهن، وقد غطين أفواههن بأطراف مسافعهن. ولكن ما إن بلغت السادسة من العمر حتى منعتها أمها من اللعب مع الذكور، ولا تدري كيف

تحولوا من صبيان إلى ذكور حينذاك، وخاصة مع ابن عمها فالح الذي كانت تقضي معه معظم أوقاتها، وجعلت من شقيقتها قماشة رقيباً عليها، وذلك قبل أن تتزوج قماشة بعدة سنوات.

كانت تنظر لأمها وهي تحذرها من اللعب مع ذكور القرية، وتتصورها عارية وقد انكفأ أبوها على بطنها، فتبتسم ساخرة وتعدها خيراً، ولكنها تذهب إلى النخيل وتجمع السعف وتنتظر. ولكن فالح لم يأت ظهيرة ذلك اليوم، فانصرفت إلى جمع السعف، وملاحقة السحالي والخنافس على الرمال الناعمة. وفجأة ظهر لها من بين النخيل شاب في حدود التاسعة عشرة من العمر، تعرفه تمام المعرفة، فلم تجفل ولم تخف، فكثيراً ما كان هذا الشاب ووالده يتناولان القهوة مع والدها بعد الانتهاء من صلاة المغرب خاصة، ثم يذهبون إلى صلاة العشاء سوياً، وهو ابن أثرى عائلة في القرية، وكان الجميع يظهرون له من الاحترام والإعجاب الشيء الكثير، لمكانة أبيه في القرية من ناحية، ولورعه الظاهر من ناحية أخرى. وكثيراً ما كان والدها يمتدح تقوى «يوسف الجذمار»، وورعه ودماثة أخلاقه، ويتمنى لو أنه يكون من نصيب إحدى بناته. لم تكن تعرف أين يسكن ولا من هم بقية أهله، ولم يكن يهمها ذلك. فقد كانت تحبه كثيراً، فطالما أتحفها بقطع حلوى التمر بالسمسم عندما كان يتناول القهوة مع والدها، كما كانت تحب رائحة «دهن العود» التي كانت تتضوع منه دائماً، وتلك اللحية الخفيفة الأنيقة، التي تمنت لو أن لوالدها مثلها، بدل تلك اللحية الطويلة غير المهذبة، التي يأبى والدها أن يمسها إلا في المناسبات النادرة، وبشكل لا يكاد يكون ظاهراً.

تقدم منها الشاب وهو يبتسم وأعطاها قطعة من الحلوى بالسمسم، ثم أخذ يداعبها ويملس على كتفها وهو يسألها عن سبب وجودها في مثل هذا الوقت، حيث لا يسرح ولا يمرح إلا الجن أنفسهم، فهذا وقتهم. ثم أجلسها في حضنه وهو يقبلها بشكل أزعجها، ولكنها لم توجس خيفة، وكانت فرحتها بالحلوى ورائحة دهن العود تلهيها عن أي شيء آخر. ثم أخذت قبلاته تزداد، ولعابه يلطخ وجهها، كما أنه أخذ يتحسس أماكن معينة من جسدها الصغير الهزيل. وفجأة، مد يده إلى ما تحت ردائها، وأخذ يتحسس مكان العفة منها مباشرة بشكل آلمها كثيراً، فقفزت من حضنه وهي تصرخ،

ولكنه ما لبث أن لحق بها وأمسكها من جديد، وأعطاها قطعة أخرى من الحلوى عليها الكثير من السمسم، وهو يحاول أن يجرها إلى حضنه من جديد، ولكنها ألقت بالحلوى بعيداً وهي لا تزال تصرخ، ولكن صوتها اختنق فجأة بشكل كامل، فقد تحولت إلى قطعة من الهلع، ممزوجة بالكثير من حبيبات الرعب، ثم فقدت الوعي تماماً بما حولها..

*

لم تعد إلى الوعي إلا بعد أن أرخى الليل سدوله على القرية، وفتحت عينيها على وجه أمها الملتاعة في حوش منزلهم، وهي ترقيها بما تعرف من آيات وأدعية، ومن فوقها كان البدر يتهيأ لاحتلال كبد السماء، فيما كانت قماشة تمسح وجهها بالماء، ومنيرة تجلس قريباً منها في حال من الرعب واضحة. مرت حادثة ذلك الظهر في خيالها، فأحست بالألم بين وركيها، فعاودها الهلع من جديد، وأخذ جسدها يرتعش بعنف، ووالدتها تقرأ بصوت عال ما تيسر من كلمات الله التي تحفظها. وبقيت عدة أيام وهي في حالة رعب مستديم، ولم تستطع إخبار والدتها بما حدث. وكان أكثر ما يخيفها هو ما فعله بها الشاب أثناء غيابها عن الوعي، فهي تحس بألم شديد بين أوراكها، ولكنها لا تحس بأي شيء آخر فيما عدا ذلك. كل ما قالته لأمها أنها رأت ذلك الظهر حية سوداء تتسلل من أحد الجحور، ففرت منها، ولكنها تعثرت وسقطت على الأرض، ولم تعد تعلم بأي شيء بعد ذلك. ولكن ما لم تستطع تفسيره هو كيف أنها فقدت وعيها بين النخيل، ولكنها استطاعت العودة إلى المنزل، وفقدت الوعي ما أن ولجت عتبة الباب. سؤال حيرها وحير أمها آنذاك، وهي لا زالت لا تدري كيف حدث ذلك.

ذهبت بها أمها إلى الشيخ «سعد» مطوع القرية وإمام مسجدها، فقرأ عليها ما تيسر من كتاب الله الكريم الذي فيه دواء لكل داء، وقرأ على ماء احتفظوا به في زجاجة، على أن تشرب منه قبل النوم وعلى الريق وإن شاء الله لا يكون إلا كل خير وعافية. لم تر الشاب بعد تلك الحادثة إلا بعد أكثر من شهرين، حين جاء مع والده لتناول القهوة مع والدها، بعد انقطاع طويل منه، وأغدق عليها من الحلوى في ذلك اليوم الشيء الكثير. وفي غفلة من الرقباء،

حذرها من أن تخبر أحداً بما جرى. وتردّد الشاب كثيراً إلى والدها بعد ذلك، ولكنها كانت تتهرب من رؤيته، وكان يأتي بالحلوى معه، ويعطيها كالعادة، ويحاول أن يعطي منيرة أيضاً، ولكنها لا تلبث أن تتخلص من الحلوى بمجرد غيابها عن الأنظار، وسط صراخ شقيقتها واحتجاجها على إلقاء الحلوى بعيداً في القليب. وفي كل مرة كان يأتي فيها، كان ينظر إليها نظرات لا تزال تخيفها حتى الآن عندما تتذكرها، ولم تقل لأحد عن تلك الحادثة خوفاً وحياءً في آن واحد. راودتها نفسها ذات مرة أن تحكي لشقيقتها قماشة عما جرى، ولكنها أمسكت نفسها في آخر لحظة، وبقي سرها دفيناً في أعماقها. ولم تعد إلى جمع السعف الجاف من بين النخيل، بل لم تعد تخرج لوحدها بعد تلك الحادثة، ولم تعد إلى الإحساس ببعض الأمان إلا بعد فترة طويلة، حين رحل الشاب عن القرية إلى حيث لا تدري، ولا يهمها أن تدري، ولكن خوفاً من الأشجار الملتفة ظل قابعاً في ذاتها لا يريم.

*

وأصبح دهن العود من أكره الروائح لديها، حتى إذا شمته شعرت بالغثيان يجوس خلال جوفها، وحرمت على صالح أن يضعه بعد ذلك، وهو الذي كان يحبه كثيراً. ولكن الغريب أنه رغم أن رائحة دهن العود كانت تصيبها بالغثيان إلى درجة الاستفراغ، إلا أنها كانت تشعر بشبق شديد يجعلها في حالة من الحرج والخجل الشديدين كلما استنشقت رائحته. الغثيان والشبق يتناوبان عليها فيتحول الاستفراغ إلى نوع من اللذة، وتتحول اللذة إلى نوع من الاشمئزاز. والحقيقة أنها لم تكن تعلم سر كرهها لرائحة دهن العود، والغثيان والشبق الملازمين لرائحته، وأشياء أخرى كثيرة، إلا بعد تلك الأعوام الطويلة التي قضتها في بيروت.

بل إنها ومنذ تلك الحادثة كانت تتخيل أن هناك من يسير خلفها عندما تمشي، أو أن هناك أنفاساً حارة تلفح مؤخرة عنقها عندما تقف وحيدة، وخاصة عندما تساعد أمها في إعداد وجبة الطعام لأبيها وأخويها، أو أن هناك يداً تحاول التسلل إلى حيث مواطن العفة فيها، فكانت حريصة كل الحرص على أن لا يتبين أي جزء من عنقها أو رأسها، والتأكد من إحكام ربط سروالها

الداخلي، خاصة وهي نائمة. وأقسمت لأمها ذات مرة أنها رأت حمار الجيران يبتسم لها ويمد لها لسانه، ولم تذكر لها أنها كانت تراقبه بدقة تلك الظهيرة. فضمتها أمها إلى صدرها وهي تبسمل عليها وتقول «عزا الله عين ما صلت على النبي. . عين ما صلت على النبي. . أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق الله. . أعوذ بكلمات الله التامة من كل دابة ولامة. . أعوذ بكلمات الله التامة من كل عين لامة، ومن كل شيطان وهامة»، فيما كانت دموعها تبلل خديها الجافين. وبعد حادثة النخيل بأشهر معدودة، جاءتها الدورة الشهرية لأول مرة. .

*

لم تكن تدرك مغزى ما فعله ذلك الشاب معها تماماً إلا بعد أن بلغت سن النضج بفترة طويلة، رغم أنها لا تزال تجهل ما الذي فعله معها بالضبط، ولكن ذلك لم يعد مؤلماً بقدر ما تثيره ذكرى ألم جرح قديم. وعندما كبرت قليلاً، عرفت أن هذه «العملية القذرة» جزء من الزواج، ولكنها لا تستطيع نسيان أحاديث أمها السابقة، ولا تستطيع نسيان ذلك المنظر المقزز لأمها وأبيها وهما متلاحمان كما الحمير التي تراها في القرية. وهي لا تنسى منظر ذلك الثور الضخم الذي أتوا به ذات يوم ليلقح بقرتهم، وكان ذلك بعد أن أتتها الدورة بفترة وجيزة. كان منظراً مقززاً وهي تسترق النظرات إلى الثور وهو يعتلي البقرة، وكل ذلك السائل الأبيض الكريه الذي كان يتصبب من فرج البقرة. لقد أصابها ذلك المنظر بالتقزز والغثيان، فاستفرغت عدة مرات. ولكنها في الوقت ذاته أحست بشيء غريب في داخلها يدفعها إلى الاستمرار في التلصص ومشاهدة المنظر، وهي تشعر بدرجة حرارتها ترتفع حتى كأن كل جسدها يغلي من الداخل، وكأن حمى عاتية هاجمته دفعة واحدة. وكلما أشاحت بوجهها عن المنظر، عادت وأخذت تنظر إليه من جديد، باشمئزاز ومتعة في الوقت ذاته، وحرارتها ما زالت في غاية الارتفاع.

وعندما انتهت مسرحية الثور والبقرة، أحست بهمود شديد، وراحة ضافية، كما لو أنها ألقت بنفسها على الفراش بعد يوم طويل من العمل الشاق، ولكنها أحست في الوقت ذاته باحتقار عظيم في داخلها، واشمئزاز

كبير لذاتها، حتى أنها استفرغت كثيراً ذلك اليوم، وأصابها إسهال شنيع حتى شكت والدتها أن بها داءً لولا أن توقف الإسهال في اليوم التالي. وأخذت بعد هذه الحادثة تنظر عميقاً في عيون كل من يقابلها بعد ذلك من أهلها خاصة، وأهل القرية عامة: أشاهدها أحد وهي تتلصص؟ تلك طامة كبرى إن كانوا قد فعلوا». وتيقنت أن أحداً لم يرها وهي تتلصص على حوش الحيوانات بعد مدة، إلا أنها بقيت في شك من الأمر، ولكن احتقار الذات بقي ملازماً لها لفترة طويلة.

وحاولت بعد ذلك أن تكون مستقيمة كما يجب قدر الإمكان، حتى طوى النسيان كل شيء، ولكنها لا زالت لا تستطيع أن تديم النظر في عين من يحدثها. وإن هو أدام النظر إليها، كانت تشعر بالخجل الشديد، وعدم القدرة على التحكم بحركاتها أو كلامها. ورغم الاشمئزاز من ذلك المنظر، إلا أن الحمى ذاتها كانت تهجم عليها كلما رأت ثوراً أو بقرة بعد ذلك، بل إنها لم تكن قادرة على محو صورة ما حدث بين الثور والبقرة تماماً من مخيلتها رغم المحاولة. والغريب أن الحليب أصبح يسبب لها الغثيان منذ ذلك اليوم، رغم حبها الشديد له، ولم تستطع شربه بعد ذلك إلا ممزوجاً بشيء ما، أي شيء يمكن أن يغيّر من لونه الأبيض، وسط استغراب أهلها الذين كانوا يعلمون مدى عشقها للحليب الصافي، خاصة عندما يكون ساخناً في أيام الشتاء الباردة.

أما أكثر ما يثير قرفها فهو ذلك المخاط اللزج الذي وجدته على سروالها الداخلي بعد حادثة النخيل، وكيف أنها استفرغت كثيراً حين اكتشفته. ولا يمكنها أن تنسى أحاديث أختها قماشة بعد ذلك عن التقزز الذي كانت تشعر به وزوجها يلقي بنفسه عليها، وكثيراً ما كانت تتصنع النوم حتى ينتهي منها بأسرع وقت ممكن، أو ربما تصنعت قضاء حاجة ما كي تتخلص من طلباته التي لا تتوقف. وكانت أجمل لياليها هي تلك التي كان زوجها يقضيها بين زوجاته الأخريات، وكم كانت تتمنى لو أنه يلغي ليلتها جملة وتفصيلاً. وعندما تزوجت هي، كانت تعلم أن صالح لا بد أن يفعل بها ما كان يفعله أبوها في أمها، أو زوج شقيقتها فيها، أو ما يمكن أن يكون الرجل قد فعله بها وهي لا تدري. وطاف في خيالها تلك الألعاب الصبيانية التي كانت

تمارسها مع فالح، ولكن لم يكن يخطر ببالها أن تكون زائدته اللحمية التي كانت تستغرب وجودها، منحشرة في جسدها.

كانت تشعر بالرعب في البداية من فضيحة أن يكتشف صالح أنها ربما لم تكن عذراء. وكانت على أعصابها وهي تصحو صباح ذلك اليوم المشهود، منتظرة الإعلان عن النتيجة الذي لا بد أن يتم. وكم فرحت عندما أعلنت أمها بابتهاج، رؤيتها لقطرات الدم النقية تلوث الفراش بعد أن استسلمت لصالح في الليلة الثالثة من الزواج، بعد أن نصحتها أمها بضرورة الاستسلام وإلا كثرت الأقاويل، ولا أحد يحب الأقاويل.. «فالثقل زين»، كانت أمها تقول، «ولكن ترى من تغلى، تحلى وأنا أمتس». ولكن تجربة تلك الليلة لم تلغي اشمئزازها من العملية كلها، بل وطدتها أكثر وأكثر. وما كان يثير اشمئزازها أكثر هو تلك الرائحة التي أشبه ما تكون برائحة القيء التي كانت تنبعث من فم صالح، وذلك الشبق الذي يبديه وهو ثمل، فتحاول أن تتنفس من فمها عندما يمارسان الجنس، وهي مغمضة العينين. وعندما تفتح عينيها لوهلة، ترى نقوش الجدري في وجه صالح الأسمر، وكأنها قد تحولت إلى فتحات براكين على وشك الانفجار. تحس لحظتها أنها بحاجة إلى التقيؤ، ولكنها تمسك نفسها، ويبدأ إحساس عجيب بالمتعة ينبثق في جسدها، فتهدأ معدتها، وتبدأ ألوان الطيف تلعب بمخيلتها، ولكن صالح لا يلبث أن ينطرح جانباً وهو يتنفس بسرعة وصعوبة، فتحس أنها قد تدحرجت من قمة جبل، إلى سفح مطل على واد لا قرار له، وتصيبها كآبة لا تدري كيف تسللت إلى ذاتها المغلقة. وما أن يستكن جسد صالح، حتى تغفو بسرعة عجيبة، وقد أحست بحالة من الأمان الفعلي، لا تفيق منها إلا والنور يملأ أرجاء المكان، حيث توقظ صالح لشراء خبز التميز الطازج والفول قبل أن ينفذا. أحداث كثيرة تمر على خاطرها اليوم وقد جاوزت الخمسين، لم تكن تذكر منها إلا أطيافاً باهتة تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد عندما كانت في الأربعين، لولا أيام بيروت التي أعادت الذاكرة إلى ذاكرتها، وأشعرتها أن ذاتها ليس من الضروري أن تكون هي ذاتها..

*

ولم تبدأ بالتمتع بالعملية الجنسية إلا بعد فترة طويلة من الزواج، وبالتحديد بعد مجيء خالد وبدرية. فقد بدأت تلمس في صالح نوعاً من الرجال لم تخبره في السابق، وهي العديمة الخبرة أساساً، ولكن من عرفتهم من رجال في حياتها، سواء زوج أختها أو شاب النخيل، أو تلك المعاملة الجافة التي كان والدها يعامل بها والدتها، جعلتها تنظر إلى صالح بعين مختلفة. نعم لم يكن وسيماً بأي معيار من المعايير، ولكنه كان جميل النفس، وهذا هو المهم. فقد كان رقيقاً معها، ولم يعد يقترب منها إلا عندما يراها مهيأة لذلك، اللهم إلا في تلك الأوقات التي يثمل فيها أيام الصالحية والشميسي، فكان لا يهمه إلا إطفاء لهيب شبقه، ومع ذلك لم يفقد رقته تماماً حتى في تلك اللحظات.

نعم. ما زالت تشعر بشيء من الخوف والاشمئزاز عند بدء كل ممارسة جنسية، وما زال ذلك المغص اللعين يرافقها قبل الممارسة، وذاك الغثيان والصداع الشنيع يرافقانها بعد الممارسة، ولكن هذا الشعور لا يلبث أن يزول بعد أن يحيطها صالح بحنانه، ومع ذلك فهي من النادر أن تصل إلى الذروة. بل إنها ولفترة طويلة، لم تكن تعرف ما هي الذروة، وكانت تعتقد أنها قصر على الرجال فقط، وما النساء إلا مجرد وسيلة لذلك، حتى قرأت كتاباً عن الحياة الجنسية للإنسان، وأدركت أن للنساء ذروة كما للرجال. وأدركت حينها معنى ذلك الهمود الشديد الذي شعرت به حين كانت تتفرج على مسرحية الثور والبقرة حتى لحظة إسدال الستارة. كل ما كانت تحس به هو ارتفاع في درجة الحرارة، وسرعة في خفقان القلب، وراحة لذيذة لبعض الوقت، ثم هبوط شنيع، واكتئاب مريع، ولا شيء عدا ذلك. والغريب أن صورة الثور والبقرة كانت هي التي تجلت أمامها بوضوح، وبدون إرادة منها عندما وصلت للذروة لأول مرة في حياتها الزوجية. ولكن كل ذلك لم يمحُ ذلك الشعور الغامض من الخوف قبل البدء بالممارسة، والقلق الذي بقيت تحس به عند كل ممارسة، ولا ذلك الغثيان وآلام المعدة التي كانت تنتابها بعد كل ممارسة.

*

حاولت أن تعاتب صالح كثيراً على شربه المستمر، وجربت معه أساليب

الصد والخصام والهجران والدموع وكل أسلحة الأنثى التي تعلمتها مع الأيام، الدفاعي منها والهجومي، ولكن لا شيء ينفع. بل كان يبدو أنه في غاية السرور عندما تمارس معه مثل هذه الأساليب، إذ أصبح غيابه عن المنزل يدوم لفترات أطول، وفترات الخوف والهلع تستمر أكثر. وأخيراً أسلمت أمرها لله الذي لا يخيب من توكل عليه، ودعت له بالهداية، وانصرفت إلى العناية بطفلهما الأول «خالد»، وحاولت أن تمنحه ذاك الحب الذي عجزت عن إيصاله لصالح، والحصول منه على ذاك الحنان الذي طالما حلمت به في خيالها، والذي بخل به صالح عليها، وبخلت به الدنيا عليها، رغم كل حنانه الذي تشعر أنه مستقر في جوانبه، ولكنه لسبب ما لا يريد أن يعبر عنه. أهذه هي طبيعة الرجال، أم أن هنالك ما يجعلهم كذلك بالرغم منهم؟ سؤال حائر بقيت طوال الوقت تبحث له عن جواب دون جدوى.

ثم أطلت عليهم بدرية بعد سنوات أربع من مجيء خالد، وتلتها مشاعل بعد أقل من سنة، ثم جاء طارق بعد اثني عشر عاماً، وهو الذي صممت على أن يكون آخر العنقود، بعد أن كانت قد قررت التوقف عن الإنجاب بعد ولادة مشاعل، بالرغم من إلحاح صالح على مزيد من الأبناء، ولكنه جاء بالرغم منها، ولم تكن تعلم أن هذا الذي جاء بالرغم منها، سوف يكون أحب الجميع إليها. وابتسمت بحب وحنان وهي تذكر طارقاً، ورددت في نفسها: «سبحان الله.. يأتون ويأتون بحبهم معهم»، وحانت منها لفتة إلى الأعلى دون شعور، وقد أحست أنها تحولت إلى حب صاف. وازدادت مسؤولياتها مع مقدم الأطفال، ومع كل تلك الولائم التي كان صالح يقيمها بشكل شبه يومي، سواء على الغداء أو على العشاء، ويترع فيها هو ومدعوه زجاجات لا تحصى من العرق الوطني أيام الشميسي، ثم من الويسكي الاستكوتلندي والفودكا الروسية أيام الملز، ثم النبيذ الإيطالي والفرنسي الفاخر مع الطعام، والكونياك و«الليكور» الفرنسي بعد الطعام لاحقاً.

ورغم أن صالحاً أتى لها بخادمة أفريقية جلبها خصيصاً من مكة، تساعدها في أعمال المنزل، ثم أصبح يأتي بالطعام من المطاعم والمطابخ التجارية، إلا أنها لم تستطع إلا أن تعاتبه على كل تلك الولائم، وهذا الإسراف الذي لا مبرر له، وهم أناس «على قد حالهم»، ولديهم أطفال

يحتاجون إلى كل قرش يكسبونه. وكان رد صالح على عتابها هو ضحكة مجلجلة من ضحكاته النادرة وهو يقول: «إيه.. اللي ما يدري يقول هندي..»، ثم وهو يمسح عينيه الصغيرتين ويواصل الضحك: «أو كما يقول المصريون.. اللي ما يعرفش يقول عدس.. هذه الولائم هي التي ستأتي بالخير الوفير إن شاء الله»، ثم يتركها وهو لا يزال يضحك، غارقة في حيرتها لا تفقه من ألغازه شيئاً.

دخان القماقم

وشعرت بالقشعريرة تسري في سراديب عظامها ودهاليز داخلها، فأحكمت الروب حول جسدها المرتعش، وأحكمت إغلاق الستارة بعصبية وهي تتأفف، وهي تلمح سيارة مرسيدس سبور فارهة تحوم حول البيت، وقد انبعثت منها موسيقى صاخبة، تتخللها ضحكات ماجنة، وتبطئ من سيرها كلما حاذت سور الفيلا، وتطل منها بعض الرؤوس باتجاه النافذة التي تقف عندها، ثم ألقت نظرة على صالح، وتأكدت من أنه لا يزال يتنفس، بعد أن توقف شخيره، ثم أعادت إحكام الغطاء على جسده المكشوف من جديد، وغادرت إلى الممر الصغير. «هداه الله»، رددت وهي تغادر الغرفة، «لم يعد صغيراً وقوياً كما كان، كي ينام بمثل هذه الملابس الرقيقة فقط، وخاصة في مثل هذه الأيام»، ثم تزفر بشدة وتقول: «آيه.. الشكوى لله، الله يهديه.. الله يهديه..»، ثم تبتسم ومقولة لفرنسيس بيكون حول تغير وظيفة الزوجة تطوف في ذهنها، فهي: «في الشباب عشيقة الرجل، وفي الكهولة رفيقته، وفي الشيخوخة ممرضته».. لم تكن عشيقته في يوم من الأيام، ولم تكن أيضاً رفيقته، ولكنها حتماً تمرضه هذه الأيام.. «ربما كان بيكون يتحدث عن نساء الغرب وليس نساء الشرق.. وعلى أية حال.. لماذا يجب أن يكون الرجل معياراً لما يجب أن تكون عليه المرأة؟.. لماذا؟..»، أخذت تحدث نفسها فيما هي تخرج من الغرفة.

لقد زاد قلقها كثيراً على صالح، منذ أن أخبره الطبيب في آخر فحص أجراه، أن نبضات قلبه ليست منتظمة تماماً، ونسبة الكلسترول والجلوكوز في

دمه مرتفعة نسبياً، مع ارتفاع طفيف في ضغط الدم، كما أن وظائف الكبد لم تكن كما ينبغي. لم يكن الأمر خطيراً كما قال الطبيب، وكل المطلوب هو تنظيم الطعام، والابتعاد عن التدخين والكحول والطعام الدسم والحلويات ما أمكن، ولكن صالح لم يكن مواظباً على نصائح الطبيب، بل لم يكن مكترثاً لها على الإطلاق، فلم يكن قادراً على الامتناع عن كبسة لحم الغنم بالسمن البلدي، وإن تنازل قليلاً، فلتكن كبسة بزيت نباتي «والشكوى لله»، كما كان يردد متبرماً. وكانت السيجارة خليلته التي لا يستطيع التخلي عنها، والكأس لذة الدنيا في مثل هذا البلد، كما كان يقول في لحظات النشوة. وعندما كانت تحذره من مغبة ما يفعل، كان يقول بلهجة ساخرة: «والله حالة.. يعني بعد ما أصبحنا قادرين على الحياة، يريدون أن يحرموننا منها.. الموت أفضل من هذا الحرمان؟!». ثم وهو يزفر بحرارة وينظر بعيداً إلى لا شيء: «توكلي على الرحمن يا أم خالد.. لا أحد يموت قبل يومه.. لا أحد يموت قبل يومه»، ثم يشعل سيجارة ويمتصها بشغف. حاولت معه أن يخفف من التدخين، وهو الذي يدخن أربع علب يومياً، أو أن يدخن تلك السجائر الخفيفة، ولكنه كان يضحك ويقول: «سجاير حريم يعني؟..إذا السيجارة ما كتمت الأنفاس، فهي ليست بسيجارة»، ولا تملك لطيفة في النهاية إلا أن تدعو له بطول العمر والصحة والهداية، وهل بيدها شيء غير الدعاء؟

*

مرت على الغرفة السابقة لمشاعل، وغرفة آخر العنقود حالياً، الصغيرتين التوأم هدى وندى، ووقفت لفترة تنظر إليهما وهما تنامان بهدوء متعانقتين، وتلك البسمة البريئة الصافية ترتسم على ثغريهما، وعادت بها الذكرى إلى يوم عادت من بيروت. كانت تعتقد أن طارقاً سوف يكون آخر العنقود، وهو نفسه الذي جاء دون تخطيط أساساً، فقد كانت مصرة على تكوين عائلة صغيرة يمكن رعايتها بشكل أفضل، رغم إلحاح صالح على إنجاب المزيد من الأبناء، حتى أنها فكرت في عملية استئصال للرحم، أو عملية ربط على الأقل، ولكن شيئاً في داخلها كان يأبى عليها أن «تعبث» بنفسها، ما لم يكن لحاجة ماسة تتعلق بحياة أو موت. ولكن بعد العودة من بيروت، أحست بأن الزمن يفر من بين أصابعها، وشعرت برغبة حارقة في أن تحمل وتنجب، وخاصة عندما

ترى لطيفة الصغيرة، وتحمد الله على أنها لم تنفذ فكرتها الخرقاء في استئصال رحمها، وهو الذي أصبح غاية حياتها في تلك اللحظة. وعندما تعود بذاكرتها إلى تلك اللحظات، تستغرب كيف أن قيمة الحياة ذاتها تحولت لديها إلى مجرد حمل وإنجاب.

ولكن الأيام تمر دون أن تحمل، فيصيبها توتر شديد، خاصة وأن دورتها الشهرية أخذت في الانقطاع المقلق، فلم تعد تأتيها إلا كل ثلاثة أو أربعة أشهر مرة واحدة فقط. كل الفحوص التي أجرتها وأجراها صالح أكدت أنهما سليمين، ولكن للسن أحكامه. فلم يعد عدد الحيوانات المنوية ولا حركتها كافية لدى صالح، كما أن بويضاتها لم تعد بالحيوية التي يجب أن تكون عليها. كل ما يمكن عمله في حالتهما هو تناول عقاقير منشطة ليس إلا. يستولي عليها القلق، وتحس بأنها عائدة إلى الجحيم الذي كانت فيه، فتحاول إقناع صالح بإجراء تلقيح صناعي، ولكنه يرفض. .«من يضمن لي أن المولود سيكون من صلبي؟. .وما أدراك أنهم قد يخطئون في التلقيح، فيلقحونك بماء غير مائي؟»، كان صالح يقول وهو رافض كل الرفض للفكرة. وكادت أن تجن عندما مرت أربعة أشهر ولم تأتها الدورة. وعادت إليها حالة الغثيان والعزوف عن الطعام والشراب، وشعرت بكره شديد نحو صالح. وعندما راجعت طبيبها الخاص، بشرها بالحمل، وأن ما تعانيه كان من أعراض الوحم، ولكنها لم تلاحظ لانشغالها بحالتها النفسية، والخوف من العودة إلى الجحيم من جديد.

قبلت الصغيرتين بحنان، ثم عرجت على غرفة حفيدها «عُبيدة» ابن ولدها خالد، فلم تجده في سريره، ولكنها لم تقلق. فهي تعلم تمام العلم أنه في غرفة طارق، فهو متعلق بعمه بشكل كبير. ثم عرجت على غرفة طارق وتأكدت من إغلاق جهاز الكمبيوتر الذي ينساه مفتوحاً دائماً وينام. تغطي عُبيدة المنطرح على الأرض، وهي تنظر إليه باسمة وتقول بهمس: «صدق من قال إنه ليس أعز من الولد إلا ولد الولد»، ثم تقبلهما وهي تبتسم. كم تحب طارقاً هذا رغم شقاوته وعناده، فهو «ذرب» اللسان، وتعلم أنه يحمل نفساً حساسة رغم كل ذاك العنف والقسوة اللذين يبديهما تجاه أخوته وأصحابه، ويكفي أنه أكثر أطفالها تعلقاً بها. لكم تتذكر لقاءها به بعد العودة من

بيروت. كان أشبه بضب أضاع جحره، وهو غير قادر على إيجاد جحر جديد، ثم وجده أخيراً. ومرت أخيراً على الغرفة السابقة لبدرية، وتأكدت من إحكام الغطاء على جسد لطيفة الصغيرة الهزيل، وقبلتها بحب خالص وهي تشعر بشيء من الأسى نحوها، وشيء من الإحساس بالذنب يعتريها. وبعد أن تأكدت من أن كل شيء على ما يرام، هبطت درجات السلم الأبنوسي إلى مجلس العائلة، وتوقفت طويلاً أمام مرآة الحمام السفلي، وأخذت تتأمل وجهها باهتمام..

*

لا زال وجهها القمحي صافياً وجميلاً كرغيف من خبز حنطة لم يمسسه سوء، وبلون خمرة تنافس شعراء الجاهلية والإسلام في وصفها وصفاء لونها، رغم كل تلك التجاعيد الصغيرة التي أخذت تنتشر أسفل العينين وتحت العنق، وتلك الخطوط الصغيرة على الجبهة. وعيناها السوداوان الواسعتان لا تزالان تشعان ببريق الحياة، وكل جمال مها صحارى الجزيرة وريمها، حين كانت الجزيرة لا تزال عذراء في خدرها. وبشرتها الصافية لا زالت بضة وريانة تضج بروح الحياة. وشعرها لا يزال ناعماً وفي سواد الليل في معظمه، ولم تزده تلك الشعيرات البيضاء في المفارق ووسط الرأس إلا جمالاً على جمال، وكأن فناناً مرر فرشاته دون اكتراث في ذلك السواد المظلم من الليل. وتبتسم حين تتذكر تشبيه ولدها خالد لها بعبلة بنت مالك وحبيبة عنترة، أو جليلة بنت مرة وزوج كليب سيد ربيعة، وأخت جساس قاتله، وتتذكر ضحكته الصافية وهو يقول: «قد تشبهين يا أمي عبلة محبوبة عنترة، ولكنك أقرب ما تكونين إلى جليلة محبوبة كليب»، ثم وهو يهمس: «ولكن أبي لا يشبه كليباً إلا في استبداده ربما، وخالي محمد لا يشبه جساساً إلا في هزاله»، ثم وهو يحاول أن يكتم ضحكة: «هل تعتقدين يا أمي أن خالي سيقتل أبي ؟»، فتزجره لطيفة وهي تلقي عليه محاضرة طويلة في مزايا أبيه وخاله، ثم تسرع إلى كتاب «قصص العرب»، فتقرأ أخبار حرب البسوس وداحس والغبراء، وقلبها يرقص جذلاً من تشبيه ولدها لها بعبلة فاتنة نجد، وبجليلة غادة الصحراء.

كم تتذكر كيف كانت تقضي الساعات في تسريح وتجميل شعرها حين

كان يصل إلى أطراف أردافها! ولكنها اليوم تقصه إلى ما دون طرف الأذن بقليل. كانت فخورة بشعرها المسترسل الطويل، ولكنها اليوم لا تأبه لطوله أو قصره، بل إنها تفضله قصيراً، فهو أنسب لوجهها المستدير، وأكثر عملية. . كم تغيرت خلال السنوات العشر الأخيرة بما يعادل عمرها كله. . نعم لقد أصبحت في الخمسين، ولكنها أصبحت اليوم أحلى ألف مرة، وأصبحت أنضج مليون مرة، وهي ترى في المرآة أنها كذلك، فما دهى الرجال كي يحبون الأطفال؟. .

وطاف في ذهنها بيت لنزار: «صار عمري اليوم خمس عشرة، صرت أحلى ألف مرة. ونهدي الذي كان قبل عامين سوياً، قد تكور». سامح الله نزاراً. . فالمرأة في الخمسين أحلى ألف مرة من فتاة العشرين، كما النبيذ المعتق في دنانه. وابتسمت ومثل مصري يفرض نفسه على ذهنها: «الدهن في العتاقي»، نعم هو كذلك. وتشعر ببعض الإحباط وهي تتصور نهديها اليوم، ولكنها مع ذلك أحلى ألف مرة، بالرغم من شعر نزار، وبالرغم من عشاق الأطفال.

وأخذت تشد وجهها بإصبعيها وهي تبتسم، وتحاول أن تزيل تلك التجاعيد الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، فلا تلبث أن تزول للحظات، ثم تعود من جديد، وتفقد الأمل، وتردد بينها وبين نفسها: «إيه. . لا يصلح العطار ما أفسده الدهر»، ثم تنظر مرة أخرى إلى تلك التجاعيد الطفيفة وتتأملها لفترة، ثم تهز رأسها محدثة نفسها: «ولماذا نخاف من التجاعيد؟. . إنها جميلة. . بل هي مثل الغمازات في الوجنات، جمالها في تغضنها. . جمال الخمسين لا يعدله جمال. . وإن رغمت أنوف أطفال الأنوثة، ومُحبي القُصر من النساء. . »

*

وتغادر المرآة وهي تبتسم ابتسامة باهتة وتطوف في ذهنها تلك الأيام التي كانت ترى فيها صورة «سعلوة» أو غولة عندما تنظر في المرآة، بل وحتى رأس «مادوسا» الإغريقية نفسها، وهي فزعة من كل تلك الثعابين التي تتلوى فوق رأسها، وعيناها الميتتان تبرقان ببريق الموت الحجري. أو عندما كانت ترى المرآة مهشمة وما هي بمهشمة، فترى ذاتها وقد انقسمت إلى عدة ذوات لا

يشبه أي منها الآخر. تتخلص بسرعة من تلك الذكريات غير السارة، وتعود إلى لحظتها. بعض صديقاتها نصحنها بعملية شد للوجه في كاليفورنيا، فهناك أروع المستشفيات ومراكز التجميل للقيام بهذه العملية، وهي تعلم أن صالحاً لن يمانع، ولكن شيئاً في داخلها كان يمنعها من ذلك رغم الرغبة والحماسة. فقد نشأت على إن مجرد إزالة الشعر الزائد من الحاجبين حرام، فكيف تغير من منظر وجهها كله؟ ورغم أنها اليوم تذهب إلى أغلى مراكز التجميل في البلد والعالم، وتغير من شكل حاجبيها وكل شعرها ما شاء لها التغيير، إلا أنها لم تستطع أن تقوم بواحدة من عمليات التجميل تلك التي أدمنتها صاحباتها. كانت تحاول إقناع نفسها بالقيام بما كان يقوم به جميع من تعرف، حتى الرجال من أصحاب زوجها، رغم كل ما يقال، فتعزم على الأمر، ولكنها في آخر لحظة كانت تمتنع لسبب لا تدريه، فتذهب إلى المرآة، وتنظر إلى نفسها، وتطلق صفرة إعجاب وهي تغمز بحاجبها، وتلغي فكرة عمليات التجميل من بالها. وأخيراً قررت أن تترك الفكرة جملة وتفصيلاً، فطالما أنها لا ترتاح لمثل هذه العمليات، فلماذا تُجبر النفس على ما لا تبغيه؟ ثم تغادر إلى حيث مجلس العائلة في البهو الواسع.

كانت «فرح» أول من قابلها عندما أطلت، وأخذت تتمسح بها وهي تموء بدلال، ولكنها أزاحتها عنها بقوة، فانزوت فرح في ركنها المعتاد من البهو وهي تموء بمسكنة، وأغفت في حين كانت نظرات لطيفة تطاردها بمقت واضح. وأدارت جهاز التلفزيون أخذت تبحث عما يسلي وحدتها، فلم تجد إلا بعض الأفلام القديمة المملة، حيث في نهاية الفيلم تتزوج البنت الفقيرة من حبيبها الغني، أو الفتى الفقير من حبيبته الغنية رغم معارضة الأهل في البداية، وبرامج من أحاديث الوعظ والإرشاد المكررة والمملة، أو المقابلات الرتيبة حيث يتحدث بعضهم بملل، أو أغان تثير السأم، أو ترفع الضغط. ولم تجد بين أفلام الفيديو ما يمكن أن تنسجم معه، فكلها أفلام كرتون أو أفلام عنف لم تستطع أن تستسيغها رغم إصرار طارق وعبيدة على متابعة بعض هذه الأفلام معهما.

تناولت الراديو الصغير، وأدارت مؤشره حتى استقر على صوت «الست» وهي تغني: «سلوا كؤوس الطلا هل لامست فاها، واستخبروا الراح هل

مست ثناياها»، حتى إذا وصلت إلى مقطع: «يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت، كالحلم آها لأيام الهوى آها»، أطلقت لطيفة آهة عميقة صادرة من آخر نقطة في أعماق ذاتها، ثم تبتسم. . كم تعشق الست وصوت الست، ولا ينافسها في ذلك إلا أسمهان وفيروز، ثم تأتي بعدهما ماجدة الرومي إلى حد ما، وأحياناً رجاء بلمليح. غابت مع الأغنية لبعض الوقت، ولكن شيئاً في داخلها لا يجعلها تستقر. أغلقت الراديو، وبحثت بين أشرطة الكاسيت المتناثرة في كل مكان، سامح الله طارقاً، وتناولت شريطاً وضعته في المسجل، ثم أصاخت السمع لصوت قادم من بين الأموات: «في يوم، في شهر، في سنة. تهدا الجراح وتنام. وعمري جرحي أنا، أقوى من الأيام». تجمعت الغيوم السوداء في صدرها، وأحست بألم حاد في حلقها، ودمعة تصارع للخروج، وشيء ثقيل يجثم على أطرافها. كتمت صوت عبد الحليم، ومسحت دمعة استطاعت النفاذ من أعماق الذات، ووضعت شريطاً آخر: «أسقنيها بأبي أنت وأمي، لا لتجلو الهم عني، أنت همي»، أخرجت الشريط، وعادت إلى العبث بمؤشر الراديو، حتى استقر على موسيقى هادئة وكأنها قادمة من عالم الملائكة، ثم اتجهت إلى حيث رف الكتب في واجهة البهو.

*

تناولت بضعة دواوين لنزار قباني وبدر شاكر السياب وايليا ابي ماضي من بين تلك الكتب الأنيقة المصفوفة في مكتبة فخمة لا يقرأ كتبها أحد إلا هي ومشاعل ابنتها حين تزورهم وزوجها وابنتها أيام الجُمع، ثم اتجهت إلى المطبخ، وأعدت لنفسها كوباً من الحليب الساخن بالزنجبيل، وهي حريصة كل الحرص على عدم إصدار أي صوت حتى لا توقظ ماريان وجوسي وروز وجيرالدين، في الغرفتين القريبتين من المطبخ، أو «لوسي» في الحديقة الخلفية للمنزل، ثم عادت إلى غرفة الجلوس، وأشعلت المدفأة، ثم ألقت بنفسها على أقرب كرسي صادفها، وأخذت تحتسي الحليب اللاذع بهدوء، وتشعر بالدفء يسري في عروقها في تلك الليلة الباردة، وصور قديمة تتوارد على ذهنها من أيام «الوجار» والحطب في القرية، وهي تنظر إلى تمثالي «فينوس» و«ديفيد» الرخاميين اللذين يزينان الواجهة الرخامية البيضاء للمدفأة، وغابت معهما للحظات، وهي تتأمل يدي فينوس المقطوعتين، وذاك التناسق الرائع في

تقاطيع جسد ديفيد، ثم أشعلت سيجارة أخذت تمتصها بعمق، وهي تنظر إلى البيانو الأسود الذي يحتل زاوية المجلس وتبتسم بألم وصورة ريمونا تطوف بخيالها..

كيف يمكن أن يكون الابتسام مؤلماً؟..هذا شيء لا يمكن معرفته إلا بشق صدرها، والعودة إلى أيام بيروت..تخيلت ريمونا وهي تعانق الأوتار وتعزف لشوبارت، وسرحت مع أفكارها الخاصة..ما الذي فعله الزمن مع ريمونا يا ترى؟ وماذا فعلت هي مع الزمان؟..إنها تعلم من رسائل هيفاء أنها لا زالت حبيسة المصح، ويبدو أنها ستبقى فيه إلى أن يسترد الله وديعته في جسدها، وأن صحتها في تدهور مستمر، كما أنها لم تعد تلاعب أصابع البيانو، بل لم تعد تتكلم على الإطلاق، وتخشى هيفاء من أنها ستغادر عالم الأحياء سريعاً..

تختفي ريمونا من خيالها، وتعود إلى ذاتها..سبحان الله..لو أن أحداً أخبرها قبل عشر سنوات فقط أنها سوف تدخن، لما صدقته. فقد عانقت الأربعين من العمر وهي تكره رائحة الدخان، وكم تعاركت مع صالح على هذه العادة السيئة التي تجعل رائحته ورائحة ملابسه، بل رائحة البيت كله «مخيسة»، كرائحة جرذ ميت، بحسب تعبيرها. فقد نشأت في عائلة لاتدخن، بل إن «التتن» كان من «التابو» المحرم في قريتها، مثله مثل الميتة والدم ولحم الخنزير، أما الخمرة فهي أم الخبائث، وسبب كل بلاء، رغم أنهم لم يروا الخمر في حياتهم. ولكنها اكتشفت في الرياض عالماً لا يأبه بمحرمات قريتها كثيراً، فلم تحاول مسايرته، رغم أنها أصبحت أكثر تسامحاً تجاهه. هي أيام المصح في بيروت تلك التي جعلتها تدخن.

وأحست بألم جرح قديم حين وصلت إلى هذا الحد في هواجسها، فسحقت السيجارة في منفضة الكريستال الضخمة إلى جانبها، وقد امتقع وجهها وكأنها لتوها قد شربت عصير ليمون مركز، أو جرعة من «الملح الإنجليزي» و«العشرق»، اللذين كان أبوها يعتبرهما سيدئ الأدوية، ويوصي المسافرين خارج القرية بجلبهما معهم في كل حين، ويسقيهم منهما حين كان أحدهم يحس بأي علة، بل وفي كل حين.

وفتحت ديوان نزار على صفحة بعينها، وأخذت تقرأ: «لا. . لا أُريد، المرة الخمسون. . إني لا أُريد». . ويفتر ثغرها عن بسمة وهي تحدث نفسها. . قاتلك الله يا نزار، لا أدري من أين تأتي بكل هذا الكلام؟. . كلام بسيط مفهوم، ولكن لا يحسن الإتيان به كل أحد. . لعل هذا هو سر شاعرية نزار وعبقريته، فالمعاني ملقاة على قارعة الطريق كما يقول الجاحظ على ما تعتقد، ولكن وعاءها اللغوي هو الذي لا يحسنه كل أحد. ليست العبقرية في المعاني، ولكنها في القالب الذي تُقدم فيه. فقطعة اللحم واحدة، ولكنها تختلف في مطعم على جادة الشانزليزيه عنها في مطعم رخيص في أحد الأزقة المتفرعة من الحي اللاتيني. جالت هذه الأفكار في خاطرها، ووجدت أنها لا تتفق معها تماماً، فالمعاني ليست ملقاة على الطريق في كل حال، ولكنها عازفة عن التفكير الجاد هذا الصباح. وتتسع ابتسامتها حين يطوف بخيالها اللحم «القفر» الذي لا يضاهيه أي طعام بالنسبة لوالدها أيام الشتاء، خاصة إذا كان مرقوقاً عليه مع الفقع والقرع. . عليه رحمة الله. . قد يجد نزار أن اللحم القديد شنيع، ولكنه لذة الدنيا بالنسبة لوالدها. .

تتنهد بعمق، وتشعل سيجارة تنفث دخانها في أرجاء البهو، ثم تفتح ديواناً جديداً وتقرأ: «مطر مطر وحبيبتها معها ولتشرين نواح، والباب تئن مفاصله ويعربد فيه المفتاح». تقلب الصفحات بسرعة وتقرأ: «متى تفهم؟. . متى يا سيدي تفهم؟». . وتقلب الصفحة بتأفف، وتجوس خلال الديوان، وقد تناثر رماد السيجارة على صفحاته، ثم تلقي بنزار جانباً، وتتناول السياب وتجوس خلاله، ثم تتوقف وتقرأ: «عيناك غابتا نخيل ساعة السحر، أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر». . وتلقي بالديوان جانباً أيضاً وهي تتأفف، شاعرة بسأم عجيب لم تشعر بمثله من سنوات، وتتحدى إن كان البرتو مورافيا أو بلزاك قادرين على وصفه. لقد كانت كلمات نزار وصوت أم كلثوم تجعلها تغيب عما حولها عادة، كلما شعرت بالسأم والملل ينخران عظامها، ولكنها اليوم سئمة حتى من نزار وأم كلثوم. .

تناولت ديوان أبي ماضي، وجاست خلاله للحظات، وتوقفت عند بعض الأبيات للحظات، ثم القت الديوان بتأفف ظاهر وهي تنهض، وصعدت إلى غرفة النوم من جديد، وعادت أدراجها وهي تحمل دفتراً أنيقاً كثير

الصفحات، مغلف بجلاد أسود سميك، موشى بخيوط ذهبية براقة. فتحت الدفتر على آخر صفحة فيه وأخذت تقرأ: «لا شيء جديد أو يستحق الذكر اليوم. نهوض من النوم وأكل وتلفزيون وقراءة ولعب مع الأطفال. صحة صالح تتدهور بشكل لا يخفى على أحد، ولكنه يرفض الذهاب إلى الطبيب، رغم أنه كان يدمن الذهاب إليه قبل ذلك. مر خالد على خاطري اليوم كما لم يمر في أي يوم آخر، أرجو أن يكون ذلك خيراً رغم أني متشائمة، فعيني اليمنى لم تكف عن الرفيف منذ الصباح، الله يستر. كم أنا قلقة على طارق، فهو لا يقر له قرار، وأكاد لا أراه إلا صباحاً وآخر الليل. ليس لي حيلة مع فتى مفعم بالحياة، ولا أريد أن أتدخل في حياته كما فعلت مع خالد. أشعر بملل شديد، سأتحدث إلى مشاعل وبدرية، فربما أقنعتهما بالسهر في منزل العائلة هذه الليلة..»، وأغلقت دفتر مذكراتها بملل واضح، وأخذت تبحث عن قلم. أمسكت بالقلم وحاولت أن تكتب شيئاً، ولكن لا شيء يخطر على بالها فكتبت: «السأم سم الحياة..السأم سر الوجود»، ثم ألقت بالدفتر جانباً وعادت إلى ذاتها..

كم تتمنى لو أن هيفاء معها في هذه اللحظة، بل كم تتمنى لو أن سليماً كان موجوداً. وشعرت بالأسى وهي تتذكر الدكتور سليم كزبرة، وتنساب دمعة من عينها بالرغم منها وهي تتذكر كيف قُتل برصاصة غادرة في وسط بيروت، بعد توقيع اتفاقية الطائف بسنتين، وبعد عودتها إلى الرياض بما يقارب السنة. المسكين..اعتقد أن كل شيء قد انتهى بمجرد التوقيع، ولم يعلم أن الاتفاقات والتوقيعات لا تُنهي الكره في بعض القلوب، ولا تلغي الغدر في بعض النفوس. هو من علمها كتابة مذكراتها اليومية، فمن خلال هذه المذكرات يُخرج الإنسان نفسه إلى الخارج، فتبدو عارية تماماً أمامه، وذاك مما يريح النفس. المذكرات اليومية هي أفضل علاج لانفعالات النفس وحتى قاذوراتها المترسبة والمتعفنة. ومنذ أن عادت من بيروت، وهي حريصة كل الحرص على كتابة مذكراتها اليومية، وقد كان سليم محقاً. فعندما تعود إلى بعض ما كتبته خلال السنين المنصرمة، تكتشف أشياء عجيبة لم تكن تدرك أنها تنتمي إليها رغم أنها واثقة أنها هي.. غريبة هي النفس.. بل... أحجية!

*

وتعود بها الذكرى بالرغم منها إلى الدكتور سليم كزبرة. . لقد بقي سليم في لبنان طوال سنوات الحرب الأهلية، ولم يغادره كما فعل الكثيرون رغم أنه كان قادراً على ذلك، واستمر في تقديم خدماته الإنسانية للمسيحيين والمسلمين، الوطنيين والانعزاليين، اليمينيين واليساريين على السواء، «فالمرض لا يميز بين أجساد الأحياء، وطعم الجثث واحد بالنسبة لدود الأرض. . والتراب في النهاية لا يفرق بين المذاهب، ولا يصنف الأجساد»، كما كان سليم يردد، ولم يكن يعلم أنه سوف يموت ميتة غادرة، لا معنى لها ولا هدف، وبرصاصة لا دين لها ولا هوية ولا وطن في النهاية. رصاصة لا يهمها ولا فرق عندها بين أن تستقر في صدر طبيب أمضى السنوات الطويلة في المعرفة ثم في خدمة الناس، أو في صدر «بلطجي» متشرد لا هم له إلا إيذاء الناس. رصاصة لا فرق عندها أن تستقر في صدر إنسان أو في صدر حيوان، فكل ما يهمها هو الاستقرار في صدر ما حتى لا تطيش في الهواء. ليس لنا أن نلوم الرصاصة، فقد صُنعت لتستقر في هذا الصدر أو ذاك، وهي تنفذ سبب وجودها، ولكننا يجب أن نلوم من أطلق الرصاصة بهذا الاتجاه أو ذاك، ومن صنع الرصاصة وهو غير مبال في أي صدر تستقر. لقد كانت الرصاصة التي أصابت الدكتور سليم كزبرة رصاصة طائشة، فهو لم يكن يحمل الضغينة لأحد، ولم يكن له أحد من الأعداء، ولكنها رصاصة ضلت سبيلها في لحظة جنون بين فريقين لا فرق بينهما، واستقرت في صدر من ليس له علاقة بأي من الفريقين، وإن كان منهما جميعاً. . وانتبهت إلى حقيقة غريبة تدركها لأول مرة. . إنها إلى الآن لا تدري هل كان سليم مسلماً أم مسيحياً! . . ولكن لم يعد يهمها الأمر. فقد كان إنساناً. وهذا هو المهم بالنسبة لها. .

لسنوات عديدة كان سليم صديقها الأوحد في هذه الحياة، بل إنه مرت فترات أحبت فيها سليم بعمق، وحاولت أن تصارحه بهذا الحب، ولكن شيئاً في داخلها كان يمنعها. ولكن الصداقة بقيت حتى بعد أن تلاشى ما كانت تظنه حباً، وحتى بعد أن عادت من بيروت. . ليرحمك رب الخلق أجمعين يا سليم، فمثلك من يستحق الرحمة. . كم كانت تتمنى لو أن العمر طال به حتى ينتهي من تأليف كتاب كان يزمع تأليفه عن العصاب الجماعي في المجتمع

العربي، وقد أخبرها قبيل مغادرتها بيروت، أن حالتها هي التي أوحت له بفكرة هذا الكتاب، الذي يعتقد أنه سيكون مشروع عمره. ولكن العمر لم يمتد به، ولا تدري إن كان قد أنهى الكتاب، أم أن المشروع مات معه..

ومسحت دمعة انسابت من عينها، وظل ابتسامة باهتة يلوح على ثغرها، ففي آخر رسالة من هيفاء، أبدت رغبتها في أن تزورها في أقرب إجازة عيد، دينياً كان العيد أو دنيوياً، وطلبت منها أن تُدبر لها تأشيرة دخول لا تستطيع الحصول عليها دون مساعدة شخص ذي نفوذ، فقد كانت هيفاء متحمسة لزيارة الرياض، ورؤية كل ذلك الذي كانت لطيفة تتحدث عنه. ثم نهضت إلى المطبخ حيث عادت وهي تحمل فنجاناً امتلأ بحبوب من كل نوع ولون وشكل، فاليوم وليبريم وأتيفان وسيربكس والترانكسين وليثيوم وبارانيت وبارستلين وأنواع من الفيتامينات والأحماض الأمينية والمعادن، وأنواع أخرى لا تعرف أسماءها، ولا يهمها أن تعرف أسماءها، مع أنها أصبحت جزءاً من حياتها، ودخلت في أدق أنسجة جسدها.

ألقت بالحبوب في جوفها بتململ ظاهر، ثم ارتشفت جرعة أخرى من حليب أخذ يبرد وتتجمع طبقات قشدة رقيقة على سطحه، بعد أن غمست إصبعها في الكوب، وامتصت طبقة القشدة بلذة، كعادتها منذ أن كانت طفلة صغيرة، تتعارك مع شقيقتها منيرة من أجل الحصول على هذه الطبقة من القشدة. ونظرت إلى الأفق من خلال ستائر حليبية اللون، اختارتها بنفسها رغم معارضة مهندس الديكور، وقد أخذ يتميز فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود، في حين كان قرص «آتون» وإله «إخناتون ونفرتيتي» يتهيأ للنهوض وإرسال خيوطه الذهبية موقظاً الرقاد من رقدتهم، فيما غابت لطيفة عن ذاتها في ذاتها.

وتناثر العمر من بين الأصابع

يا إلٓهي.. أكثر من ثلاثة وثلاثين عاماً مرت منذ أن اخبروها ذات يوم أنهم قد زوجوها من ابن عمها صالح، الموظف المرموق في الرياض، وأنها قريباً ستغادر قريتهم التعسة، كما كانت تتصورها، الغارقة في أعماق الدهناء والنسيان، وتذهب إلى الرياض حيث الحياة كما ينبغي لها أن تُعاش. لم تكن الرياض حقيقة تبعد كثيراً عن قريتهم، بل لم تكن تبعد أكثر من خمس ساعات بسيارات ذلك الزمان وعلى طرقه الرملية، وهي تكاد تكون اليوم ضاحية من ضواحي الرياض وليست تلك القرية النائية كما كانوا يتصورونها، ولكن الرياض كانت أشبه بالأسطورة بالرغم من ذلك، وسعيد من يجد له موقعاً في الرياض.

لم يكن صالح غريباً عنها، فقد كان ابن عمها، والشقيق الأكبر لفالح وعبدالكريم ورقية وحصة ومزنة، وكانت تعرفه تمام المعرفة، حين كان يأتي لزيارة القرية في المناسبات والأعياد. كان أكبر منها بحوالى خمسة عشر عاماً، قد تزيد عاماً وقد تقل، ولا تذكر من أيامه في القرية الشيء الكثير، بل هي في الحقيقة لا تذكر شيئاً على الإطلاق، فقد غادرها صغيراً بحثاً عن لقمة عيش أسهل وأدسم، وعمل في كل مكان استطاع الوصول إليه. عمل في حفر أبار النفط مع أرامكو، ولكنه لم يتحمل مشقة ذلك، وتاجر في المواد الغذائية لفترة في الكويت، ولكنه لم ينجح، واستقر أخيراً في وظيفة حكومية في الرياض. كانت تفرح كثيراً عندما يأتي لزيارة القرية في مناسبات الأعياد، فقد كان يأتي بالكثير من الهدايا، وتلك الأطعمة والحلويات الغريبة التي كانوا

يسمعون عنها ممن ذهب إلى الشام ومصر والعراق، أو حتى إلى مكة حاجاً أو معتمراً، ولا يذوقونها، وخاصة «الغريبة» و«بلح الشام» الذي كان صالح يخصها منه بهدية خاصة، ثم يقبل وجنتيها بحرارة، رغم أنه لا يقبل الأطفال الآخرين، حتى أخوته الصغار، ثم تمسح هي آثار قبلاته بتقزز وخوف معاً، وظلال تلك التجربة بين النخيل تطوف بخيالها بسرعة، وتتناول بلح الشام بعجل، خوفاً من أن تسطو عليه تلك العيون المتلهفة المحيطة بها، ثم تلتهمه بلذة هي ومنيرة وهما تضحكان بهمس كما مواء القطط حول الطعام.

لكم كانت تحب الحلويات، وخاصة بلح الشام هذا. ولكن مشكلتها أنها أصبحت تتقيأ كلما أكلت شيئاً من الحلويات، مهما كان نوعها حتى التمر. لم يكن هذا حالها قبلاً، فقد كانت على استعداد أن تلتهم طناً من الحلويات والسكاكر دون أن يؤثر ذلك على معدتها. ولكنها أصبحت تشعر بآلام شديدة في المعدة كلما أكلت شيئاً حلواً، ويصيبها الغثيان والدوار، فتضطر إلى الاستفراغ بقوة. وبعد أن تفرغ معدتها تحس بلذة لم تكن قادرة على وصفها أو تحديدها. تشعر براحة مخدرة، وتغفو في نوم عميق لا تزعجها فيه تلك الكوابيس التي أخذت تغزو رأسها الغارق في هجعته. تختفي كل تلك الأفاعي التي تريد الانقضاض عليها، ولا تصحو إلا على أصوات العصافير الجائعة، وهي تجوب أطراف القرية في رحلتها الصباحية منذ الأزل.

*

لم تكن تتصور أن يكون صالح زوجاً لها في يوم من الأيام، بل ولا حتى فكرت في أن يكون أخوه الصغير «فالح» زوجاً لها، رغم أنهما كثيراً ما كانا يلعبان معاً، وكثيراً ما كانت تسمع تعليقات عمها إبراهيم وهو يراهما معاً بأن لطيفة لفالح وفالح للطيفة، فيما يبتسم أبوها بسمة بدت غريبة في حينها. بل إنها لم تكن تفكر بالزواج أساسا ولم يخطر لها على بال، حتى لو لم تكن تحس بكل ذاك التقزز منه. فهي ومنذ أن بلغت التاسعة من العمر، كانت تنهض قبيل آذان الفجر، ولا تنام إلا بعد آذان العشاء، وما بينهما كانت الأعمال لا تنتهي. فهي تعمل في الحقل وفي المنزل في الوقت ذاته، ورعاية البقرة، وإن بقي وقت من فراغ نادر، كانت أمها تكلفها بأعمال أخرى لهذا الجار أو ذلك

القريب. لم يكن لديها وقت للتفكير في أي شيء أو أي شيء.

كانت أحياناً تحسد أخوتها الذكور الذين يعملون بعض الوقت، ثم لا تفتأ طلباتهم التي لا تنتهي أن تبدأ، خاصة وأنه لم يعد في البيت من الإناث غيرها وغير والدتها وأختها الصغيرة منيرة، أو كما كانوا ينادونها في المنزل «مناير» تدليلاً. فقد تزوجت أختها الكبرى «قماشة» منذ زمن يبدو اليوم بعيداً جداً، وكأنه من أيام عاد وثمود، وانتقلت إلى قرية مجاورة، فيما كانت «مناير»، لا تزال صغيرة على المشاركة في أعمال المنزل والحقل وغيرها. ورغم أن سن شقيقتها منيرة لم تكن تتجاوز السادسة من العمر، إلا أن أمها كانت قد بدأت في تدريبها على أعمال النساء التي خُلقن من أجلها. لم تكن تفكر بالزواج إطلاقاً، ولا تتمناه، فقد كانت أختها قماشة لا تقل عنها سوءاً في حالتها بعد الزواج، كل ما في الأمر أنها انتقلت من بيت إلى آخر، ولكن العمل بقي كما هو، وربما أكثر، فقد كانت عائلة زوجها أكبر، وحقلهم أكبر، ولديهم ثلاث بقرات. بل إنها في بعض الأحيان توجس خيفة من الزواج، فقد كانت ترى معالم الحزن على محيا أختها قماشة، وتلك التجاعيد التي أخذت تغزو وجهها قبل الأوان، رغم أنها بالكاد تصل إلى الخامسة والعشرين من العمر، وذلك عندما كانت تزورهم في المناسبات والأعياد رغم أن قرية زوجها لا تبعد إلا بضعة كيلو مترات عن قريتهم، وتشعر بالنفور من كل الرجال وهي ترى زوج أختها وقد علت التكشيرة وجهه على الدوام، وتستغرب كيف يزوجون أختها لرجل بشع أكبر من أبيها، ولديه من الزوجات ثلاث غير أختها، وهو لا يكاد يتوقف عن إنجاب الأطفال.

وأكثر ما كان يضايقها في زوج أختها هو تلك العادة السيئة التي كان يمارسها على الدوام. فقد كان دائم الحك واللعب بما بين فخذيه بإحدى يديه، في الوقت الذي كانت يده الأخرى تجوس في مكان آخر. فقد كان يدخل كامل سبابته أو إبهامه في إحدى فتحتي أنفه الضخم، ويأخذ في التجوال هناك طوال فترة جلوسه، وهو يخرج إصبعه بين الحين والآخر، وينظر إلى ما خرج بها، ويمسحه بأقرب مكان تصل له يده، ثم يتمخط بقوة ويبصق حيثما اتفق على الرمال من حوله. ورغم تقززها من كل ذلك، إلا أنها كانت لا تستطيع منع نفسها من مراقبته وهو يفعل ذلك، بل كانت تحس

بالحرج وهي تضبط نفسها مستمتعة بما يفعل رغم التقزز.

وكم كانت تكره تلك النظرات التي كان ينظر إليها بها من عينيه الصغيرتين الشبيهتين بعيني الفأر، كما كانت تعلق عليه عند أختها، فيما تنهرها والدتها مؤنبة، ولكنها لا تلبث أن تضحك هي الأخرى بدورها، وتغطي طرف فمها بغدفتها وهي تقول بصوت هامس: «عيون الفأر!. . غربلتس الله يا لطيّف، لا أدري من أين أتيت بهذا التشبيه». كان بودها أن تسأل: «ألم يجدوا غير هذا السعلو لتزويجه أختها الجميلة، بل التي كان يضرب بها المثل في طول الشعر واكتناز الجسد، في قرية قل أن تجد فيها من هو مكتنز الجسد؟. .»، ولكنها لم تكن تجرؤ على السؤال، فليس لها إلا السمع والطاعة. لذلك فقد فرحت بخبر الزواج من صالح، لا لرغبتها فيه، بقدر ما هو الحلم بالانتقال إلى الرياض، ونصيب لا ريب أنه أفضل من نصيب أختها، والتخلص من هذا العناء الذي لا ينتهي، وعدم الوقوع بين براثن زوج كزوج أختها، أو ذاك الرجل الذي أمسك بها بين النخيل، والتمتع بكل تلك الطيبات التي كان يجلبها صالح معه. .

نعم. . كانت تحب صالحاً، ولكن كما كانت تحب أباها أو عمها أو شقيقيها محمد وعبدالرحمن، وشقيقتيها قماشة ومنيرة، ولكنها لم تفكر يوماً بالاقتران به أو بسواه، رغم علمها أن الزواج هو مصير وقدر كل فتاة في النهاية. «فما خلق الله المرأة إلا من أجل الرجل وخدمته وتربية أطفاله»، هكذا كانت والدتها تردد على مسامعها دائماً، وهذا ما كان يقلقها في الحقيقة . وبعد حادثة النخيل، أدركت سر تلك النظرات الغريبة التي كان صالح يلاحقها بها كلما جاء في زيارة للقرية، وسر تلك الهدايا التي كان يخصها بها دون الآخرين من أهل بيته ذاتهم، أو هكذا اعتقدت ساعتها. . .

تقطع شريط الذكريات، وتعود إلى لحظتها. .فاليوم تنتابها مشاعر لم تحس بها قبل. نعم. . لقد راودتها المشاعر ذاتها تقريباً عندما وجدت نفسها في الأربعين على حين غرة، وذلك قبل يوم أو يومين على الأكثر حسبما تتذكر وفق روزنامة ذاتها، بالرغم من أنف الزمن، ولكن كلا. . . لم تكن المشاعر نفسها، فهي وإن كانت غير مرتاحة كثيراً لبلوغها الخمسين، بل غير مرتاحة

على الإطلاق، إلا أنها هذه المرة لم تؤخذ على حين غرة مثل يوم أن وجدت نفسها وقد بلغت الأربعين في غفلة من الزمن. وابتسمت وبقايا مرارة قديمة في فمها، وهي تعود بالذكرى بلا إرادة منها إلى تلك الأيام التي بدت بعيدة كنجمة في أعماق السماء.

*

كانوا يستعدون للانتقال إلى فيلّتهم الجديدة، بل إلى قصرهم الجديد في حي «بهجة الرياض» بالعليا، مقارنة بذلك البيت القديم، أو جحر الضب، في الصالحية، كما أصبحت تذكره بعد ذلك ضاحكة، وهي التي كانت «التريقة» تجري في دمها مجرى إبليس في الدم كما كانت أمها تقول. أو ذلك المنزل الطيني في الشميسي، أو تلك الفيلا البائسة في الملز. كانت فيلا العليا هي حلم العمر بالنسبة للطيفة، وقد بناها صالح على قطعة أرض حصل عليها منحة مجانية بالكامل من الحكومة. ما كان من الممكن أن يحصل على هذه القطعة في العليا إلا بمبلغ كبير من المال، ولكن عمله في البلدية جعله قادراً على «تطبيق» المنحة في أي مكان يشاء. عشرة آلاف متر على شارعين رئيسيين من شوارع العليا، ليس بعيداً عن الطريق السريع للدمام والقصيم، وعلى مرمى حجر من تلك المحلات الراقية في شارع العليا العام. لم تكن هذه هي قطعة الأرض الوحيدة التي يملكها صالح، فقد أصبح من كبار مالكي العقارات والمستثمرين فيها، وأصبح من أصحاب الملايين في البنوك، وصار الناس لا ينادونه إلا «بالشيخ صالح»، رغم أنه لا يحمل أي شهادة رسمية في التعليم الديني أو غيره، بل إنه بالكاد يفك الحرف، ولا علاقة له بمشايخ الحكم والسلطان، في إمارة أو قبيلة.

ولكن بالرغم من كل ذلك الثراء، استمر صالح في عمله في البلدية، فقد كان موقعه يخدمه كثيراً. والحقيقة أنه عندما بدأت الطفرة، وبدأت الأموال تنهال عليه من كل حدب وصوب، فكر في ترك العمل والتفرغ لأعماله الخاصة. ولكن كثيرين من شركائه وعملائه أشاروا عليه بالبقاء في موقعه، فهو يسهل الكثير، ويمنح الكثير. وكم كانوا من المصيبين، فقد تحولت وظيفته الرسمية إلى منجم ذهب لا ينضب. فهو يحصل على المنح الحكومية التي يطبقها

حيث يشاء في أملاك الدولة من الأراضي، ويحصل على نسبة عالية من أسعار المنح التي يطبقها للآخرين، ويتاجر في العقار في الوقت ذاته دون أن يتأثر ذلك بعمله الرسمي. بل وفي كثير من الأحيان كان لا يذهب إلى عمله الرسمي البتة، ويتنقل طوال الوقت بين مكاتبه العقارية التي افتتحها في كل حي من أحياء الرياض، وخاصة الأحياء الجديدة في العليا والسليمانية ومجمل شمال الرياض، وشارك آخرين في مكاتبهم ومؤسساتهم العقارية في كل من جدة ومكة والمنطقة الشرقية.

لقد كان صالح يعرف بفطرته أين يكمن القرش فيسارع إلى الاستثمار حيث يكون، حتى أن أحد أصحابه من المثقفين السابقين، ومضاربي العقار الحاليين، حين تحول الجميع إلى مضاربين، علق عليه ذات مرة مازحاً بالقول: «لو بحثنا في أصلك يا صالح، فلا بد أن تكون يهودي الأرومة... فما من أحد يستطيع كسب المال كما تفعل»، ثم وهو يضحك باقتضاب: «فرغم أنك عربي مسلم، إلا أن أخلاق شيلوك تفوح من فكرك وسلوكك.. ولو كان شكسبير حياً، فربما أتحفنا بمسرحية مثيرة لا ريب أن عنوانها سيكون تاجر الرياض، وأنت البطل فيها بلا منازع». ويبتسم صالح وهو لا يدري عما يتحدث عنه صاحبه، ولا يهمه أن يدري. ولكن لا يهم إلى ما يرجع أصله، بل لا يهمه إن كان له أصل من أساسه، طالما أن القرش هو النتيجة. فالقرش اليوم هو أمك وأبوك وعائلتك وعشيرتك وكل أرومتك. ورغم حب صالح للبيع والشراء بسرعة، بحيث أنه لا يمكن أن تبقى قطعة أرض لديه أكثر من أشهر معدودة، إلا أنه احتفظ بهذه القطعة من أجل بناء منزل العائلة، وذلك بعد إلحاح من لطيفة، التي كانت تحذره من مغبة الثقة الزائدة بالأيام...

فالأيام عقارب وثعابين وكل حشرات وهوام صندوق باندورا، لا تدري متى تهيج عليك عندما يفتح أحد العابثين أو أحد الفضوليين الصندوق المغلق، ومثل الذئب لا تدري متى ينتهز الفرصة وينقض على اليد التي أطعمته، كما كانت تردد دوماً. كان صالح يضحك كثيراً مما يعتقده سذاجة قروية لا تريد أن تبرح جمجمة لطيفة، وهذا الخوف والقلق الذي لا مبرر له، ويقول: «دعك من أوهام القرية وسذاجاتها، وأيام الفقر، لا أعادها الله. فلدينا اليوم من المال ما يكفينا ويكفي أبناء أبنائنا»، ثم وهو يضحك بثقة وغرور: «ولو أراد الفقر

أن يطاردنا بصاروخ أميركي، لما استطاع اللحاق بنا». فتشعر بالرعب من حديثه هذا، ويهبط قلبها بعنف إلى ما دون قدميها، وتطلب منه بعجل أن يستغفر الله ويحمده على نعمائه ويديمها، فالبطر والغرور نوع من الكفر، والمال مكر من الله وامتحان، وكما جاء بوفرة في لحظة، فإنه يمكن أن يزول بطرفة عين، وليعتبر بما حدث لقارون، الذي كانت تنوء بحمل مفاتيح كنوزه عصبة من الرجال الأشداء، والحمير والبغال على كثرتها، وبصاحب الجنة اليانعة التي قال عندما رآها مزهواً: «لا أظن هذه تبيد أبداً»، فوجدها في اليوم التالي خاوية على عروشها، وهو الذي كان يظن أنها باقية أبد الدهر. ويستغفر صالح العلي العليم بإيمان صادق، وقلبه يخفق بشدة وهو يسمع كلام لطيفة، ولكنه لا يلبث أن يهدأ ويحاول إقناعها ببيع قطعة الأرض واستثمار ملايينها، ولكنها لا تقتنع بما يقول وتصر على بناء منزل دائم للعائلة بدل هذا الارتحال الدائم من منزل مُستأجر إلى آخر، ومن الصالحية إلى الشميسي إلى الملز، بحيث لم تعد تشعر بالاستقرار، ولم يعد لها من صاحبة ثابتة تحدثها وتحدثها.

*

ورغم أن صالحاً أصبح يمتلك الشقق الفاخرة في لندن وباريس وجنيف والدار البيضاء والقاهرة، وإسطبله في الخرج أصبح من الإسطبلات التي تنافس خيولها خيول الأمراء أنفسهم في سباقات الفروسية، بل وأصبح ينافسهم في رحلات الصيد الباذخة أيام الربيع والشتاء، إلا أنه كان رافضاً لفكرة تجميد مبلغ كبير من المال في منزل للعائلة، في وقت من الممكن أن يتضاعف فيه هذا المبلغ خلال أيام وربما ساعات معدودات. ولكن صالح رضخ أخيراً للأمر على كره منه، وهو يقول لها مازحاً: «إنك يا أم خالد مثل القضاء والقدر، لا راد لأمرك ولا مانع. فاللهم إننا لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه»، ويستغرق الاثنان في ضحكة صافية افتقدوها منذ زمن لم يعودوا يتذكرونه.

وبُني المنزل، وكانت فرحة لطيفة لا توصف وهي تطوف على محلات الأثاث والتحف مع سائقها الفلبيني، لاختيار ما تراه مناسباً لمنزل العمر،

وتلك الحجرات الخمس عشرة التي يتكون منها المنزل، رغم أن صالحاً تعاقد مع شركة «رويال امبيانس انترناشيونال»، أرقى شركات الديكور في البلد، للقيام بكل شيء. كان يحزنها ويكدر عليها سعادتها كون صالح مشغولاً دائماً بأعماله وسهراته التي يمتزج فيها العمل بالمتعة، ولا يرافقها في جولاتها، ولكنها كانت في غاية الرضى من أن المنزل قد أصبح حقيقة في نهاية الأمر، وأن الاستقرار قد حل أخيراً بعد طول انتظار، وهذا هو المهم، ولم تكن ساعتها تعلم بما يخبئه لها القدر في سراديبه المتعرجة والمعتمة، كما أخذت تتذكر وهي تبتسم بأسى بعد حين..

لم يكن قلق لطيفة نابعاً حقيقة من الخوف من المستقبل، أو هكذا كانت تقول لصالح على الأقل، إذ رغم تغير مظهرها الخارجي الذي أصبح يحاكي مظهر أرقى «ليدي» إنجليزية، إلا أن أيمانها الفطري البسيط بأن المستقبل بيد الله وحده، وأن كل شيء مكتوب في كتاب محفوظ، بقي ثابتاً لا يتزعزع، ومحتلاً كل مثقال ذرة في ذاتها وداخلها. كانت من الخارج قد تحولت إلى شيء أشبه بكونتيسة إيطالية، أو ليدي ولدت لعائلة أرستقراطية إنجليزية، وتعلمت في أرقى معاهد باريس، ولكن داخلها بقي عامراً بكل ما هو فطري وبسيط. ولكنها رغم ذلك كانت خائفة مما هو مكتوب ومجهول ولا تدري ما هو، وليس بيدها شيء حياله، وهذا هو المرعب في الأمر.

صحيح أن الأمور بيد الله تعالى، وأنها خطى كُتبت علينا، ومن كتبت عليه خطى مشاها، ولكن يبقى القلق مما يحمله القدر من مجهول، وما يخبئه هذا المجهول من مفاجآت لا تعلم عنها شيئاً، ولا يمكن لها أن تعلم عنها شيئاً. فقد يكون ما يحمله القدر مزيداً من الثراء، ومزيداً من السعادة، وقد يكون العودة إلى أيام العوز والحاجة، ولا تكون السعادة الظاهرة إلا مقدمة لتعاسة مدمرة، فلا شيء مستحيل أمام القدر، ولا شيء مستحيل أمام مكر العزيز الحكيم، وهذا هو ما يرعبها. وزاد من قلقها ملاحظة أن دورتها الشهرية لم تعد تأتي بانتظام. فهي تارة تأتي قبل وقتها، وتارة تأتي بعد وقتها. كما أنها بدأت تلاحظ أن كمية دم الحيض لم تعد كما كانت في السابق، فهي تقل شهراً بعد شهر. صحيح أنها لم تقل بذاك الشكل الكبير، وربما كانت الكمية نفسها فهي لا تحمل مكيالاً، ولكنها تحس في أعماقها أنها لم تعد

بالكمية السابقة ذاتها. لم يقلقها ذلك أول الأمر، خاصة بعد أن أكدت لها بعض جاراتها في حيهم الجديد أن ذلك شيء طبيعي نتيجة حالة عدم الاستقرار التي يعيشونها هذه الأيام، وآثار ذلك على حالتها النفسية والجسدية، وأنهن عانين ما عانت عندما كن في مثل حالها من عدم الاستقرار، وأن كل شيء سيعود إلى طبيعته ما أن تستقر الأمور، ولكنها خشيت أن يكون ذلك مؤشراً لمرض لا تعلم كنهه.

فمع المال الوفير، كثرت سفرات صالح مع أصحابه إلى مدن الشرق والغرب، العرب والعجم، صغيرها وكبيرها، حتى أنه حدثها ذات يوم بعزمه على شراء طائرة خاصة صغيرة بالاشتراك مع بعض شركائه في العمل. ولكنه في النهاية عدل عن المشروع بعد أن وجد أن الصداع المرافق له، أكثر من الراحة التي يوفرها، وذلك «البريستيج» الاجتماعي الذي يحققه. ثم إن استثمار المال لمزيد من الربح، أجدى من طائرة تكلف الكثير، وعداد صرفها لا يتوقف في الحركة والسكون.

نعم.. كان يسافر في السابق كثيراً، ولكن سفراته اليوم أصبحت كل أسبوعين أو ثلاثة بالكثير، وأصبحت أطول من ذي قبل إذا جُمعت على بعضها بعضاً. وكانت لطيفة تعتقد أن كل هذه السفرات كانت من أجل العمل، حتى حذرتها صاحبتها اللعوب أم فهد، وهي الخبيرة والمجربة، من أن القضية ليست قضية عمل فقط، بل إن هناك أشياءً أخرى، وهي تغمز لها بطرف عينها وتخبرها بذلك. لم تفهم أول الأمر، حتى شرحت لها صاحبتها تلك الأشياء الأخرى بتفصيل أثار تقززها وخوفها في الوقت ذاته.

*

بهتت، ولم تصدق بادئ الأمر، فلم تكن تعتقد بوجود مثل هذه الممارسات جملة وتفصيلاً، وخاصة في بلد مثل بلدهم، كما أن ثقتها بصالح بالذات تبقى بلا حدود. ودفعها حديث أم فهد إلى التنصت على أحاديث صالح وأصحابه في سهرات ليلة الجمعة، وهي التي لم يخطر ببالها أن تفعل ذلك من قبل، بل وكان جريمة من الجرائم في عرفها، حين يأتي الحديث حول مثل هذه التصرفات مع جاراتها في أوقات شاي الضحى، أو جلسات

السمر المسائية في الحديقة حين يكون الجو لطيفاً، ونادراً ما يكون لطيفاً، أو في مجلس «الحريم» حيث الطنافس الفاخرة والتكييف المركزي حين يكون الجو حاراً، وهو كثيراً ما يكون كذلك. بل وكانت تشعر بوخزات الضمير كشكات الإبر في قلبها، ويطوف خيال أمها في ذهنها، فيزداد الوخز ويزداد الألم، ولكنها مع كل ذاك الألم لم تستطع أن تمنع نفسها من استراق السمع، وصورة ثور وبقرة تفرض نفسها على خيالها وهي لا تدري لماذا.

وذات ليلة صيفية لطيفة، كان صالح وصحبه ساهرين حول حمام السباحة في الحديقة الخلفية للمنزل، وكانت هي في المطبخ تساعد إحدى الخادمات في إعداد بعض أطباق المازة، وأصوات السهارى تصل إليها واضحة كل الوضوح، ممزوجة برائحة السيجار النفاثة التي لا تطيقها، وقد أصاخت السمع بكل حواسها. كان أحد الساهرين يدندن بلسان معوج:

ـ اشتقت للمغرب وأنا توّي جاي..

فترتفع الضحكات الصاخبة هنا وهناك، يتخللها سعال بعضهم. ثم يأتي رد أحدهم بلسان أكثر اعوجاجاً:

ـ عز الله ذكرتنا بالوناسة على أصولها... وش رأيكم يا جماعة بسفرة إلى كازا ومنها إلى ماربيا، ونختمها بالقاهرة.. ؟

فيرد آخر مدندناً:

ـ بساط الريح يا بو جناحين، مراكش فين وتونس فين..

فيأتي صوت آخر:

ـ عز الله خوش فكرة.. فكرة مزيان بزاف..

فتأتي أصوات ضحكات ثملة، يتخللها صوت سعال، وأحدهم يتمخط بقوة، قبل أن يأتي صوتُ آخر وهو يقول:

ـ صراحة ملينا من ها الكرب اللي عندنا.. أعوذ بالله..

ثم وهو يتجشأ بصوت مسموع، جعل لطيفة تتقزز وتسبه سباً قبيحاً في سرها، يقول:

ـ عز الله من شاف عيون فتيحة، ما تجوز له عيون غيرها..

فيضحك آخر، ثم يقول:

ـ عيون فتيحة ولاّ . .

فيضج الجميع بالضحك، ويأتي صوت صالح وهو يغالب ضحكه ويقول:

ـ بشويش يا جماعة، بشويش. . فضحتونا الله يفضح العدو. . ترى حولنا حريم. .

فيأتي صوت كان واضحاً أنه في غاية السكر:

ـ يا شيخ. . خلهن يسمعن. . فليحمدن الله أننا ما زلنا مبقين عليهن. . أحد يذوق الكيك بالكريما، ولا يعاف الخبز المعفن؟ . .

ثم وهو ينخر بشدة:

ـ لو درينا بأننا سنصبح بهذه النعمة، لما تزوجنا على الإطلاق. . سامح الله الوالد. . سامح الله الوالدة. . أخذا يزنان على رأسي: «تزوج. . تزوج. . نبّي نشوف عيالك قبل ما نموت»، وأنا يا المهبول سمعت كلامهم. . صحيح مهبول. .

ثم يأتي صوت صالح وهو يقول:

ـ عز الله إنك ما انت بناوي على خير ها الليلة يا بو فهد. .

فيأتي صوت أبي فهد الثمل من جديد:

ـ خير ولاّ طير. . أنا طقت براسي. . لقد قررت أن أسافر إلى كازا. . من يخاويني؟ . .

ثم يأتي صوته وهو يغني بلسان أثقلته الفودكا: «يا رايح وين مسافر تروح تعيا ما تقولي، تري ري رم، شقد عذاب الغافلي وانت ما تدري، تري ري ري رم».

واستشاطت لطيفة غضباً وهي تسمع هذه التعليقات، وودت لو كان بمقدورها صفع هذا الرقيع والبصق في وجهه. ولم تستطع صبراً، وأخذت تنظر من النافذة لعلها تلمح هذا الرقيع زوج صاحبتها وجارتها أم فهد. وصدرت منها ضحكة خافتة وهي ترى أبا فهد لأول مرة، رغم أنها قابلته مرة أو مرتين في بريطانيا وأميركا قبل ذلك، ولكنها لم تكن تراه حقيقة. . لقد كان

نحيفاً إلى درجة الهزال حتى أن صالح يعتبر سميناً بالنسبة له، وقصيراً بحيث يمكن اعتباره قزماً، بصلعة تحتل معظم رأسه، وأنف مفلطح بفتحات أشبه ما تكون بنفاثات طائرة، وشارب كث هو أضخم ما في وجهه.

أحسَّت لطيفة بشيء من الراحة عندما رأت أبا فهد، وعادت إلى عملها، وأخذت تقطع اللحم الذي بين يديها بعنف وهي تحدث نفسها: «لا شك أن أم فهد في الجنة مهما اقترفت من ذنوب.. أعانها الله على ها القرد. . فهو «لا وجه في المقعد ولا طيز في المرقد»، وضحكت بصوت عال وسط استغراب الخادمات من حولها، وتعجبت من تحمل أم فهد له.

صحيح أن أم فهد سليطة اللسان، وغير قادرة عن التوقف عن النميمة والغيبة ونقل الكلام بين المجالس، ولذتها الوحيدة تكمن في الوقيعة بين من تعرف ومن لا تعرف، حتى أنهم أسموها بـ «شوكة الطين»، وهناك «تلاطيش كلام» بأنها امرأة لعوب، ولكنها تبقى مليحة جداً، بل هي إلى الجمال الصارخ أقرب. ثم وهي تضحك من جديد وتحدث نفسها: «إن ردفاً واحداً من أرداف أم فهد أكبر حجماً من هذا القنفذ كله! . .»، وتصدر منها ضحكة خافتة أخرى وهي تتخيل كيف يمكن أن يلتقي الاثنان في الفراش، وتعود إلى محادثة نفسها: «فليحمد هذا الخنزير ربه على زوجته، وهو الذي لو بيع في سوق الرقيق أيام الرقيق، لما وصل ثمنه إلى قرش واحد، بل لما اشتراه أحد. . بل لو بيع في سوق البهائم، لكانت الأرنب أغلى منه سعراً، فمن هو ذاك الذي يشتري له من حلاله علة، مثل ما يقولون»، ثم وهي تبتسم بحنق: «ولو كنت زوجاً له، لما غذيته بغير الشعير والبرسيم والخبز اليابس المتعفن، وأكون له من المُكرمين، وعليه أن يكون من الشاكرين. . الله يكون في عونك يا أم فهد». وتعود إلى تقطيع اللحم بعصبية، وصوت أحدهم يأتي من الحديقة وهو يغني باسترخاء: «يا ابو فهد مني غدا الشوق. . ويلاه. . يا بو فهد. . »

ولكن لطيفة لم تدرك ماذا كان صاحب زوجها يعني بـ «الكرب». نعم إنها تعلم ما هو الكرب، وهي التي عاشت تجمعه في صغرها، ولكنها لم تفهم ماذا كان ذلك الرجل يعني بقوله، ولكنها فهمت لاحقاً من أم فهد أن المقصود بالكرب هو الزوجات، وإن لم تخبرها أن زوجها هو قائل مثل ذاك الكلام،

وهنا بدأ الشك يحرق صدرها. حقيقة أنها لم تسمع من صالح ما يثير الشبهات، ولا رأت منه شيئاً مريباً، ولكن إبليس اللعين لم يدعها في حالها منذ تلك اللحظة.

*

بعد تلك السهرة في الحديقة، بدأت لطيفة تلاحظ أن عادتها الشهرية آخذة في التأخر المتكرر، وازدادت شكوكها في صالح، وإن كانت تحاول جاهدة تبديد تلك الشكوك. فربما لم يكن صالح جديراً بتلك الثقة التي أولته إياها، وربما نقل إليها مرضاً من تلك الأمراض التي تسمع وتقرأ عنها، خاصة وأنها قد بدأت في الأيام الأخيرة، ومنذ ملاحظتها لتأخر عادتها الشهرية، تعاني من أرق لا يجعلها تستغرق في النوم لساعات طويلة من الليل، وإن نامت، فإنها تصحو في الصباح الباكر متوعكة المزاج وغير راغبة في عمل أي شيء، كما يكون صالح عندما ينهض صباحاً بعد ليلة أفرط فيها في الشراب، وهي التي كانت تنهض من فراشها كالفراشة في غاية الابتهاج، وقد تلطخت وسادتها بلعاب كثير، مع دوار وصداع وغثيان أخذ يشتد كلما نهضت من الفراش، وطنين لا يريد أن يغادر الأذن إلا بعد حين، مع إحساس بأنها لم تنل قسطاً كافياً من النوم حتى لو كانت قد نامت لعشر ساعات، وألم في المعدة لا تعلم له سبباً.

هل نقل لها صالح واحداً من تلك الأمراض الخبيثة؟ هل أصابها بهذا المرض الغريب الجديد الذي يسمونه بالإيدز من حيث لا تدري؟ فقد لاحظت أن بعض البثور الحمراء الصغيرة تنتشر هذه الأيام على ذراعيها وبين ثدييها وخلف العنق..

تشعر بالرعب يشلها حين تفكر بذلك، وتستغفر الله كثيراً وهي تحاول إبعاد هذا الهاجس من ذهنها. فالبثور الصغيرة جزء من الحياة في صيف نجد اللاهب، وطالما انتشرت هذه البثور في جسمها في الماضي. «قاتلك الله يا أم فهد، أكان من الضروري أن تدفعينني إلى مثل هذه الحالة، ومثل هذه الشكوك؟»، ثم تستغفر الله، وتحاول أن تشغل نفسها بأي شيء، ولكن الهاجس الخبيث يحتل ذهنها، والشك القاتل لا يريد أن يتركها. فشكل صالح

هذه الأيام لا يوحي بكثير من الثقة، بل وكان كذلك دوماً، وبالتحديد منذ أن أصبح ثرياً ويسافر إلى الخارج كثيراً، ولكنها لم تلاحظ ذلك إلا هذه الأيام..

يا لها من غبية.. أخذت تحدث نفسها.. بل يا لها من جاهلة تلك الأيام، والجهل هو العمى عينه، ولأجل ذلك لم تلاحظ. إنه يبتلع الكثير من الطعام أحياناً، ولا يأكل شيئاً أحياناً أخرى، كما أنه نحيف لدرجة الهزال، رغم كل الطعام الدسم الذي يتناوله.. ألذلك عَلاقة بالمرض الخبيث؟.. أيحمل جرثومة المرض الخبيث وهو لا يدري؟.. ويشلها الرعب عندما تصل إلى هذه النقطة من التفكير.

*

ويستولي الرعب على كل فؤادها من جديد، وتشعر أن جسدها كله قد تحول إلى قالب من الجليد، فتتجه إلى مكتبة مشاعل المنزلية، وإلى المكتبات التجارية في شمال الرياض وجنوبها وتشتري كل ما هو متوافر عن ذلك المرض الخبيث، وتتابع في التلفزيون تلك البرامج الطبية التي تتحدث عن هذا المرض الخبيث الذي لا تدري من أين ظهر لهم، وكأنهم بحاجة إلى مزيد من الأمراض الجديدة، وتحاول أن تتبين إن كانت أعراضه تبدو على صالح. ووصل بها الأمر إلى تفحص ملابس صالح الداخلية، من أمام ومن خلف، كي ترى إن كان هناك آثار لسوائل معينة، أو بقايا معينة، وكثيراً ما وجدت بقعاً صفراء على تلك الملابس، فيأخذها الرعب، ويذهب خيالها بعيداً جداً. وفكرت أن تأخذ واحداً من ملابسه الداخلية إلى أحد المختبرات الطبية كي تقطع الشك باليقين، ولكنها خشيت الفضيحة لو تبين أنه يحمل جرثومة ذلك المرض، فتعدل عن الفكرة، ثم تعود إليها ثانية، وتلفها دوامة الحيرة. بل ذهب بها الأمر إلى أن تذهب إلى الحمام بعد خروجه منه مباشرة لترى إن كان هناك بقايا من برازه أو بوله، وتدقق النظر في هذه البقايا وحالتها كي تطبق عليها تلك الأعراض التي قرأت عنها، أو تفكر بأخذ عينات منها إلى المختبر، ثم تتذكر أن هذا المرض الجديد لا يمكن اكتشافه إلا من خلال تحليل الدم.

وحاولت ذات مرة أن تقنعه بالتبرع بالدم، إذ إنها تعلم أنهم سيحللون دمه أثناء ذلك، ولكنه سخر من فكرتها وهو يقول: «عز الله إنك رايقة

البال. . فأنا أحتاج إلى بعض الدم، وليس التبرع به. . لم لا تتبرعين أنت به، فالدم القاني يكاد ينفجر من وجنتيك المتوردتين»، ثم يضحك ويغادر، وهو غير عالم بالنار التي تتأجج في صدرها، في الوقت الذي كان صوتها يلاحقه طالباً منه أن يذكر الله، فيقول بعجلة لا إله إلا الله. . ما شاء الله، فقد كان الخوف من العين وأثرها يحتل كل أعماقها رغم الثقافة المكتسبة التي كانت تجعلها تسخر ظاهراً من صاحباتها حين كان يأتي ذكر العين والحسد، ولكن كل داخلها كان يرتجف هلعاً من العين والحسد.

وأخذت تشتري كل ما يمكن شراؤه من المنظفات والمطهرات، وتغسل يديها في اليوم الواحد أكثر من مائة مرة، ثم تسكب الكثير من المطهرات وعطر الليمون على يديها بعد مصافحة أي أحد، أو لمس أي شيء في البيت أو خارجه، حتى أصبحت زجاجة عطر الليمون أهم شيء تحتويه حقيبة يدها الخاصة، ولو ترك لها العنان لكانت زجاجة «الديتول» هي أهم محتويات حقيبتها. ويزداد رعبها وهي ترى صالحاً يقبل طارقاً على شفتيه، فتحاول أن تمنعه بدعوى أن تقبيل الأبناء على الشفتين طريقة غير حضارية وغير صحية أيضاً، وسط استغراب صالح الذي كان يقبل طارقاً بهذه الطريقة منذ أن ظهر إلى الدنيا، ووسط استغراب بقية العائلة من تصرفات جديدة لم يعهدونها في أمهم الهادئة من قبل.

ومع مرور الأيام، أخذت تحس بوخز حاد كوخز الإبر في صدرها وجنبيها، وخفقان في القلب حتى أنها تكاد تسمع دقاته، مع تعرق شديد في اليدين، وتنمل في قدميها لم تكن تشعر به سابقاً. لم تكن تعير كل هذه الأعراض أية أهمية، أو كانت في الحقيقة ترغم نفسها على عدم الاكتراث عندما تتذكر تلك الأيام، ولكنها في النهاية لم تجد بداً من أن تعرض نفسها على الدكتور «أيمن عبد الفتاح»، أشهر طبيب نسائي في الرياض، بعد أن بدأت تحس بحكة شديدة في تلك المنطقة ما بين الفرج والشرج، لم تلبث أن تحولت إلى حكة داخل الفرج نفسه، كانت تحرجها حين تكون مجتمعة مع صاحباتها أو حتى أفراد عائلتها، فتضطر إلى الذهاب إلى الحمام، فتهرش وتهرش كل ما يمكن أن تصل إليه يدها من تلك الأماكن الحساسة، ولكن الحكة لا تريد أن تهدأ.

حاولت أم فهد أن تعرف ما بها بعد أن لاحظت أنها لم «تكن على بعضها»، ولكنها كانت حريصة على أن لا تبدي ما بنفسها لأي أحد، وخاصة لأم فهد، إلا إذا أرادت أن تعرف الرياض كلها، بل وكل البلد بما تشعر به. لم يجد لديها الطبيب أي مرض جنسي، بل ولا حتى أي نوع من الأمراض العضوية يبعث على هذه الحكة التي تشكو منها، اللهم إلا ارتفاع طفيف في ضغط الدم يعالج في حالتها بالابتعاد ما أمكن عن ملح الطعام فقط، وأرجع أمر الحكة إلى سبب نفسي، قد يكون توتراً أو حالة من عدم استقرار نفسي مؤقت. ورغم كل التأكيدات بأنها في كامل صحتها، وتحت إلحاحها الشديد، وصف لها بعض التحاميل الفرجية والمضادات الحيوية، وبعض المحاليل المطهرة المعتادة التي إن لم تنفع فهي لا تضر، وهو يعلم أنها لا تحتاجها على الإطلاق، ونصحها بعرض نفسها على طبيب أمراض نفسية، ورشح لها الدكتور «يُسري المفك»، الذي يعمل في مستشفى عبدالجليل العام.

*

لم تكن لطيفة مقتنعة بتشخيص الدكتور أيمن لحالتها، فهي التي تعاني وليس هو، بل إنها صرخت في وجهه عندما نصحها بزيارة طبيب نفسي وهي تقول: «لا.. ما بقي إلا أن تحولني إلى مستشفى شهار في الطايف كي أكون مجنونة بحق وحقيق»، إذ هل يعقل أن كل ما تعانيه من هذه الحكة المُحرقة التي لا تعتقها حتى أمام الناس، هي لأسباب نفسية بحتة؟ كلا.. لا ريب أن هذا الطبيب لم يعرف كيف يشخص المرض، وألقى باللوم على النفس وانفعالاتها بدل الاعتراف بالفشل. أو ربما كان من المهووسين بالنفس وعلم النفس وأمراض النفس، هذا الذي أصبح تقليعة هذه الأيام أكثر من كونه علماً أو طباً، حتى أصبح الزكام مرضاً نفسياً لدى البعض، رغم أنف الفيروسات. ثم هي ليست «مخبولة» كي تعرض نفسها على طبيب نفسي، وماذا يقول عنها الناس حين يرونها تتردد على «دكتور مهابيل»، بل وكيف سينظر إليها زوجها وأولادها؟.. لا.. الشيخة لطيفة، زوجة الشيخ صالح تذهب إلى عيادة مجانين!! لا.. لن ترضى بهذه الفضيحة أبداً.. لا بد أن ما لديها هو سرطان في الرحم أو المهبل، ولم يستطع هؤلاء الجهلة من الأطباء اكتشافه، أو أنها تحمل جرثومة ذلك المرض الكريه أو غيره ولا يريد أحد

إخبارها خشية الخوف والفضيحة.

من غير المعقول أن تكون كل هذه الأعراض مجرد دخان بلا نار، فعينها اليمنى ترف بلا انقطاع منذ فترة، وهذا نذير شؤم ومؤشر سوء قادم في الطريق، فرفة عينها لا تكذب أبداً. لقد عودتها عينها ألا تكذب أبداً: فعندما ترف عينها اليسرى، تستعد لتلقي خبر طيب. وعندما ترف عينها اليمنى، تستعد لتلقي خبر سيئ. لقد كانت عينها اليسرى ترف بقوة قبل أن تحمل بطارق، وكانت اليمنى ترف بقوة ثم لم يلبث أن جاءهم خبر وفاة أخيها عبدالرحمن وعائلته في حادث سير على طريق أبها ـ الطائف قبل سنوات ثلاث. وعينها اليمني كانت ترف كنحلة خائفة قبل شهر واحد فقط من غزو العراق للكويت..

ثم تزفر وتبتسم بسخرية وهي تحدث نفسها: «حالة نفسية؟!..مجانين يريدون تجنين الجميع معهم..» وحاول الدكتور أيمن أن يقنعها أن الأمراض النفسية هي نتاج هذا العصر الذي نعيشه، وأنه كلما ارتفعت مرتبة المرء الاجتماعية كان أكثر عرضة لأمراض النفس، ولكنها لم تكن مقتنعة. والحقيقة أنها كانت مقتنعة في داخلية نفسها بكل ما كان يقوله الدكتور، ولكن ماذا بشأن الناس؟..الناس هنا لا يرحمون..فرغم كل التقوى ومظاهر التمدن التي يبدونها، إلا أنهم يبقون كالصحراء..صيفها هجير، وشتائها زمهرير..ولا ربيع بينهما.

كان أسهل عليها أن تكون مصابة بأي مرض عضوي، من أن تكون قد اختلت نفسياً أو عقلياً..فلا فرق في عرف الناس. وعرضت نفسها على طبيب آخر وآخر وآخر، حتى أنها فكرت بالسفر إلى الخارج لعرض نفسها على أشهر أطباء النساء في لندن وأميركا. ولم يعد هناك معمل للتحاليل الطبية في الرياض إلا وأصبح وجه الشيخة أم خالد مألوفاً لديه، رغم حرصها على إخفاء شخصيتها، ورغم أنها تدعي أن ما تقوم به من تحاليل هو من أجل معرفة لماذا لم تحمل منذ أن جاء طارق إلى الدنيا منذ ما يقرب السنوات الست، رغم أنها تركت تناول حبوب منع الحمل بعد ولادته بسنتين.

وكانت كل النتائج واحدة: لا أمراض عضوية ولا التهابات داخلية.

وكان ذلك مبعث سرور لها، ليس لأنها خالية من الأمراض وحسب، ولكن لتلك الراحة النفسية التي شعرت بها، وإن كانت راحة يشوبها القلق، كما تشوب العتمة ضوء النهار في بداية السحر أو نهاية الغسق. فربما لا يكون صالح مثل أصحابه، وخاصة ذلك القميء أبي فهد، أو مثل أصحاب تلك القصص التي تسمع عنها. فهو لا يجتمع بنساء أخريات، ولا يمكن له أن يخونها أو يرتكب الفاحشة، فهو أولاً وأخيراً رجل يعرف الله. . ومن يعرف الله، لا خوف منه ولا حزن.

ولكن هذا السرور لا يلبث أن ينقشع ويحل محله ألم وتعاسة من مصدر آخر. فقد اخبرها كل الأطباء الذين زارتهم أن عدم انتظام دورتها الشهرية، شيء ليس نادراً بالنسبة لامرأة تجاوزت الأربعين، أو هي في الأربعين. نعم، الكثير من النساء قد يصلن إلى الخمسين، والخامسة والخمسين، وأكثر من ذلك ربما، دون أن تتأثر الدورة بشكل كبير، ولكن بالنسبة لها فإن الأمر مختلف، ربما بسبب نمط حياتها السابقة. أسقط في يدها، وأحست وكأن يداً قاسية تهزها بعنف، أو كأن كفاً تلطمها على وجهها دون سابق إنذار، أو مرزبة مجهولة تهوي على أم رأسها دون انقطاع، فتجعلها في حالة دوار لا يتوقف. «عز الله صدق من قال إن الدنيا تعطي باليمين ولكنها تأخذ بالشمال. . وربك يعطي من هنا، ولكنه يأخذ من هناك» ـ كانت تحدث نفسها وهي عائدة من أحد معامل التحليل.

*

«رباه. . . أو قد تجاوزت الأربعين حقاً؟. . كيف مرت كل تلك السنين بهذه السرعة. . »، كانت تحدث نفسها وهي شبه غائبة عن الوعي. إنها لم تغادر القرية إلا يوم أمس، أو يوم أول أمس على الأكثر، فكيف مرت كل تلك السنين وهي لا تدري. يقولون إن الأربعين هي سن الحكمة بالنسبة للرجال، ولكنها تُعتبر سن اليأس بالنسبة للنساء. هل أن ذلك حقيقة، أم أن الناس هم من يحكمون ويصنفون؟. لا تدري. . ولم يعد يهمها أن تدري. كل ما عندها الآن هو أنها قد بلغت الأربعين، وبأن أنوثتها قد بدأت تنزلق على الحافة الأخرى من الجبل. . آه كم هي شنيعة سن الأربعين!

وطافت أمها في خيالها، وهي التي توفيت قبل سنين لا تتجاوز الخمس، ووالدها الذي سبقها بست سنين. وها هو بكرها خالد يتخرج من الجامعة، وطارق يدخل سنته الدراسية الأولى، وبدرية قد أكملت تسعة عشر ربيعاً، وهاهم الخطاب يحومون حولها، كما النحل على زهرة فريدة، أو النمل على قالب من سكر نقي، بعد أن اكتفت من التعليم بشهادة الثانوية العامة، فلم تكن «غاوية» مدارس على حد تعبيرها. وكيف لا يحوم حولها الخطاب، وهي ابنة الشيخ صالح، أحد أثرياء ووجهاء الرياض الجدد، الذين فرضوا أسماءهم فرضاً، جنباً إلى جنب تلك الأسماء التقليدية العريقة.

ورغم محاولة لطيفة إقناع ابنتها بإكمال دراستها، تارة بالترغيب وأخرى بالترهيب، إلا أنها فشلت في ذلك. وأخيراً رضخت للأمر الواقع، وأعلنت الاستسلام، وصوت صالح يرن في أذنها: «طلعت ولاّ نزلت.. تعلمت ولاّ ما تعلمت، مصيرها الزواج وخدمة الأولاد.. الله يسوي اللي فيه الخير..»، ثم وهو يحك لحيته المثلثة لينظر إلى الأفق بكبرياء: «والحمد لله أنها ليست بحاجة لشهادة أو وظيفة.. ولاّ عاجبك شحططة بنات الناس في الشمال والجنوب؟».. كانت تعلم أنه يتحدث عن الظروف الصعبة التي تعيشها الموظفات، في الوقت الذي لا يُنظر إليهن على أنهن إنسان كامل، ولكنها تجاهلت ملاحظته وهي تقول: «العلم يُطلب لذاته، وليس وسيلة لأي شيء آخر.. على أية حال، الله يسوي اللي فيه الخير.. الله يسوي اللي فيه الخير.. ما يُدرى وين الخيرة فيه..» وهاهي بدرية اليوم تقضي نهارها وليلها بين سماع الأغاني وقراءة روايات الجيب الرومانسية، والالتقاء مع صاحباتها في كل مكان، ولا تملك إلا أن تدعو لها بالهداية وطريق الصواب.

أما مشاعل، فقد كانت على عكس شقيقتها بشكل يكاد يكون كاملاً. فهي حتى وقبل أن تنهي دراستها الثانوية، تخطط لما بعد الدراسة الجامعية، وهي اليوم طالبة في السنة الأولى في كلية الآداب، قسم لغة إنجليزية، وغاوية صحافة حيث تعمل متعاونة مع جريدة «النجاز»، أوسع الصحف اليومية المحلية انتشاراً دون أجر. لقد كانت مشاعل في حركة دائبة لا تهدأ، وكأنها تريد أن تحصل على كل شيء في لحظة واحدة. وكانت لطيفة عندما تراها في هذه العجلة من أمرها تقول لها ما كانت أمها تقوله لها في الماضي وهي

تضحك: «على رسلك يا بنيتي، فقد خلق الله الدنيا في ستة أيام، وأنت تريدينها في ست دقائق.. وسيدنا الحبيب المصطفى، عليه أفضل الصلاة والسلام، لم يؤمن به إلا نيفاً وثمانين رجلاً وامرأة خلال ثلاث عشرة سنة في مكة، ثم جاءت البشائر في يثرب.. اهدئي يا بنيتي.. اهدئي، وحطي بالبريق مويه.. فكل شيء في أوانه حلو.. كل شيء في أوانه حلو».

ولكن ذلك العتاب والنصح كان يخفي بعضاً من إعجاب دفين بها، فكم كانت تود لو أنها درست في مدرسة، وأكملت طريق العلم والتعليم إلى آخر مدى، ولكن الخيرة فيما اختاره الله. وهاهي اليوم تحاول التعويض بالقراءة، ذلك العالم من البهجة والمتعة والإثارة الذي انفتحت أمامها أبوابه منذ أيام الصالحية الكئيبة. كانت ترى أباها وأخوتها وهم يقرأون القرآن الكريم، ويقلبون كتباً بأغلفة قاسية وأوراق صفراء، فتفتحها بعد أن يغادروا ولا ترى إلا طلاسم وأحاجي لا تفقه معناها. كم كانت تود لو أنها كانت قادرة على فك تلك الرموز والطلاسم، فربما استطاعت أن تفتح العالم كله بتلك الرموز السحرية، كما استطاع آدم أن يسود الملائكة كلهم بعد أن علمه الله الأسماء كلها. ويطوف في خيالها سؤال لا تعرف إجابته، وتستغفر الله سريعاً بعد أن تكون الحيرة قد احتلت كل عقلها.. «لماذا اختار الله آدم من بين كل المخلوقات ليكون سيداً عليها؟».. تبعد السؤال عن ذهنها بسرعة وخوف، وتوطن النفس على أن ذلك لحكمة لا تعرفها، وليس لها أن تعرفها، فتحاول أن تعود لذاتها، والرهبة لا تزال تجوس خلال روحها.

*

وتحتل ثغرها بسمة صافية حين تطوف جارتهم القديمة «أم أكرم» في ذهنها، وهي تحاول تعليمها القراءة والكتابة حين يكون صالح غائباً في جولاته وسهراته التي لا تنتهي. كم كانت برمة بتلك الأوقات التي كانت فيها أم أكرم تجلب لها كتب الهجاء والقراءة، وتجبرها على تعلم القراءة والكتابة، لا لعدم رغبتها في التعلم، ولكنها لإحساسها بنقص حاد تجاه هذه التي تستطيع فك طلاسم الحرف وألاعيبه بحرافة الحواة والسحرة.. يا الله.. كم كانت أم أكرم عملاقاً في عينها تلك الأيام. وبقدر ما كانت تتضايق من زيارات أم دحيم

المسائية، وقصصها المخيفة، بقدر ما كانت تنتظر الساعة التي تعود فيها أم أكرم من المدرسة التي تعلم فيها، كي تبدأ معها مدرستها الخاصة. .ماذا فعل الزمن بأم أكرم يا ترى؟

كل ما تعلمه أنها غادرت بعد انتقالهم إلى الشميسي إلى عمان، وبقيت المراسلات بينهما حتى انفجار أحداث أيلول في الأردن، وبعدها لم تصلها منها سوى رسالة واحدة تخبرها فيها أنهم حصلوا على تأشيرة هجرة إلى كندا، ولم تعد تسمع عنها شيئاً بعد ذلك. كم تود لو كان بإمكانها رؤية أم أكرم مرة أخرى لترى ما فعل الزمن بها، وهل ما زالت تشعر بالحنين إلى برتقال يافا، وشواطىء عكا حيث ولدت وترعرعت خلال السنوات الخمس الأولى من عمرها، أم أن كل شيء تغير. . وأصبحت نكهات البرتقال واحدة!

تختفي أم أكرم من ذهنها، وتعود إلى لحظتها. .كم كانت تتمنى لو أنه كان بالإمكان إعادة عجن بدرية ومشاعل معاً حتى تحصل على شيء في منتصف الطريق بينهما. .غريب أمر هاتين الفتاتين، فرغم أنهما تكادان تكونان توأمين، إلا أنهما على طرفي نقيض في الفكر وفي السلوك. كلاهما نسخة منها تقريباً. .وابتسمت رغماً عنها حين وصلت في التفكير إلى هذا الحد، وحمدت الله على أنهما لا تشبهان أبيهما في شيء وإلا كانت مصيبة بالنسبة لفتاة. طارق وحده فيه ملامح من والده، ولكنه أوسم منه كثيراً، فربما أن ملامحها خففت من مفعول ملامح والده، وذلك كما يجتمع الملح والسكر معاً، في كوب من الحليب الساخن.

أما خالد، فهو غريب الشكل فعلاً، فهو لا يشبه أحداً من العائلة. لقد كان أبيض البشرة، خروبي الشعر مسترسله، عسلي العينين، مع دقة عجيبة في الأنف والشفتين. وكان صالح يعلق على ذلك مازحاً: «لولا أني أثق بك يا لطيفة، وأن دم الأثلة واضح في تكوين خالد رغم اختلاف شكله عنا، لسألتك من أين أتيت بهذا الأحمر الأعطر». تضحك لطيفة بحبور لهذا التعليق وهي تقول: «فتش في جذورك وعروقك يا شيخ صالح. .فالعرق دساس. .ربما كان أحد أجدادك جندياً تركياً أو ألبانياً من جنود إبراهيم باشا؟. .»، ثم تغمز بعينها، فيفهم صالح ما ترمي إليه، فيبتسم بدوره، رغم

إحساسه بشيء من الغضب يحاول أن يستولي على روحه، ولكنه يتصنع الهدوء، ويقول بوقار مفتعل: «أجدادي هم أجدادك يا بنت الأصول. .أم هل نسينا؟»، فيضحك الاثنان بحبور، ويقبلان خالداً بحب صاف.

أجل لقد مر الزمن دون أن تشعر. فهاهو يوسف، أكبر أبناء أختها قماشة، يكاد يصبح جداً ببلوغ ابنته الكبرى العنود سن الخامسة عشرة، ولا ريب أن الخطاب سيدقون بابه قريباً. بل هاهو فيصل، أكبر أبناء منيرة، في السنة ما قبل الأخيرة من الدراسة الثانوية. .نعم لقد مرت السنون، وسرقت منا عمرنا الذهبي دون أن نشعر، وها هي تدخل في «سن اليأس» كما يسمون الأربعين في بلاد الشرق.

نكهة الحنظل

أخذت الوساوس تنغص على لطيفة حياتها. . فربما أن صالح لا يعاشر نساء أخريات في الخارج ولا يقترف الفاحشة، ولكن من يضمن لها أنه لم يتزوج عليها؟. . فالمال متوافر بين يديه، ويستطيع أن يفتح بدل البيت الواحد عشرة. وهو لا يزال قادراً على الزواج، وهي أعلم الناس بذلك، ونساء اليوم «وسيعات وجه. . وقليلات حيا»، يخطفن الكحل من العين، فكيف بالأزواج وأكثرهن اليوم من العوانس. بل ربما خطر في باله «تجديد فراشه» بعد أن جاوز الخمسين، فالرجال لا أمان لهم، والرجل في قريتنا يعتبر التعدد هو الأصل، وتجديد الفراش يجدد القدرة الجنسية، وكل الرجولة تكمن في قدرته الجنسية. كل أعمامها وأخوالها لديهم زوجتان أو أكثر، وكان والدها هو الغريب بينهم، حيث اكتفى بأمها فقط، ربما لضيق ذات اليد، أو لأسباب أخرى لا تعلمها، ولكن ليس للحفاظ على مشاعر أمها على أية حال.

نعم. . لم نعد نعيش في القرية، بل لم تعد القرية كلها موجودة، ولكن القرية لا تريد أن تتركنا، وأسوء ما في القرية لا يزال يعيش في أعماقنا، ويحكم تصرفاتنا، رغم كل ما تغير ويتغير. غريبة هي الأيام. . يتحدثون عن الأصالة، وأكثرهم لا ينتقون من الأصالة إلا أسوء ما في التاريخ. . الأصالة عندهم هي وأد البنات. . ليس بالضرورة أن يكون الوأد ملموساً، فأقساه ما كان وأداً للذات. . مجرمون هم الرجال. . لا. . بل مقصرات هن النساء. . فمن تقبل على نفسها أن تنادى بـ«هيش»، تستحق أن تكون أي شيء، وأن يُفعل بها أي شيء، إلاّ أن تكون إنساناً.

وابتسمت بسخرية وهي تتذكر تلك الليلة في فلة الملز، عندما عاد صالح ثملاً، وبرفقته صديق لا تدري أين التقاه. كانت تبحث عن النوم بين أجفانها، وبين يديها ديوان أبي الطيب، وجاءها صوته وهو يناديها، وكأنه قادم من بعيد: «هيش. . يا ولد. .» أحست بمهانة لم تستشعرها من قبل. لقد كان أبوها لا ينادي أمها إلا بـ«هيش. .»، ولم تكن تجد غضاضة في الأمر تلك الأيام، ولكنها اليوم تستشعر وكأنها قطعة حذاء ملقاة بلا عناية، أمام باب بيت مجهول، عندما تنادى كذلك. . لن تستطيع منعه من الزواج لو أراد، فليس هناك شيء يمنحها هذا الحق، وليس هناك من شيء يمكن أن يمنعه من ذلك، وهذا هو ما يخيفها ويقلق منامها. لن يطلقها لو تزوج بأخرى، إنها واثقة من ذلك، ولكنه لن يكون لها وحدها، ولن يكون منزلها منزله، ولن يحتكر أولادها كل قلبه، بل لن تكون هي الوحيدة في قلبه. كانت تعلم تمام العلم أنه لم يتزوجها بعد قصة حب مثل تلك التي أدمنت بدرية مشاهدتها في التلفزيون والفيديو، أو تلك الروايات التي تعلمت قراءتها في ليالي الانتظار الطويلة، ولكنها كانت تعلم أنه أحبها بعد ذلك، وأصبحت جزءاً من حياته ذاتها، وهي لن تفرط في ذلك أبداً.

بل وما أدراها أنه قد تزوج فعلاً؟ فمنذ أن بدأت تحس بتلك «الحكة» الشنيعة، بل تلك الفئران التي تعبث في أعمق مما هو عميق فيها، أصبحت تلاحظ أن صالحاً لم يعد يعاشرها كثيراً، بل لم يعد ذلك يحدث إلا في المناسبات، في الشهر أو حتى في الشهرين مرة واحدة بعض الأحيان، أو عندما تدعوه هي إلى ذلك بشكل غير مباشر، رغم إحساسها بأنوثتها المُهانة وهي تفعل ذلك. وحتى عندما يفعل ذلك، تحس بأنه يفعله دون حماس، وكأنه واجب عليه تأديته وبأسرع ما يمكن من وقت، حتى أنها خلال السنوات العشر الماضية، لم تصل إلى الذروة إلا عدة مرات يمكن حسابها على أصابع اليد الواحدة.

لا. . ليس هذا هو صالح الذي تعرف، أو الذي كانت تعرف، والذي كانت تشتكي من كثرة إتيانه لها خلال السنوات الأولى من الزواج. بل وحتى قدومهم إلى بيتهم الجديد هذا، كان صالح يأتيها مرتين أو ثلاثاً على الأقل في الأسبوع، ولكن كل شيء تغير منذ أن وطئت أقدامهم هذا البيت. أيكون مرد

ذلك إلى عين ما صلت على النبي؟ ربما، فعيون الناس أصبحت أكثر حرارة مع مجيء المال، وقلوبهم باتت غارقة في سواد رهيب، وصار الحسد يحتل كل الصدور، إلا من رحم ربي، وعلم في النهاية أنه من تراب، وإلى التراب يعود.

كانت تحدث نفسها بذلك، ثم لا تلبث أن تقرأ «من شر حاسد إذا حسد»، ثم تقرأ آية الكرسي وهي تمرر يديها على كافة أجزاء جسدها، ويتوقف الأمر عند هذا الحد. ولكن المشكلة أنها منذ أن بدأت متاعبها مع الدورة الشهرية، وهي تشعر بشبق شديد لا يعرف الشبع، وبدأت تلاحظ ما لم تكن تلاحظه في السابق، مما لم يكن شيئاً مهماً أو لافتاً للنظر آنذاك. ليست هذه هي. . ليست هذه هي لطيفة الأثلة التي تعرفها. . أو كانت تعتقد أنها تعرفها. . فالجنس كان آخر شيء تفكر فيه، ولكنه اليوم يسيطر على كل ذرة في كيانها. . ولو كان الأمر بيدها، لبقيت ملتحمة بصالح إلى آخر الدهر، ونهاية الزمان.

*

أجل، لم تكن تعير المسألة انتباهاً كبيراً قبل ذلك، ولكنها أصبحت هاجساً بالنسبة لها اليوم. وبدأت تمارس أعمالاً غريبة عليها، كانت تستهجنها في الماضي عندما تسمع بها، أو تعتقد أنها من المبالغات عندما تشاهدها في أحد الأفلام العربية. أخذت تفتش جيوب زوجها وهو نائم، أو تشم رائحة ملابسه بعد أن يعود من إحدى السهرات الطويلة ثملاً. ورغم أنها لم تلاحظ شيئاً جديداً، ولم تكتشف رائحة أنثوية في ملابس صالح، إلا أنه يهيأ لها أحياناً أنها تشم رائحة عطر نسائي على ملابسه، ثم أصبحت هذه التهيؤات جزماً. وكلما شمت رائحة ذلك العطر في ملابسه، كانت تشعر بالشهوة والغيرة والغضب تجتاحها دفعة واحدة، فتلقي بنفسها على صالح حتى لو كان مستغرقاً في نوم عميق، ولا تتركه إلا بعد أن يجامعها بأي شكل من الأشكال، ثم تذهب إلى الحمام مباشرة بعد ذلك، حيث تغسل أعضاءها الداخلية بكل ما يصل إلى يدها من أنواع الصابون والمطهرات، وهي ترتجف هلعاً.

ولكن المشكلة أن الجماع أصبح يجعلها في الآونة الأخيرة أكثر توتراً وغضباً وعصبية وأرقاً، ولم تعد تصل إلى الذروة التي كانت تصل إليها في وقت قصير حين تريد، وهي التي كانت عينها تغفو على أحلام جميلة بمجرد وصول الذروة في السابق. فقد صارت تعتقد أن صالحاً كان يمارس معها الجنس، بينما خياله مع امرأة أخرى، فهو يخونها وهي معه، فتشعر ببغضاء شديدة نحوه، وتود لو كانت قادرة على خصيه تماماً، حتى لو كان ثمن ذلك هو أن لا يجامعها إلى الأبد، فقد ضمنت على الأقل أنه لن يعاشر غيرها. ثم تحاول هي أن تخونه بدورها كما يخونها، فتترك لذهنها العنان، وتتخيل أن المرتمي عليها هو أحد المغنين أو الممثلين الوسيمين من العرب والأجانب. وفجأة يطوف خيال فالح، أخو صالح الصغير ورفيق طفولتها، في ذهنها، ويتحول وجه صالح إلى وجه فالح، فتصرفه بسرعة، وتعيد وجه الممثل أو المغني إلى خيالها، ولكن فالح يحاول أن يفرض نفسه من جديد. وتصحو في اليوم التالي وإحساس عظيم بالذنب يمزقها من الداخل، وكأن سكيناً لا تريد أن تريم قد استقرت هناك.

*

وأخذت تنتابها أحلام مزعجة تجعلها لا تنام من الليل إلا أقله. فذات ليلة رأت نفسها تسير في مرج أخضر لا نهاية له، وفجأة أطلت على بقعة رملية جدباء في وسط ذلك المرج. وهناك رأت صالحاً وفالحاً وبينهما ابنها طارق وهما يتعاركان حوله، كل منهما يقول إنه ابنه. أرادت أن تصرخ وتقول إن طارقاً هو ابن صالح وابنها، ولكن صوتها كان منحبساً، فتناولت قضيباً من الحديد الأسود وجدته في يدها فجأة، وحاولت أن تضرب به فالح، فإذا هو يهوي على رأس صالح، ويخر صريعاً، فيما طارق يبكي، وفالح يضحك بجنون، ثم يتقدم إليها ويحاول عناقها، فتحاول منعه ولكنها تجد نفسها تعانقه هي الأخرى. ثم فجأة يظهر الشيخ سعد مطوع قريتهم القديم، ويخطف طارقاً ويطير في السماء وهو يضحك، فتحاول اللحاق به ولكن فالحاً لا يتركها، فتمد يدها إلى السماء، ولكن أفعى بوجه ثور تخرج من حيث لا تدري، وتأخذ في الالتفاف حولها رويداً رويداً، ثم تنظر إليها بعينين تقدحان شرراً، وتحاول أن تدخل لسانها المشقوق في فمها، فتنهض لطيفة من نومها فزعة

وهي تصرخ، وقد غرق وجهها في عرق بارد، فتنظر حولها، وتسمع شخير صالح، فتبسمل وتتعوذ، وتحاول العودة للنوم من جديد، ولكنها لا تنام..

وفي ليلة أخرى، رأت في ما يرى النائم، وكأنها تسير في أزقة قريتهم القديمة، والريح تزأر في الهجير، وغيوم سوداء تجمعت في السماء، وكانت القرية خالية من أي أثر للحياة. كانت تسير على غير هدى وهي تتساءل عن الناس وأين ذهبوا، والهلع ينخر ذاتها المضطربة. وفجأة لمحت من بعيد شخصاً تعرفه، إنه منيرة أختها. شعرت بفرح شديد، ثم تأخذ في الجري للحاق بأختها، ولكن منيرة تهرب منها عندما تراها مقبلة، والفزع واضح على محياها. تواصل الركض وهي تتساءل عن سبب فزع منيرة وخوفها، وتصمم على اللحاق بها. وأخيراً تمسك بها، وتضمها إلى صدرها وهي تشعر بسعادة طاغية. ولكن فجأة يأخذ دم كثيف في النزف من كل فتحة في جسد منيرة..دم غزير لم تر له مثيلاً من قبل. تشعر بالرعب، ولكنها تأخذ في تجميع الدم المنساب في وعاء لا تدري كيف استقر في يدها، ثم تأخذ في شربه بسرعة ولذة، وطعم الملح يستقر في فمها. ثم لا تلبث منيرة أن تفلت من بين يديها وتفر هاربة، فتأخذ لطيفة باللحاق بها من جديد، وهي في أشد الشوق لضمها إلى صدرها من جديد..وعندما تنهض في الصباح، تكون تفاصيل الحلم راسخة في ذهنها، كما تحس بطعم الدم المالح في فمها، فتبصق وقد احتل الاشمئزاز كل ذرة في جسدها، والغثيان يكاد يقتلع معدتها من جذورها، فتسرع إلى الحمام، وتلفظ كل ما يكون مستقراً في جوفها الفارغ.

كما رأت في ليلة أخرى أنها تسير في صحراء حارة، وتشعر بعطش شديد يكاد يقتلها. وفجأة أخذت السماء تتلبد بغيوم سوداء، ثم أخذت تمطر بشدة. شعرت بفرح صبياني عارم، وأخذت ترقص تحت المطر وهي تضحك وتغني بصخب: «أمطرت واستهلت، واست العجوز انبلت»، وقد فتحت فاها لالتقاط حبات المطر بشغف. يمتلئ فمها بالماء، ولكنها لا تزال تشعر بالعطش. جمعت كفيها على شكل وعاء، وأخذت تشرب من المطر، ولكنها لا ترتوي على الإطلاق، بل إن عطشها يزداد كلما عبت أكثر من ماء المطر، ثم تصحو من نومها وهي تشعر بجفاف شديد في الحلق، وكأن ملح الأرض كلها قد تجمع في حلقها.

وعندما كانت تعود إلى صفائها في لحظات خاطفة، أخذت تقل أكثر وأكثر مع مرور الوقت، كانت تشعر بأسى شديد يستولي على كيانها كله، ولا تملك معه إلا أن تبكي وتبكي، والكل من حولها لا يدري لماذا تبكي، وهي لا تقول شيئاً، لأنها لا تدري بالفعل ماذا أصابها، فكل ما تحس به هو رغبة عارمة في البكاء وحسب.

*

وكانت مشاعر الرعب وكل هذه الوساوس تهجم عليها دفعة واحدة، كلما حان موعد دورتها الشهرية فلا تأتي، ثم لا تلبث أن تهدأ قليلاً عندما تحل أخيراً، وتشعر بحبور أشبه ما يكون بحبور طفل، وهي ترى ذلك الدم الداكن الساخن الكريه الرائحة ينبثق من أعماقها. وينعم البيت بلحظات خاطفة من الهدوء والسعادة، وهم يرون لطيفة وقد عادت إليهم من جديد، وضحكاتها الصافية ترن في كل ركن من أركانه...

غريب أمر هذا الدم، كانت لطيفة تحدث نفسها... حين جاءتها الدورة للمرة الأولى، وكانت في حدود الحادية عشرة من عمرها على ما تذكر، شعرت برعب قاتل يجتاح ذرات جسدها الناحل الصغير... دم ينبثق من أعمق أعماقها؟ ومن أكثر الأماكن حساسية في جسدها؟ من ذلك المكان الذي يشكل كل ما تعنيه الأنثى في عالمها؟ كانت تعلم ما هي الدورة، وما هي العادة الشهرية، فقد كانت أمها تُهيئها لمثل هذا الحدث الهام في حياتها قبل فترة، تارة بالتصريح، وغالباً بالتلميح، ولكن أن ترى الدم يخرج من جوفها رؤيا العين، وخاصة بعد فترة ليست طويلة من حادثة النخيل. ذاك أمر أرعبها حتى الموت.

لم تشأ أن تخبر أمها أول الأمر، ولكنها كانت عاجزة عن التصرف بمفردها أمام هذا الحدث الجلل. فهي لا تدري كيف تتصرف مع هذا الدم الحار، ولا كيف يمكن أن تقوم بأعمال البيت والزرع والضرع وهذا الدم يلوثها، ويتسرب من أعماقها، ولا تعرف كيف توقفه. لم تجد بداً من إخبار والدتها بالأمر، حتى وإن أدى بها الأمر إلى إخبارها بما حدث في تلك الظهيرة اللعينة. ولكن أمها ضحكت أول الأمر وهي تقول: «ما شاء الله.. ما

شاء الله. . لطوف صارت مرة. . لا إله إلا الله»، ثم طمأنتها أمها، وضمتها إلى صدرها، وبشرتها بالأنوثة القادمة، وبينت لها كيف تتعامل النساء مع مثل هذا الأمر، ولكن الرعب بقي مستقراً بين ضلوعها لفترة طويلة. وحين اعتادت على الأمر بعد حين، كانت تشعر بالاشمئزاز والقرف في كل شهر، حين تضطر إلى حشو فرجها بكل تلك الخرق، ومن بعد ذلك بالمناديل الواقية، كي تمتص ذلك الدم العفن الخارج من أحشائها.

وكم كانت تشعر بالسرور حين تتأخر العادة عن موعدها بعض الأحيان، كما كانت في غاية الجذل في أيام الحمل الأولى، حين كان ذاك الدم يتوقف عن السريان، ولكنها بعد ذلك تكتشف أن السعر كان في غاية الارتفاع. أما اليوم. . أما اليوم فهي في غاية الشوق لرؤية ذلك الدم، مهما كان كريهاً، ومهما كانت الخرق والمناديل الحافظة. . إنها اليوم على استعداد أن تتركه يسري على ملابسها، ويلطخ جسدها، وأن تشم رائحته الكريهة بلذة وشغف. . بل إنها على استعداد لأن تتعطر به، إذا كان هذا هو سعر استمراره وتدفقه. . لقد تحول هذا الدم بالنسبة لها إلى شيء أشبه بالنفط. . كريه الرائحة، قبيح المنظر، ولكن الكل يتمناه، رغم أنهم له من اللاعنين. . فإذا كانوا يسمون ذاك ذهباً أسود، فلا ريب أن هذا هو الذهب الأحمر. . بالنسبة لها على الأقل. . «نعمة ما كنت أحس بها». . كانت تردد بينها وبين نفسها حين يحين وقت الدورة ولكن الدورة لا تأتي، أو تتدلل فتأتي متأخرة وبالقطارة.

وابتسمت وهي تفكر بسخرية مريرة ومؤلمة. . من جعل من الأربعين سناً لليأس؟. . أخذت تحدث نفسها كلما هاجمتها الوساوس. . هل هناك سن لليأس وسن للأمل وسن للرجاء وسن للعجز؟. . ولماذا يكون اليأس للمرأة فقط، بينما عندما يبلغ الرجل الأربعين، يقولون إنه قد بلغ أشده وعنفوان الرجولة؟. . لماذا لا تكون سن الأربعين هي عنفوان الأنوثة؟. . المرأة تبلغ قمة نضجها الجنسي في الثلاثين وما بعدها، والرجل يبلغ ذلك في سن الثامنة عشرة، كما تتذكر من مقالة قرأتها قبل حين. . فلماذا تشيخ المرأة قبل الرجل، بل لماذا يشيخونها قبل أوانها، وهي التي لم تنضج إلا بعد الرجل . . واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم، وهي تتذكر أحاديث والدتها عن آدم الطيني وحواء اللحمية، وكيف أن الله هو الذي أراد ذلك، ولا راد لقضاء الله. ولكنها لا

تلبث أن تغيب مع نفسها، ولا تستطيع منع نفسها من التفكير رغم المحاولة، فهي تشعر أنها أجمل من أي وقت مضى، وأشهى من أي وقت مضى، وأكثر رغبة من أي وقت مضى، وأعلم من أي وقت مضى. . بل إن حياتها الحقيقية تكاد أن تبدأ، بعد كل سنوات المعاناة الماضية.

*

من قال إن الأربعين هي سن اليأس وانطفاء الأنوثة وجذوة الحياة؟ . . إنها تشعر بالرغبة تحرق كل ذرة في جسدها، وتشعر بالنار تجتاح كل زاوية من زوايا روحها، وتشعر أنها اليوم فقط قادرة على منح رجلها من الأنوثة ما لم تكن قادرة على منحه إياه في أي لحظة ماضية، فكيف يكون اليأس مع كل هذه الأنوثة المتدفقة، بل هذه النار التي تحرق جوانحها، وتكاد تحرق كل ما حولها ومن حولها؟ كل الممثلات الفاتنات اللاتي تراهن على شاشة التلفزيون وفي أفلام الفيديو تجاوزن الأربعين، وما زلن يتنقلن بين الأزواج والعشاق، وأنوثتهن آسرة لكل من يقع في دائرة إغرائها، فهل خُلق اليأس لنا في الشرق فقط؟ . . وهل رائحة الدم الكريهة هي فقط من يحدد الأنثى، وهل هي عذراء أم ثيب، في سن الأمل أو في سن اليأس؟ .

«قاتل الله الرجال» . . قالت لطيفة وهي تحدث نفسها، وابتسامة بلهاء تتدلى على جانب فمها. نعم. . قاتل الله الرجال، فهم من حكم على المرأة باليأس في الأربعين، وعلى أنفسهم بالفتوة والنضج في السن ذاتها، كي يجدوا مبرراً للاتصال بامرأة أخرى أصغر سناً، أو فتاة ما زالت تحتفظ بدم بكارتها. . يهربون من الدم بحثاً عن الدم، مع أنه كله دم في دم في الخاتمة. . مسكينة هي الأنثى في هذا الشرق الذي يعتقد نفسه عظيماً. . كل حياتها مرتبطة بالدم. تبدأ حياتها بالدم، وتنهيها بالدم، والويل لها إن احتجت أو رفضت، فمصيرها الدم أيضاً. . يا لهم من حمقى هؤلاء الرجال، فهم يبحثون عن ثمار لم تنضج بعد، ويتركون الفاكهة الناضجة. بل إنهم يبحثون عن أي ثمرة حتى لو كانت متعفنة طالما أنهم لا يمتلكونها، ويتركون ما يملكون حتى لو كان تفاحة طازجة، لتوها آتية من جنة يانعة. . نعم إن الرجال حمقى، بل هم عديمو الوفاء.

وأحست أن ناراً تتأجج في أعماقها، وأن غضباً مكتوماً يكاد يقتلها. . نعم فالرجال عديمو الخاتمة ولا أمان لهم، فهم يصنعون كل شيء، ويفعلون كل شيء، ومع ذلك يلومون المرأة على كل شرور الدنيا، منذ خطيئة آدم وطرده من الجنة، حتى آخر أنثى من بنات حواء. .بل إنهم يجعلون من رغباتهم «تابو» لا يمكن الاقتراب منه، ويضفون عليها من التقديس ما لا يضفونه على أي شيء آخر، وهي مجرد رغبات لا قداسة لها، وربما كانت إلى الدناسة أقرب. . وانتبهت لطيفة لنفسها عندما وصلت إلى هذه النقطة من التفكير، .وأحست أنها قد بدأت تنزلق من الفكر إلى الكفر، واستغفرت الله كثيراً، فقد كادت أن تسقط في هاوية الكفر ـ والعياذ بالله. ولكنها لم تستطع إلا أن تعود إلى هواجس نفسها. . . ثم تعود إلى نفسها. وبدأت تشعر أنها قد تحولت إلى ورقة ممزقة في مهب ريح تأتي من كل اتجاه.

الكتاب الثاني:

نبع الحميم

الهاوية

وساء حال لطيفة كثيراً. كان واضحاً أنها تهوي بسرعة في هوة مستوية الجوانب لا مستقر لها وليس هناك ما يمكن أن تتمسك به حول جدران الهوة، وكانت هي تحس بذلك في قرارة نفسها، وتحاول جاهدة أن تصلح من شأن نفسها طالما كانت واعية بذاتها، وإلا سقطت في جب الجنون، ولكنها لا تستطيع. وشيئاً فشيئاً لم تعد هي المتحكمة بذاتها، ونفسها غير قادرة على السيطرة على نفسها. أصبحت امرأة عصبية جداً، وحساسة جداً بشكل لفت انتباه صالح وهو البارد كالصقيع، الذي كان لا يلفت انتباهه حتى رائحة رغيف خبز ساخن قادم لتوه من الفرن، بعد نهار صيام طويل من أيام الفقر والمسغبة، وأثار فيه مكامن القلق.

كل شيء أصبح يثير أعصابها بسهولة، ولا تلبث أن تنفجر غاضبة لأقل حدث أو كلمة عابرة، وهي التي كانت توصف «بالثلاجة» لقدرتها الفائقة على كبت مشاعرها والتحكم في انفعالاتها، رغم كل الحرارة التي يعلم الجميع أنها تعتمل في داخلها. فبمجرد أن ترى صالحاً ساهماً، حتى لو لم يكن ساهماً في الحقيقة، تثور ظناً منها أنه يفكر بامرأة أخرى، أو بزوجته التي لا تدري من تكون وأين تكون، أو أنه غير مكترث بوجودها معه. ومجرد أن ينظر إليها صالح نظرة كانت في الماضي عادية، تثور ظناً منها أنه يتفحص جسدها المكتنز، ويقارنه بأجساد عارضات الأزياء والفنانات اللواتي يظهرن على شاشة التلفزيون، وهي التي كانت قبل حين فخورة باكتناز جسدها، باعتباره من صفات الجمال والأنوثة.

أصبحت لا تطيق مشاهدة زوجها للتلفزيون، وتلك البرامج والأفلام التي تظهر فيها نساء من كل شكل ولون، فتفتعل الشجار، ويتركان التلفزيون معاً. بل إنها بدأت في تحليل تصرفات صالح بشكل لم تفعله سابقاً، وبمعان لم تخطر لها من قبل، حتى أنها أخذت في تفسير تصرفات قديمة وأحاديث سابقة قبل سنين وسنين، لم تكن تأبه بها في حينها، ولكنها اليوم ترى فيها معاني مختلفة، رغم مرور كل تلك السنين. وأخذت تقرأ كل ما تقع عليه يدها من كتب في علم النفس في مكتبة مشاعل الخاصة، وتفتش عنها في كل مكتبات الرياض، فتقرأ وتحاول تطبيق ما تقرأ على صالح وسلوكياته، حتى تلك التي كانت لا تلفت انتباهها. وأصبحت أسماء مثل فرويد ويونغ وأدلر وواطسن وبافلوف وسكنر تتردد على لسانها كثيراً، رغم أن فرويد بقي هو الأثير لديها.

وتوقفت لطيفة كثيراً عند تحليل فرويد لإدمان الخمر، وأخذت تحاول أن تفهم لماذا يشرب صالح، وهو الذي كان يحرم فوائد البنوك بالرغم من تعامله معها، حتى أفتى له أحد الفقهاء في مصر بجوازها، فأخذ يتعامل معها وهو مرتاح الضمير. وهو يؤدي فروضه الدينية بشكل طيب عموماً، وإن تهاون في بعضها أحياناً، ويدقق في الطعام حين يكونون في الخارج خشية أن يكون فيه شيء من لحم الخنزير أو مشتقاته. وهو يقر بأن الخمر حرام، ولكنه لا يستطيع مفارقتها، لماذا؟.. هذا هو السؤال. وأخيراً توصلت إلى حل اقتنعت به: فصالح يشرب ويسهر ويسافر لأنه غير سعيد في حياته أو هو قد سئم منها، وبالتالي هو يريد الهرب من شيء ما، أو حتى هو يسعى للانتحار سأماً من حياته، رغم مظاهر القناعة والسعادة التي يدعيها، أو تلك التي يحاول أن يوحي بها لمن حوله. ولكن ما هو ذلك الشيء الذي يسأمه ويريد الهرب منه؟ سؤال كان يؤرقها. فهو يحب عمله حباً جماً، ويعبد أطفاله، وناجح جداً في عمله وعلاقاته الاجتماعية، فلا ريب بالتالي أنها هي التي يريد الهرب منها ولا أحد غيرها..

كان هذا هو الجواب الذي هداها إليه تفكيرها تلك الأيام. لقد تزوجها أيام الفقر والعوز والقلة والحاجة، وبشكل تقليدي بحت، وهو اليوم يبحث عن علاقة غير تقليدية، أو امرأة تليق بمقامه الاجتماعي الجديد. صحيح أنهما، هي وهو، لا يحملان أية شهادة علمية، رغم أنها تفوقه ثقافة، وينتميان

إلى خلفية اجتماعية واحدة، ولكن الرجل ليس كالمرأة. ففي مجتمعها، فإن عيب الرجل الوحيد هو جيبه، أما المرأة فعيوبها كثيرة، إن لم تكن هي كلها عيب مجسد. وصالح اليوم ليس فيه أي عيب طالما أن لا عيب في جيبه، وهذا هو ما يقلقها. لقد توصلت مع الأيام إلى جواب لسؤال كان يؤرقها كثيراً، وأصبحت موقنة تمام اليقين أن الفروق الاجتماعية بين الرجل والمرأة هي فروق مصطنعة لا علاقة لها بطبيعة أي منهما. فالله يخلق الذكر والأنثى، ولكن الناس هم من يجعلون من الأنثى امرأة ومن الذكر رجلاً. إنها تعلم كل ذلك، بل تعلمت كل ذلك، ولكن الناس لا يريدون أن يتعلموا. .بل إنهم يحاربون مثل هذا العلم، وصالح رجل من هؤلاء الناس، لا يعترف إلا بالرجال، ويرى أن المرأة شر لا بد منه، وهذا هو ما يجعلها أكثر توتراً.

وبالرغم منها، طافت قصيدة «إلى ساذجة» لنزار في خيالها، وبصوت مسموع في داخلها، كانت ترى صالحاً وهو يقول: «وددت يا سيدتي، لو كنت أستطيع، حبك يا سيدتي. لو كنت أستطيع». ثم لا تلبث «نفاق» أن تحشر نفسها، وصوت نزار يرن في أذنيها: «كفانا هراء. .فأين الحقيبة؟. .أين الرداء؟. .لقد دنت اللحظة الفاصلة، وعما قليل سيطوي المساء، فصول علاقتنا الفاشلة. .»، ثم تنخرط في نشيج لا يسمعه أحد غيرها. .وبالرغم منها أخذت تلوم نفسها على إسراف صالح في الشراب، بعد أن كان هو الملوم وحده، ولا تجد إلا البكاء وحيدة ملاذاً لها. لقد أصبحت تبكي كثيراً هذه الأيام، وصالح لا يدري ما الذي حل بها. فقد حصلت على كل ما تريد، وكل ما حولها يخلق السعادة خلقاً، ولكنها بدل أن تكون سعيدة، إذ هي في غاية التعاسة.

*

وازداد حال لطيفة سوءاً. . . تبكي أكثر الأحيان، وتنفرد بنفسها كل الأحيان، وتنام كثيراً، وهي التي كانت لا تنام من الليل إلا أقله أو طرفاً منه، وتركت شؤون البيت والزوج والأولاد لعناية الخادمات بشكل كامل، وهي التي كانت لا تترك شاردة ولا واردة إلا وأشرفت عليها بنفسها، حتى أن خالداً ولدها كان يسميها مازحاً بـ«المستبدة». كانت تشعر بالضيق وتأنيب

الضمير لترك أمور الأسرة للخادمات، وخاصة فيما يتعلق بأمر طارق، ولكنها غير قادرة على فعل أي شيء، فهي في غاية الإجهاد والتعب وعدم الرغبة في عمل أي شيء. بل إنها أصبحت لا تأبه لقبلات طارق ومداعباته، وهي التي كانت تترك كل شيء من أجل قبلة مبللة بلعابه اللذيذ، كما كانت تصف ذلك اللعاب.

وفي الأوقات التي كانت لا تبكي فيها ولا تنام، كانت تصلي أو تقرأ القرآن، بالإضافة إلى كتيبات دينية صغيرة بشكل لافت للنظر. تركت كل القراءات الأخرى، وتوقفت عن قراءة كتب علم النفس، وأغرقت نفسها في كتب أخرى حول الجنة والنار وعذاب القبر وأشراط الساعة ووصف أهوال اليوم الآخر. لم تكن هذه هي لطيفة التي اعتادها صالح. لقد كانت امرأة متدينة وتقية لا ريب في ذلك، ولكنها لم تكن بهذا التشدد في يوم من الأيام.

وحرمت على صالح أن يسهر وأصحابه في منزلها، فهي لا تريد أن ينقلب منزلها إلى حانة أو ماخور، كما كانت تقول بكلمات وتعبيرات بذيئة لم ترد على لسانها من قبل. بل إنها هجمت ذات يوم على مخزون صالح من المشروب في «البدرون»، وكسرت كافة زجاجات المشروب وهي تصرخ وتضحك بجنون في آن معاً: «وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»، ثم تنظر إلى الزجاج المهشم، والسوائل الممتزجة على أرضية المكان، فتستنشق رائحة الكحول النفاذة بعمق وتأخذ في ضحك صاخب، ثم تأخذها غفوة من النوم في مكانها، لا تفيق منها إلا بعد حين.

كانت مشاعل هي من أخبر والدها بما فعلت أمها وهي ترتعد هلعاً من هذه الحالة الجديدة. ولم يجد صالح شيئاً غير كتم غضبه، بل إنه نسي غضبه وحل محله شعور بالاندهاش من هذه التطورات التي طرأت على حياته وحياة لطيفة الوادعة. كما أصبحت لطيفة أكثر حزماً وقسوة في جلوس ابنها خالد أمام التلفزيون، رغم أنه لم يعد يفعل ذلك إلا نادراً، أو خروجه مع أصحابه الذين تعرفهم منذ أيام الجامعة والثانوية، وهو الذي كان أكثر أهل البيت التزاماً بالفروض الدينية، مما دفعه إلى قضاء معظم وقته خارج البيت. فحتى تدين خالد الجديد لم يعد كافياً بالنسبة لها، وهي التي كانت تنصحه بالبعد عن

التزمت والتعصب، عندما لاحظت اندفاعه الديني الجارف. «فالتدين شيء طيب، والدين يحض على الحب ومكارم الأخلاق»، كما كانت تقول، «ولكن التشدد فيه قد يؤدي إلى عكس المراد منه في أحيان كثيرة. .فالتدين مثل الدواء، إذا تجاوزت الجرعة حداً معيناً، تحول إلى سم قاتل، وليكن سيد الخلق أجمعين، صلى الله عليه وسلم، أسوتك دائماً وأبداً، فلم يكن فظاً ولا غليظ القلب. .». . هكذا كانت تقول. .

وحرّمت دخول المجلات وأي كتب أو روايات «فاسقة» ـ كما أصبحت تصف كل الروايات ـ إلى بيتها، مما كان مدعاة لتذمر مشاعل وبدرية، والتي أصبحت مكالماتهما مع صديقاتهما مراقبة بدقة. بل وأصبحت تمنع بدرية ومشاعل من الجلوس بالشورت حول المسبح العائلي المغلق، أو لبس البنطلون حتى في المنزل، لأن في ذلك تشبهاً بالرجال من ناحية، واعتياداً على ما لا يجوز من ناحية أخرى. كما بات كل حديثها يدور حول تفسيراتها الخاصة الغريبة للآيات القرآنية التي تقرأها، أو سرد تلك الأحاديث النبوية التي لا يعلم أحد من أين تأتي بمعظمها، حيث كانت تنهي حديثها بجملة: «يا ويلكم. .يا ويلكم. .ترى النار حارة. .ترى النار حارة. .»، وقد فقدت عيناها كل بريق، بل وكل معنى للحياة. وكان صالح يتصنع الدهشة من سماعه لهذه الأحاديث وكأنه يسمعها لأول مرة، رغم أنه يعرف الصحيح منها منذ الصغر، وهو الذي تعلم القراءة والكتابة على يد «مطاوعة» القرية مثل جيله، الذين كانت الآية والحديث وبيت الشعر التقليدي هي وسيلة التعليم الوحيدة.

بل وصل بها الحال إلى تحطيم كل أشرطة الفيديو والكاسيت، وتمزيق كل ما في المكتبة الصغيرة من كتب وهي تقول: «إن كان ما فيها يعارض كتاب الله وسنة رسوله، فالأولى أن تحرق وتمزق. وإن كان ما فيها يتفق مع ما قال الله وقال الرسول، فلا حاجة لنا بها، وفي كتاب الله غنى عن كل ذلك». أما كتبها الخاصة، الروايات وكتب علم النفس ودواوين الشعر، فقد جمعتها وأحرقتها في حديقة المنزل، وقد افتر ثغرها عن بسمة غريبة وهي تفعل ذلك، واجتاحت جسدها لذة طاغية وهي ترى ألسنة اللهب تلتهم مستقبل وهم، والطوطم والتابو، ومعالم التحليل النفسي وألف ليلة وليلة، وأولاد حارتنا،

وآنا كرنينا، والفرسان الثلاثة، ومدام بوفاري، وعشيق الليدي تشاترلي، وشوقي ونزار والسياب وأبي ماضي والمتنبي وأبي فراس وأبي النواس..

*

لم يمنعها أحد من أن تفعل ما تشاء، رغم ضيق الجميع بما تفعل واستغرابهم وشفقتهم، والدهشة الشديدة من هذا الانقلاب العجيب في حياتها بين عشية وضحاها، وهي التي كانت مضرب المثل في النضج والاتزان. وكان الجميع في المنزل يحاولون مسايرتها، فقد كان واضحاً أن لطيفة لم تعد هي لطيفة. مرة واحدة تدخل أهل البيت بحزم لمنعها من تمزيق البومات الصور العائلية، فقد أصبحت لطيفة تحرم الصور بأنواعها، وهي التي كانت حريصة كل الحرص على التصوير في كل المناسبات، وأقنعوها أنهم سيحرقون الصور بأنفسهم خارج الفيلا. وأغلق صالح على الصور وأشرطة الفيديو العائلية في صندوق الأمانات الفولاذي في مكتبه. كما قاموا بجمع التماثيل واللوحات الفنية المتناثرة في أرجاء البيت، وأغلقوا عليها في غرفة بالملحق الخارجي للفيلا، خوفاً من هجمة غير مُتنبأ بها من هجمات لطيفة، التي أخذت تردد أن البيت الذي توجد فيه الصور والتماثيل هو بيت لا تدخله الملائكة، ولا تحل فيه البركة، وهي لا تريد أن يكون بيتها مرتعاً لشياطين الأنس والجن يعيثون فيه فساداً. والحقيقة أنه لم تكن تلك اللوحات أو التماثيل، رغم قيمتها الفنية، تمثل أية قيمة فنية لدى صالح، بقدر ما كان «البريستيج» الاجتماعي هو ما يهمه من ناحية، وقيمتها المادية في السوق من الناحية الأهم. فقد دفع مئات الألوف في هذه الأعمال، على أمل أنه قد يجني منها الملايين فيما بعد، ولن يسمح لنزوات لطيفة أن تدمر كل هذه الملايين.

وفجأة ودون مقدمات أو سابق إنذار، ينقلب الحال إلى ضده، ولا تعود لطيفة تصلي، أو تقرأ أي شيء، بل لم تعد تفعل أي شيء على الإطلاق، حتى البكاء لم تعد تفعله. كل ما تفعله الآن هو الجلوس ساهمة وكأنها تمثل عالم الأموات في عالم الأحياء، وربما تبدر منها بسمة هنا أو هناك، ولكن كان من الواضح أنها بسمة مفتعلة، كان الجميع يحاولون أن يردونها إليها بأفضل منها، وأيديهم على قلوبهم في كل الأحوال. يتصنعون الضحك وعدم الاكتراث،

ولكن أعينهم لم تكن تفارق لطيفة في حركاتها وسكناتها، أو هي سكناتها حقيقة.

فقد أصبح صالح يشعر بالقلق ويتوجس خيفة كلما بدرت من لطيفة مثل هذه البسمات المفتعلة، ويرد على ذهنه بيت أبي الطيب: «إذا رأيت نيوب الليث بارزة، فلا تحسبن الليث يبتسم»، فيبتسم بالرغم منه، ثم يعود لمراقبة لطيفة، وقد تحول إلى توجس كامل. لقد أصبح بالفعل خبيراً بها هذه الأيام، فما أن يرى تلك البسمة المفتعلة، حتى يحول عينيه إلى عينيها. وعندما يلاحظ أن بياضهما قد غشته صفرة مح البيض، وتورم ما حولهما، حتى يعلم بأن هنالك أزمة قادمة، ويحاول أن يستعد لها، وهو يردد بينه وبين نفسه: «سامحك الله يا لطيفة وشفاك. . فبقدر ما أرحتني في تلك الأيام، ها أنت تتعبينني هذه الأيام. .» ولم تعد لطيفة تشارك في أي حديث مهما كان نوعه، ولا تعترض على أي شيء مهما كان شكله. حتى حفلات صالح في المنزل أو شربه لم تعد تكترث بها أو لها، رغم أنه كان يحاول التقليل منها ما استطاع لذلك سبيلاً، رأفة بحالها. شيء في عينيها يوحي بأنها تنتمي إلى عالم آخر، رغم أنها مع الجميع بجسدها في هذا العالم.

*

وفجأة، ومن جديد، ينقلب الحال رأساً على عقب، فتجلجل ضحكات لطيفة في أرجاء المنزل، وتتحول إلى كتلة متجسدة من النشاط والحركة لا تريد أن تهدأ. تريد أن تعمل أي شيء وكل شيء. . تريد أن تخرج كثيراً، وأن تقرأ كثيراً، وأن تعمل كثيراً، حتى أنها فكرت في الدراسة المنتظمة علها تحصل على شهادة جامعية طالما تمنتها. وفي الوقت نفسه كانت تبدر منها حركات في غاية الغرابة. فقد صارت تتبرج كثيراً، وتنثر على نفسها عطوراً رخيصة ذات رائحة مثيرة، كانت تذكر صالحاً بتلك الروائح التي كان يشمها في أزقة البيغال وسوهو، ودهاليز ساحة الشهداء في بيروت أيام زمان. وأخذت تخرج إلى الأسواق بكثرة، وهي التي كانت تعاف الزحمة وتكره الأسواق، برفقة بدرية التي كانت ملازمة لها كظلها بالرغم من تأفف لطيفة من هذه الرفقة غير الطيبة، كما كانت تقول. حاول صالح أن يمنعها من الخروج ووضع تلك

العطور الرخيصة، بل إنه صفعها ذات مرة، وهو الذي لم يمد عليها يداً قبل ذلك، على خلاف كثير من أصحابه ورفاقه، ويهددها بالطلاق وإخبار شقيقها الكبير بالأمر إن هي استمرت على مثل هذا السلوك الشائن، ولكنها ردت عليه بضحكة من تلك الضحكات التي اتقنتها مؤخراً، وهددته بدورها أن تخرج عارية تماماً إن هو منعها من فعل ما تفعل، فعلم صالح أن زوجه لم تعد زوجه، فتركها مكرهاً وهو لا يدري ماذا يفعل، فالفضيحة قائمة في كل الأحوال.

وفي الأسواق كانت لطيفة تتعمد الحديث مع الباعة برقة ونعومة وميوعة، وهي تبتسم بإغراء، ولا تضع على وجهها إلا طبقة رقيقة من خمار أسود يسمح برؤية ما ورائه أكثر مما يخفي، فتبدو أكثر فتنة وإغراءً مما لو كانت كاشفة الوجه تماماً. وعندما تمشي، كانت تتعمد أن تسير الهوينى وهي تتثنى، وتنظر حولها بلذة وهي ترى أعين الرجال تتابع تفاصيل جسدها الذي حشرته في ملابس ضيقة تفضح أكثر مما تستر. وكم من مرة تعرض لها رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنها كانت تتصدى لهم بشراسة نمرة مجروحة، فيتركونها غالب الأحيان وشأنها. غير أنهم اقتادوها ذات مرة إلى مركزهم هي وبدرية وسائقها الخاص، وكانت صدمة لصالح الذي استخدم كل نفوذه من أجل أن لا يبقى ما يدل على الحادثة في الملفات، ولكن ذلك لم يردعها عن مواصلة السلوك الغريب ذاته.

ففي السيارة، كانت تترك النافذة مفتوحة، وقد أزالت الخمار عن وجهها،وهي تلوك العلكة، وتنظر إلى سيارات الشباب الحائمة حول سيارتها وتضحك بشكل غير طبيعي، وخاصة عندما تتلقى تلك الأوراق الصغيرة التي تُلقي عليها من النافذة. وفي البيت، كانت تنظر إلى هذه الأوراق بما حوته من أرقام تلفونات، وتأخذ في الضحك بلذة وغنج غريبين عليها، ثم تأخذ بالاتصال ببعض تلك الأرقام، وتغلق السماعة ما أن يأتيها الرد من الجانب الآخر، وهي تضحك بجنون وقد امتلأت عيناها بالدموع. كانت بدرية تشعر بحرج شديد وهي ترى أمها في هذا الوضع، وتنبهها إلى ذلك، ولكن لطيفة لا ترد سوى بضحكة أشبه ما تكون بضحكات عوالم أفلام حسن الإمام، وهي تسبل عينيها بإغراء لابنتها. ولكن الأمر لا يطول، إذ ما هي إلا أيام،

وسرعان ما تهمد لطيفة دفعة واحدة، وتعود إلى الصمت والبكاء والانطواء على نفسها من جديد.

*

وتطورت الأمور بسرعة خطيرة إلى مرحلة أكثر إزعاجاً. لم يعد النوم يغازل جفني لطيفة، وهي التي كانت إلى فترة قريبة تقضي معظم وقتها في النوم. يمر اليوم واليومان والثلاثة وهي لا تعرف للنوم طعماً. وإن نامت بعد ذلك، فهو نوم مضطرب لا تلبث أن تفيق منه بعد ساعتين أو ثلاث بالكثير. حاول صالح أن يرفه عنها، وهو الذي بدأ إحساس غريب بالذنب يتسلل إلى نفسه، ويلومه على حالتها، لإهماله لها طوال السنوات الماضية، فكان يأخذها في نزهات إلى خارج الرياض. وعندما تكون هناك مناسبة من عيد أو نحوه، كان يسافر بها إلى دبي أو القاهرة عندما تكون الإجازة قصيرة، أو إلى لندن وباريس وجنيف، وحتى أورلاندو ولوس أنجلوس ولاس فيغاس، عندما تكون الإجازة طويلة. ولكن الأيام تمر، والشهور تمتد وحال لطيفة كما هو لا يتغير، والإحساس بالذنب يكبر في صدر صالح، رغم محاولاته إقناع نفسه بأنه لا ذنب له في الحالة التي آلت إليها لطيفة، ولكن شيئاً في أعماقه كان يقول له إنه مسؤول عما آلت إليه الأمور.

يحاول إقناع نفسه أنه «لم يُقصر في شيء»، ولكن الإحساس بالذنب لا يلبث أن يعود ويتفاقم، مثل سل خبيث لم يُشفَ تماماً، أو سرطان مستفحل يستعصي على كل علاج.. هل تعلم لطيفة عن مغامراته النسائية في الخارج والداخل، ولذلك أصبحت في هذه الحال؟.. مستحيل، وكيف لها أن تدري، وهو الحريص كل الحرص على الكتمان الشديد في مثل هذه الأمور.. ربما كان فتور علاقتهما خلال السنوات الماضية، وقلة معاشرته الجنسية لها خلال السنوات القليلة الماضية هو الذي جعلها في هذه الحالة؟.. ربما.. كلا.. مستحيل.. فلطيفة كانت واضحة البرود الجنسي منذ أن تزوجها.. ولطيفة من بيئة هو أعلم بها، لا يشكل الجنس هاجساً لديها كما هو في بلاد الغرب والشرق الأخرى.. لا.. قوانينهم ومشكلاتهم وأمراضهم لا تنطبق علينا، فلنا خصوصية تأبى على تعميمات الآخرين رغم أننا كلنا من

البشر.. ولم لا؟.. مستحيل.. ربما.. كلا.. ويبقى صالح حائراً في دوامة أسئلة لا تنتهي، وحيرة أجوبة لا نهاية لها. حتى طارق ابنها، قرة العين كما كانت تسميه، لم يكن قادراً إلا على انتزاع بسمة شاحبة من أمه التي لا يدري أين ذهبت رغم وجودها أمامه.

ولكن المشكلة أن حال لطيفة يزداد سوءاً بعد كل إجازة تقضيها مع صالح في الخارج. فعندما يعودون، تلبث عدة أسابيع وهي في حال طيبة إلى حد ما، حتى أن الجميع يطمئن إلى أن لطيفة القديمة قد عادت من جديد، ولن يتغير حالها بعد ذلك. ولكن ما أن ينتهي شهر أو بعض الشهر، حتى تبدأ عيناها في الاصفرار والإفصاح عن أن هنالك أزمة من أزماتها في الطريق. وأصبح أهل البيت جميعاً من الخبراء في تفسير تقلبات عيني لطيفة. فقبيل الأزمة، يتورم ما حول عينيها، ويشوب بياض عينيها الناصع عادة، صفرة فاقع لونها.

لقد كانت عينا لطيفة أجمل ما فيها، وفي قريتها كانوا لا يصفونها إلا «بعيون المها»، حتى أن صالح كان يعلق على ذلك في ليالي الصفاء والأنس بالقول: «لا أعتقد يا لطيفة إلا أن جريراً كان يعنيك، أو ربما عنى واحدة من أسلافك لا تعرفينها، حين يقول: إن العيون التي في طرفها حور، قتلننا ثم لم يحيين موتانا». ثم يضحك وهو يلقي ما في كأسه من شراب دفعة واحدة، ويبدأ بإعداد كأس أخرى وهو يقول: «عز الله كان علي بن الجهم صادقاً وهو يقول: عيون المها بين الرصافة والجسر، جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري. أعدن لي الشوق القديم ولم أكن، سلوت ولكن زدت جمراً على جمر»، ثم ينظر إلى لطيفة بحب صادق. كانت لطيفة أثناء ذلك تشعر بسعادة ضافية تغمر كل كيانها، وتتمنى لو تدوم أيام الصفاء تلك، ولكن شيئاً في داخلها يقول لها إن ذاك ليس من طبع الأيام، فالأيام غادرة بطبعها، فتحاول أن تساير عمر الخيام، وتغنم من الحاضر لذاته، وليكن في يد الله ما في جوف القدر.

المتاهة

وتأخذ الأزمة أبعاداً أخطر بعد كل إجازة تقضيها في الخارج، بعد أن تنتهي فترة الصفاء النسبية التي تعقب الإجازة. ففي ذلك الصيف، ترك صالح الأولاد في لندن، وذهب هو ولطيفة في رحلة قصيرة لوحدهما إلى باريس، فلعلّ ذلك يكون مفيداً لحالتها. وبعد العودة إلى الرياض بأسبوعين تقريباً، وبينما كان الجميع يتحلقون حول التلفزيون في مجلس العائلة، والكل في حالة توجس كامن، قبضت لطيفة على يد صالح فجأة، وجرته إلى مجلسهما المختصر في غرفة النوم، وكانت عيناها المصفرتان تومضان بذلك الوميض الغريب الذي أصبح يعرفه جيداً. وهناك، أخبرته بسر لا يعرفه إلا هي. قالت وهي تتلفت حولها:

ـ أتذكر ذلك الشاب الفرنسي الأشقر الذي كان يسير خلفنا ونحن نتجول في برج أيفل؟..

والحقيقة أن صالحاً لا يذكر شيئاً من ذلك، ولكنه سايرها كعادته مؤخراً وقال:

ـ نعم:. أليس هو ذاك الطويل والنحيف الذي كان يرتدي بنطلون الجينز الأزرق، والقميص الأبيض؟..

ـ بالضبط.. نعم.. نعم.. ولكنه لم يكن نحيفاً، لقد كان أشبه ما يكون بعلي نور الدين في ألف ليلة وليلة؛ ولكنه أشقر.. المهم.. لقد لاحظت إذن؟

لم يكن صالح قد لاحظ شيئاً، ولكنه كان يصف أي شخص يمكن مقابلته في أي مكان وفي أي مدينة أوروبية أو أميركية أو حتى عربية..

ـ لقد غازلني. . كلا. . لقد راودني عن نفسي بكل وقاحة. . تصور يا صالح. .لقد كان يراودني عن نفسي وأنت معي. .

ثم وهي تنظر إليه بعتاب:

ـ كنت معي ولم تفعل شيئاً، بل لم تلاحظ شيئاً. .

قالت لطيفة وهي تنظر بعينيها الصفراوين المنتفختين إلى صالح، وتهز رأسها، ثم تقول:

ـ لا أدري كيف أفسر سلوكك يا صالح. .فإذا لم تعد تحبني، فكيف عدمت الغيرة؟. .أنت العربي المسلم!؟

ثم وهي تبلع ريقها بصعوبة:

ـ نعم. . أنا لا أفهم الفرنسية، ولكن كان واضحاً أنه يريدني بقوة.

ـ وماذا فعلت؟

قال صالح والغيرة تغلي في داخله، رغم علمه أن القصة كلها من نسج خيالها المريض، فهما لم يذهبا إلى برج أيفل في رحلتهم الأخيرة على الإطلاق، وإن كان قد لاحظ أن لطيفة لم تكن تجلس في مكان إلا حيث يكون البرج ظاهراً أو بعضاً منه، وحيث يكون نهر السين أمام ناظريها، فتطيل النظر إليهما وهي صامتة تحتسي فنجانها الخامس أو السادس من قهوة إكسبرسو سوداء شديدة التركيز والمرارة. كم كان بود صالح لو كان قادراً على الغوص في أعماقها، والسباحة في نسيج روحها وجسدها كي يعلم بماذا تفكر هذه المخلوقة التي يكتشفها لتوه، وأين قادتها رحلتها الذاتية البعيدة رغم اقتراب الأجساد لدرجة الالتصاق.

تلقي بالفنجان تلو الفنجان في جوفها، غير شاعرة بسخونة القهوة، وعيناها لا تكادان تفارقان مياه النهر إلا للعودة إلى حديد البرج، فيما صالح يترع كؤوس البيرة، الكأس تلو الأخرى، دون أن يحس بأي خدر أو نشوة تتسرب في نسيجه المخي، فيتحول إلى الفودكا إذ. . لعل وعسى، وهو لا يدري ماذا يقول. وحتى إن قال، فليس هناك أذن تسمع، فيغرق هو ذاته في ذاته إذ لعل الذوات تلتقي على غير موعد، فيعلم ماذا يجول في عالم زوجه،

الذي أدرك أخيراً أنه لا يعلم عنه شيئاً، رغم اعتقاده السابق أنه قد خبره كما لم يخبره أحد سواه. .لطيفة التي كانت بالنسبة له كتاباً مفتوحاً فيما مضى، هاهي اليوم تبدو وكأنها مثلث برمودا بأسراره التي استعصت على كل أحد، أو قارة اطلنطيس الغارقة، التي بقيت أحجية على مر الأزمان.

كانت لطيفة تنظر إلى النهر وتفكر. .ليس بذاك الجمال ولا بتلك النظافة التي تغنّى بها شعراء الفرنسية وكتابها. . لا ريب أنه أنظف من نيل القاهرة، ولا تعلم عن دجلة بغداد، ولكنه يبقى قذراً مهما كانت درجة نظافته. .ليس فيه ما يوحي بالرومانسية وآهات العشاق والمعذبين، فمن أين أتى الكتاب بكل ذاك الوصف لنهر لا فرق بينه وبين أي نهر آخر؟ . .لعلها تلك الرابطة العاطفية غير المرئية التي تربطنا بالأماكن والأشياء، دون أن تحمل تلك الأماكن والأشياء أي معنى بذاتها.

فالفرنسي يرى في سينه ما لا يراه الآخرون، والمصري يرى في نيله ما لا يراه الفرنسيون، والروسي يرى في الفولغا وثلوج موسكو وغابات لينينغراد ما لا يراه العربي إلا في رمال صحاريه وقسوة رياحه الصيفية. تعرف العربي من حنينه الزومانسي للصحراء، والتذاذه بريح السموم ولسعات الزمهرير، حتى وإن كان أجداده قد غادروا الصحراء منذ دهور وأحقاب. وجه العربي ليس إلا انعكاس حي للون الرمال وقسوتها، وصحراء العرب ليست إلا امتداد مكاني لوجه العربي. العبرة في الإنسان وليس في المكان، وبدون الإنسان لا معنى لأي شيء. .

ولكن السين يبقى كتلة متحركة من ماء قذر، مهما تغنى به الشعراء، وذابت الكلمات في وصفه. .هل يمكننا أن نحكم على تحضر الإنسان من نظافة ماء أنهاره؟ . .وندت عن لطيفة ضحكة مقتضبة لفتت نظر صالح، وظن أنها فاتحة حديث ما، ولكن لطيفة عادت إلى صمتها وهي تتحدث ولا تتحدث. .ولكن ما شأن من ليس لديهم أنهار! أيعني ذلك أنهم لا ينتمون إلى أية حضارة؟ . .وضحكت من جديد وسط نظرات صالح المستغربة، الذي أدرك ساعتها أن زوجه تدور مع دوامة الجنون، إن لم تكن قد غرقت فيها، كما هو غارق الآن في دوامة الفودكا الممزوجة بالمياه المعدنية. .

ربما كان السين في باريس أنظف من نيل القاهرة، وربما من دجلة بغداد، ولكن نهر النيجر في القرى الأفريقية أنظف من كليهما، فهل أفارقة الغابات أكثر حضارة من أناس المدن؟.. ربما.. ولكن، ما هي الحضارة؟.. غريب أمر هذه الأنهار، إنها تأتي من منابعها صافية نقية، ولكنها تنتهي منتحرة في البحار والمحيطات وقد حملت دنس كل من مرت بهم من بشر.. أيكون هذا هو سبب التعميد في الأنهار عند النصارى؟.. بل وغير النصارى؟.. لا تكون الأنهار قذرة عندما تسافر من منبعها، ولكنها تصبح كذلك أثناء رحلتها ومسارها بين البشر.. وتطلق آهة عميقة فيما كان صالح يطلب كأساً أخرى من الفودكا، وقد عقد العزم على أن «لا يدقق» في تصرفات زوجه كثيراً، وهي التي أصبحت منطقية في ظل لامنطق أصبح هو المنطق ذاته.. وربما كانت المسألة هي العكس، ولكن لا أحد يدري.

ويضحك صالح في سره وقد وجد نفسه يفكر هكذا وهو يحدث نفسه: «ربما كان الجنون مرضاً معدياً كالسفلس ينتقل مع الجنس واللعاب وسوائل الجسد.. سامحك الله يا لطيفة، من لا يصيبه الجنون معك، فلا بد أن تلعب الخمرة بتلافيف مخه».. وتترك لطيفة النهر لتنظر إلى ذاك الشامخ من بعيد.. برج ايفل. لقد بنوه علامة تجارية لمعرض عابر، وهاهو يتحول إلى رمز فرنسا الوطني.. أيمكن أن تكون هذه البداية الحقيقية لكل ما نراه من رموز؟ بل أيمكن أن يكون هذا أصل كل ما نؤمن به من قيم ومبادئ ورموز نحسها ولا نحسها؟.. مجرد علامات لشيء عابر، فتعبر الأشياء وتبقى العلامات؟! أَعَبث أكثر من ذلك؟.. ومن قال إن الحكمة هي سيدة الكون؟.. ويقولون إن العقل هو سيد العصر.. وتضحك لطيفة من جديد، فيما كان صالح يلقي بمحتويات الكأس في جوفه، وقد بدأ رأسه في الدوران، وشاركها الضحك وهو لا يدري لماذا هي تضحك ولماذا هو يضحك.

*

ــ لم تقولي لي.. ماذا فعلت مع ذلك الشاب؟

قال صالح وهو يحاول العودة إلى اللحظة الراهنة. وأخذت لطيفة تفرك يديها بقوة وهي تتلفت في كل اتجاه، ثم نظرت إلى صالح مباشرة في عينيه وهي تقول:

ـ وما ظننت أني كنت فاعلة؟ . . لقد صددته بالطبع.

ثم وهي تبتلع ريقها بصعوبة:

ـ أنا بنت ناس. . أنا عربية مسلمة. . أنا شرقية. . فهل تتوقع مني غير ذلك؟

ثم وهي تفرك يديها بقوة مرة أخرى، وتنظر إلى قدميها العاريتين:

ـ ولكنه لا يتركني يا صالح!

وصمتت لفترة، بينما كانت يداها ترتعشان بقوة وهي تقول:

ـ كان يأتيني ليلاً في الفندق، وجنابك تشخر بجانبي غير شاعر بما يدور حولك. . طبعاً. . وكيف تشعر وفي كرشك كل ذلك العدد من زجاجات النبيذ وكؤوس الفودكا والويسكي والكونياك!

ثم وهي تضحك بعصبية:

ـ عز الله عنز وطاحت بمريس. .

وضحكت ضحكة مكتومة هذه المرة، بدت وكأنها صادرة من أنفها مباشرة، ثم عادت إلى الالتفات بعصبية حولها، وركزت عينيها في عيني صالح وهي تقول:

ـ وعندما عدنا، أصبح يأتيني كلما انفردت في غرفة النوم وأنت غائب. .

تتمخط بقوة، ثم تبصق في جيب قميصها، وبين ثدييها العاريين مباشرة، وتعود للنظر في عيني صالح وتقول:

ـ يحاول معي كثيراً، ولكنني أرفض، فأنا مسلمة أخاف الله. وليلة البارحة. . .

وصمتت لطيفة، فيما كانت حواس صالح قد أصبحت متيقظة أكثر انتظاراً لما ستقول. ولكن صمتها يطول، وهو لا يستطيع التحكم بأعصابه، ومع ذلك بقي صامتاً، فهو لا يريد أن يكون سبباً في انتهاء حديث بدا له مشوقاً، رغم امتزاج الألم والغيرة والحيرة في داخله المتقد. وبعد فترة خالها صالح دهراً، نطقت لطيفة بصوت فيه ارتجاف وتأتأة، وكان واضح الجفاف:

ـ ليلة البارحة جاءني في غرفة النوم كعادته. . لا أدري كيف دخل، رغم وجود الأولاد في الصالة. وكان يرافقه هذه المرة شخص ضخم، بعينين كعيون البقر، أقرب إلى العفريت منه إلى الإنسان. . لا. . .لم يكن مجرد عفريت، بل كان الشيطان نفسه. .أنا واثقة من ذلك. .لقد كانت له حوافر كحوافر الخروف، وقرنين كقرني الثور، ولحية كلحية التيس، وأنياب كأنياب الكلب، وجناحين كجناحي الخفاش، وذيل كذيل البقرة، وفم كفم الجمل، وأنف كأنف الخنزير. .وكان معه سكين طويلة، أشبه ما تكون بسيف والدي الذي كان يعلقه في القهوة. .هل تذكره؟

قالت لطيفة وقد ارتسمت بسمة صافية على ثغرها لأول مرة منذ أمد بعيد. .

ـ نعم. . نعم. . ثم ماذا؟

قال صالح بعجلة وهو يستحثها على المضي في قصتها، وقد أحس بشيء من الرعب يستولي على فؤاده، رغم معرفته بأن لطيفة «تهذر» :

ـ وضع ذلك الفرنسي السكين على عنقي، فيما أمسك الشيطان بيدي بإحدى يديه، وباليد الأخرى أخذ يرفع قميص نومي.

ثم وهي تبتسم بحزن وأسى، وقد اتسعت عيناها وومضتا ومضة سريعة، مذكرة بأيام السكينة الماضية:

ـ لقد كان قميص النوم القرمزي الذي طالما أحببته. .هل تذكره؟. .ولكني كنت أكرهه، فلطالما كرهت اللون القرمزي. .لقد كنت تطلب مني أن ألبسه دائماً، فهو يجعلني أكثر إثارة كما كنت تقول. .هل تذكر؟

ـ نعم. . نعم. . وبعد؟

قال صالح بعجلة وعصبية وهو يحاول التحكم بأعصابه، وقد ارتفعت درجة حرارته إلى نقطة الغليان، وارتفع الضغط لديه إلى درجة يكاد الدم فيها أن ينفجر من العروق. كان داخله يعتمل بمزيج من المشاعر غير قابلة للتصنيف، فهي مزيج من الغيرة والغضب والشفقة والألم والذنب والأسى والحيرة. .

ـ وأتاني . .

قالت لطيفة وقد عادت الدموع تملأ عينيها:

ـ أتاني بعنف وبلا رحمة يا صالح بالرغم مني. . لقد اغتصبني ذلك الفرنسي، وكان الشيطان يضحك وقد بانت نواجذه الكريهة وهي تقطر بلعاب أحمر كالدم. . تحولت إلى كتلة من الرعب المجسد، وأخذت أصرخ وأستغيث، والفرنسي يواصل عمله الحقير ولا يتوقف عن صفعي وعضي في كل مكان تصل إليه يديه وأسنانه، ولكن لا أحد ينجدني، فلم تكن أنت موجوداً، ولا أدري أين ذهب أولادك!

وانخرطت في بكاء شديد وهي تنشج، ثم كشفت عن عنقها وهي تشير إلى مكان معين وتقول:

ـ حتى. . . أنظر. . هنا كان حز السكين التي وضعها على عنقي.

ثم أدارت عنقها وهي تقول بعصبية:

ـ وهنا أماكن عضاته. . أنظر. . أنظر.

وكشفت عن فخذيها وهي تقول:

ـ وهذه آثار بعض صفعاته. . خضراء كلون زيتون طازج. . زرقاء كصفحة المحيط. . . أنظر. . أنظر.

ويدقق صالح النظر وقلبه يخفق بعنف، ولكنه لا يجد شيئاً، فيحس براحة غريبة، ولكنه يسايرها وهو يقول:

ـ معك حق. . هناك حز واضح في العنق، وبقع داكنة حول العنق. .

ـ كلا. . تأكد تماماً من الحز والبقع. . أم تعتقد أني مجنونة؟

وحاولت لطيفة أن تكشف عن مؤخرتها وتلك الأماكن الحساسة من جسدها كي تريه مزيداً من البقع والكدمات، ولكن صالحاً أعاد إضفاء جلبابها على كامل جسدها وهو يقول بسرعة واضطراب:

ـ أستغفر الله. . أستغفر الله. . بل أنت سيدة العقلاء.

ثم أخرج سيجارة امتص منها نفساً عميقاً، ولكن لطيفة لا تلبث أن

تخطفها من يده ثم تلقي بها من النافذة وتعود إلى حيث كانت وهي تقول بعصبية:

ـ أف. . كم مرة أقول لك خيستنا بهالدخان. . حتى رائحة فمك أصبحت كرائحة مزبلة مهجورة.

ثم وهي تبصق في جيب قميصها من جديد:

ـ بل كرائحة مرحاض منزلنا القديم في الصالحية.

ثم وهي تنظر إليه بغضب:

ـ أقول لك إنه أتاني، ولا يكون رد فعلك إلا الهدوء وإشعال سيجارة مخيسة!. . أين غيرة الرجل الشرقي؟. . أين حمية العربي؟. . أم هي كلمات لا معنى لها إلا حين تريدون أن يكون لها معنى؟. . كم أنتم منافقون يا رجال الشرق. . أنا أحتقركم. . أنا أحتقركم.

وتأخذ لطيفة في الدوران حول الغرفة وهي تردد «احتقركم. . احتقركم. . أكرهكم. . أحتقركم»، ثم تلقي بنفسها على الأريكة وتأخذ في النشيج. ويسود الصمت بين الزوجين لفترة، لا تلبث معها لطيفة أن تهدأ، ثم يأتي صوتها خافتاً وكأنه قادم من قعر قمقم من قماقم بطل نشيد الأناشيد، وهي تقول:

ـ ولكني! أتدري يا صالح. . لقد شعرت بالمتعة مع ذلك الفرنسي. . ارتعش جسدي كله باللذة. . لذة ومتعة لم أعهدهما من قبل. .

ثم وهي تنشج:

ـ القتل أهون عندي من ذلك الشعور بلذة الخطيئة.

ثم عادت إلى البكاء والنشيج من جديد. كانت لطيفة تتحدث بعصبية واندفاع حتى كاد صالح أن يصدقها، ولكنه يعلم أن ما تقوله مجرد وهم، فقد كان موجوداً ليلة البارحة في المنزل، كعادته في الأيام الأخيرة، وكان الجميع يجلسون في مجلس العائلة تاركيها لنوم عميق لأول مرة منذ وقت طويل.

ثم ألقت لطيفة بنفسها على السرير، وغابت في سبات عميق، يتخلله أنين حزين. ولكن رغم إحساس صالح بشيء من الراحة لنومها، وشيء من

الأسى وهو ينظر إليها وقد بدأ لعابها الكثيف يبلل الوسادة البيضاء، فإن إحساساً عارماً من الغضب والغيرة أخذ يستولي على فؤاده في تلك اللحظة، وهي التي اعترفت له بأنها أحست بمتعة ولذة لم تعهدهما من قبل. كم كان بوده لو يصفعها أو حتى يخنقها، ويثأر لرجولته المهانة، فقد تعود إلى سابق عهدها أو تموت فتريح وتستريح. ولكن الأسى والألم لا يلبثان أن يعودا ويسيطرا على كل ذرة في كيانه المهزوز، وينسى كل شيء عن رجولته المجروحة، وكرامته المهدرة.

*

في اليوم التالي لهذه الحادثة، جرته مرة أخرى إلى غرفة النوم، وعيناها ترقصان من الفرح، وهي تقول حتى قبل أن يجلسا على حافة السرير:

ـ لقد حدثت معجزة ليلة البارحة يا صالح.. جاءني ملاك..

تلعق شفتيها بلسانها، ثم تقول:

ـ هل تصدق؟.. لا لن تصدق.. ولكنه جاء.. رأيته وتحدثت إليه..

وأخذت تهز رأسها بفرح طفل ضال أعادوه إلى أبويه، وهي تنظر إليه بعينيها المتورمتين، فيما كان صالح ساكناً وكأنه قد تحول إلى تمثال من تلك التماثيل التي عادت للانتشار في البيت، وهو لا يفتأ يحوقل ويسترجع ويتعوذ في داخله:

ـ فبينما كنت في هذه الغرفة بعد المغيب، أستجدي الرحمن الصفح والغفران على خطيئتي، فجأة برق البرق في السماء، وأخذت الأمطار تهطل بغزارة كغزارتها ليلة مولدي. وما هي إلا لحظات، حتى انشق الجدار عن باب عظيم الاتساع، ودخل منه مخلوق في غاية البياض والجمال.. له وجه كوجه المسيح في اللوحات التي رأيناها في الفاتيكان، وشعر مسترسل فاحم السواد، تماماً كشعر الموناليزا في متحف اللوفر، وجناحان كجناحي البراق وأسد آشور، يمتدان على امتداد البصر..

وأشارت إلى الجدار المعاكس لموقع الباب:

ـ لقد كان ملاكاً.. أنا واثقة من أنه كان ملاكاً.. وقال لي: لا تقلقي يا

لطيفة يا بنت الأجاويد.

ثم وهي تنظر إلى صالح بعينين بدتا مخيفتين في تلك اللحظة:

ـ نعم يا صالح.. لقد قال لي يا بنت الأجاويد.

ثم تأخذ نفساً عميقاً وتقول:

ـ قال لي لست من الخاطئين.. لم يكن الخطأ خطأك.. ولم تكن الخطيئة خطيئتك.. إنه إبليس اللعين في تحديه لرب العالمين.. ومن يركب البحر لا يخشى من الغرق، ومن يسقط في اليم، لا بد أن يبتل.

وتوقفت لطيفة لبرهة قصيرة، وكان واضحاً أنها تحاول ابتلاع ريقها الجاف، ثم قالت بصوت جاف تماماً:

ـ لم أصدق أول الأمر.. ملاك يأتيني؟!.. من أكون حتى يأتيني ملاك من لدن رحمن رحيم؟!

ثم وهي تمسك بمنكب صالح:

ـ ولكني رأيته وتحدث إليَّ..

ثم وهي تنظر إلى السقف من جديد:

ـ لا أدري.. ربما لم يكن ملاكاً.. ربما كان البراق.. لا أدري.

ولكنها سرعان ما تعود إليه وهي تقول بمرح ونشوة:

ـ ولكنه قال لي إني لست خاطئة.. لست خاطئة يا صالح.. هل تفهم؟.. من يُلقى به في اليم لا بد أن يبتل.. لا بد أن يبتل.

ثم تقوم بسرعة وتأخذ بالرقص بخفة وهي تضحك بصوت عال وتغني: «متع شبابك في فينا، دي فينا روضة من الجنة»، ثم تتوقف فجأة وتنظر إلى صالح وهي تقول بحدة:

ـ حسيبك للزمن، لا عتاب ولا شجن. تقاسي من الندم، وتعرف الألم. تشكي مش حاسأل عليك، تبكي مش حارحم عنيك. يلي ما رحمتش عنيه، لما كان قلبي في إيديك، دارت الأيام عليك. الزمن حيدوقك في البعد ناري، الزمن هو اللي حيخلص لي تاري. كل غدر وكل ليل سهرتهولي، كل هجر وكل جرح تركتوهلي، كله حترده الليالي، الليالي عليك بدالي.. والزمن. مش

ححسبك، مش حعتبك. لا . . دنا كفاية إني سيبتك للزمن. .

ثم تستدير إلى النافذة، تقف بجوارها، وتنظر إلى البعيد صامتة لوهلة، ثم لا تلبث أن تنفجر وهي تنشد بصوت عال مع عبدالصبور: «الناس في بلادي جارحون كالصقور، غناؤهم كرجفة الشتاء، في ذؤابة الشجر، وضحكهم يئز كاللهيب في الحطب»، ثم لا تلبث أن تأخذ في الدوران حول الغرفة، وقد احتضنت وسادة هذه المرة، وتأخذ بالغناء من جديد: «أنا قلبي دليلي قل لي حتحبي. . »، ثم تتوقف وتلقي بالوسادة على الأرض بقوة، ثم تجلس بجانب صالح وتقول:

- حيرت قلبي معاك، وأنا بداري واخبي. قولي أعمل إيه وياك، ولا اعمل إيه ويا قلبي. بدي أشكي لك من نار حبي، بدي إحكي لك عليّ في قلبي. وأقول لك علي سهرني، وأقول لك عليّ بكاني. وأصور لك ضنى روحي، وعزة نفسي منعاني. . وعزة نفسي منعاني. .

وتأخذ في ترديد المقطع الأخير وهي تغيب مع نفسها، وتغور عيناها وينخفض صوتها، حتى يعتقد صالح أنها في طريقها إلى النوم، ولكنها تقفز فجأة، وقد انحدرت الدموع من عينيها بغزارة وهي تنشد بصوت كهديل حمامة فقدت وليفها: «نح يا حمام الهوى بسجوع، يا من يسومه وانا بيعه»، ثم تأخذ في البكاء وهي تنشج. ثم لا تلبث أن تهب واقفة حيث تنظر إلى الأعلى وقد رفعت ذراعيها عالياً وتردد: «يا هلال. . أيها النبع الذي يمطر ماس، وحشيشاً. . ونعاس»، ثم لا تلبث أن تجلس على طرف السرير، وقد انحسر جلبابها الرقيق عن ساقين انتشر فيهما شعر أسود فاحم، وهي التي كانت حريصة كل الحرص على نزع الشعرة من جذورها حالما يظهر لها طرف بين، وترتل بخشوع ظاهر، وقد رفعت رأسها إلى السماء: «آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تُحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم

الكافرين». ثم تأخذ في البكاء من جديد، ومن ثم تخر نائمة وقد علا شخيرها. ولكنها لا تلبث أن تستيقظ فجأة وقد جحظت عيناها، فتنتصب جالسة وتنشد مع أبي ماضي: «إن الحياة قصيدة أعمارنا أبياتها، والموت فيها القافية. متع لحاظك في النجوم وحسنها، فلسوف تمضي والكواكب باقية». ثم تعود إلى النوم وأنفاسها تتردد بسرعة، ويعلو أنينها، ويهم صالح بتغطيتها، ولكنها تهب ما أن تحس بملمس الشرشف لجسدها شبه العاري، وتهب واقفة وهي تصيح مع الشابي: «ومن لم يعانقه شوق الحياة، تبخر في جوها واندثر»، ثم تعانق صالح وقد غارت عيناها، وانطفأ نور الحياة فيهما، كما متعاطي المخدر، وتنفرج شفتاها عن بسمة تحمل كل الغواية، وكل الرعب معاً، ثم تقول: «سكرت بعينيك منذ الأزل، وها أنا في سكرتي لم أزل»، وتقبل صالحاً بشغف، ثم تنظر إليه وتقول:

ـ أحبك رغم كل شيء. . أحبك رغم الداء والأعداء. . كالنسر فوق القمة الشماء. .

وتضحك باقتضاب، ثم تلقي بنفسها بقوة على السرير وهي تقول:

ـ هل تعلم ما هو الحب يا صالح؟

ولا تعطيه مجالاً للرد، إذ تجيب وهي تضحك:

ـ الحب هو أن لا نحب.

ثم وهي تسرح بعيداً:

ـ فوا عجباً للدهر لم يُخلِ مهجة، من العشق حتى الماء يعشقه الخمر. .

وتعود للضحك من جديد وهي تقول:

ـ هل فهمت شيئاً؟. . ولا أنا. . ما رأيك أن نسأل الياس فرحات؟

ثم تضحك وهي تصفق بيديها، ولكنها لا تلبث أن تبكي بحرارة وهي تنوح مع نورة الحوشان الرشيدية: «يا عين هلي صافي الدمع هليه، واذا انتهى صافيه هاتي سريبه. يا عين شوفي زرع خلك وراعيه، وشوفي معاويده وشوفي قليبه. ان مرني بالدرب ما اقدر احاكيه، مصيبة يا وي والله مصيبة. اللي يبينا عيت النفس تبغيه، واللي نبي عيا البخت لا يجيبه»، فيقترب منها

صالح وهو يحاول أن يهدئ مخاوفها، وأن يحتوي شطحاتها، ولكنها تبعده عنها بقوة، ولا تلبث أن تغرق في نوم عميق، أو هكذا كان يبدو الأمر لصالح. يغطيها ويتجه إلى الخارج وهو يلعن الشعر والشعراء، والكتب والثقافة والمثقفين، وكل ما له علاقة بالحرف والجملة غير المفيدة.

ولام نفسه كثيراً، فهو من كان يجلب لها الكتب منذ أيام الصالحية لعلها تتركه وشأنه تلك الأيام، ولتزجية الوقت، ولكنه لم يكن يعلم أن الشعر والثقافة من الممكن أن يؤديا إلى الجنون. وطافت في ذهنه أيام الزواج الأولى، ولعن أم أكرم في سره والساعة التي عرفوها فيها، فهي التي علمتها فك طلاسم الحروف، كما علم هاروت وماروت «الزهرة» طلاسم الصعود إلى السماء، وكان سعيداً وقتها بذلك، إذ لعلها تنشغل بالقراءة وتتركه في لجة حياته الخاصة التي لا تعرف السكون. بل ولام نفسه في سره، فهو من جلب لها أول ديوان للشعر من أجل أن تعرف كيف تقرأ. إنه يذكر ذلك اليوم تماماً، فقد كان ديواناً مهترئاً لمعروف الرصافي، أو هو لبدوي الجبل أو الأخطل الصغير، لم يعد يذكر. . لا يدري كيف اختاره، ولكنه كان في الحراج واشتراه بربع ريال. كان يعتقد أنه سيلهيها، فإذا هو نافذة على جهنم ذاتها. .

ولم تعد لطيفة تطزز ولا ترق أو تقرص، ولم تعد الأمور كما كان من المفروض أن تكون حسب تخطيطه، ولكن. . هي صفعة القدر كما قالت لطيفة ذات مرة. . وغادر إلى حيث تجمع الأولاد عند باب الغرفة وهم يرون إنساناً لا يعرفونه، ودموع بدرية ومشاعل تبلل الوجنات منهما، فيما كان طارق فاغراً فاه لا يدري ما يجري حوله. فيأمرهم والدهم بالانصراف بإشارة من يده، ويبقى هو واقفاً عند الباب يراقب وهو لا يدري من هو، ولا أين هو، ولا ماذا يفعل!

تبليس إبليس

لقد هدّته لطيفة تماماً، وهي ذاتها التي كانت قد رفعته على كفوف الراحة إلى السماء السابعة، ولم يعد قادراً على فعل أي شيء. فكل تلك السنوات الطوال التي أراحته فيها، هاهي تهده في أيام. لم يعد قادراً على العمل، ولم يعد مطمئناً. إذا ترك البيت، فلا يلبث أن يعود بسرعة، ثم يعود إلى العمل من جديد. إنه اليوم خليط من المشاعر والأحاسيس لا يدري من أين يبدأ أحدها وأين ينتهي الآخر. والأدهى من ذلك كله، أنه ولأول مرة في حياته يحس بالعجز وعدم الحيلة.. ماذا يفعل، وكيف يفعل، وإلى أين يذهب؟.. إنه لا يدري.. لا يدري.

ولاحظ سليمان، شريكه في شركة المقاولات والصيانة، مدى سهومه ووجومه وتشتت عقله في الأيام الأخيرة، فأدرك أن الخطب جسيم، فليس هذا هو صالح الذي يعرف..صالح الذي لا تهدأ له حركة في الأحوال العادية، فكيف اليوم والحرب العراقية الإيرانية على أشدها، والمال يبحث عمن يجنيه، ككروم فرنسا أيام الصيف الحارة. ولم يجد صالح بداً من مصارحة شريكه بما يعاني، وشرح له الحالة التي تمر بها لطيفة، دون أن يتطرق إلى ما كان يسميه «خذاريفها». فسليمان يحمل شهادة جامعية من أميركا، وكان ممن يكتبون في الصحافة بعد عودته إلى البلد قبل أكثر من عقد من السنين، ولكنه تحول إلى الأعمال وجني الأموال بعد أن أدرك باكراً أن القرش أهم من الكلمة، في مجتمع لم يعد يأبه بغير الدرهم والدينار والأصفر الرنان. كان رد فعل سليمان ضحكة مجلجلة اشتهر بها، وهو يقول:

ـ بس كده! . . هادا دلع نسوان يا شيخ . .

ثم وهو يمسح عينه بطرف شماغه:

ـ يبدو أن السوداويين والصفراويين لم يعودوا أقلية في هذا البلد.

ثم وهو يضحك من جديد:

ـ الله يستر. . فربما يأتي ذاك اليوم الذي يتحول فيه كل البلد إلى مصح كبير. . أو مستشفى للمجانين، وتضيع سمعة شهار التليدة. . تصدق بالله.

ونظر إليه صالح باستغراب واستنكار وهو يقول:

ـ لا إلّه إلا الله. .

ـ أنت خامس شخص أعرفه يعاني من مثل هذه الحالة في بيته. . ولا تنسى أنني كنت من الرواد في هذا المجال.

قال ذلك وهو يضحك بحبور صبي صغير، ثم وهو يحاول أن يكون جاداً:

ـ قد لا تكون الحالة بتلك الصورة القاتمة التي تصورها. . يا أخي أتحفها بهدية محترمة، أو سافر بها في شهر عسل جديد، أو حتى اقض معها ليلة رومانسية من اللي قلبها يحبه، وهي تعود قطة تتمسح بك من جديد.

ثم وهو يضحك بمرح:

ـ وإلاّ أقول لك. . أجلب لها ضرة. . تزوج عليها، فلا ريب أن ذلك سوف يربيها، ويجعلها تعود كما كانت وأفضل. . هكذا كان يفعل أجدادنا، ونحن قوم نحرص على التمسك بالعادات والتقاليد. . أليس كذلك؟.

وزفر صالح وهو ينظر إلى سليمان الذي عاد إلى الضحك من جديد، وهو يقول:

ـ يا مصالتك يا أبو وليد. . أحر ما عندي أبرد ما عندك. .

ثم وهو ينظر ساهماً إلى لا شيء:

ـ المسألة أكبر من ذلك. . فعلت كل شيء، ولكن الوضع يزداد سوءاً. . إنها في حالة أسوء من تلك التي عانت منها أم وليد. .

ثم أخبر سليمان بكل تلك التفاصيل التي حدثت، وهو في غاية الارتباك، ولكن لا بد مما ليس منه بد، فقد يرى سليمان رأياً يريحه. ووجم سليمان لبرهة وهو يفكر، ثم قال:

ـ ليس هناك إلا حل واحد إذاً!

قال ذلك وصمت لبرهة، فيما تحول صالح إلى أذن بالكامل، أو إلى صحراء تنتظر قطرة من الماء وهو يستعجل حل سليمان.

ـ الحل يا صديقي هو أن تعرضها على طبيب نفسي، فهو لا شك أدرى بهذه المسائل..

ثم بعد تردد:

ـ ولو أدخلتها مصحاً، لكان أفضل..

وأشاح صالح بوجهه مستسخفاً هذا الرأي وهو يقول:

ـ أهذا هو الحل الموعود يا حكيم عصره وزمانه؟..عز الله ما أردى منك إلا من سألك..ما بقى إلا أن تقول اذهب بها إلى شهار!

ـ وما العيب في ذلك يا صاحبي؟..فليس كل مرض نفسي جنون، وليست كل المصحات النفسية هي شهار..النفس تمرض كما الجسد تماماً، بل ويصيبها العفن..

ثم وهو يضحك باقتضاب، مازجاً الجد بالهزل:

ـ وفي مجتمع كمجتمعنا، سوف تجد أن مرضى النفس أكثر من مرضى الجسد، ولكن البيوت أسرار كما تعلم.

وهدأ صالح قليلاً، وأخذ يفكر جدياً بما قاله سليمان، ثم قال:

ـ ولكن..العيب..العار..الفضيحة!!

وصمت صالح لبرهة وكأنه كان متردداً في قول ما يعتمل في صدره، ثم قذف به:

ـ العيب يا ابن الناس..فلديّ بنات مجوزات، ولا أريد أن تسوء سمعتهن عندما يعلم الناس أن أمهن مجنونة..

وفغر سليمان فاه، وقد تحول إلى علامة تعجب حية:

ـ مجنونة؟ . .وكيف حكمت عليها بالجنون وأنت أدرى الناس بها؟ . .هل من يذهب إلى الطبيب النفسي يكون بالضرورة مجنوناً؟ . .

ـ طبعاً . .فالناس لا تعرف إلا شهار، ومن يذهب إلى شهار، وما يجري في شهار . .

قال صالح بعصبية:

ـ أم أنك لا تعيش في هذا البلد يا مثقف أفندي؟

وزفر سليمان بحرارة وهو يقول:

ـ المشكلة أني أعيش في هذا البلد يا سيدي . .ولذلك أعتقد أن الذهاب إلى طبيب الأمراض النفسية أهم من الذهاب إلى طبيب الأمراض العضوية.

وضحك صالح بسخرية وهو يقول:

ـ هذا هو عيبكم يا أهل أميركا . . أنتم تعيشون هناك رغم أنكم هنا . .

ثم وهو يغتصب ضحكة مقتضبة:

ـ والمشكلة أنكم تأخذون ما يعجبكم هناك، وما يعجبكم هنا، وتتركون ما لا تريدون.

ثم وهو يسعل بعنف ويطفئ سيجارته:

ـ هنا غير وهناك غير . .بل العالم كله كوم، ونحن كوم . .هل فهمت ما أعني؟

ويضحك سليمان وكل جسمه يرتج، كعادته عندما يضحك بعمق، وهو يقول:

ـ ما شاء الله عليك يا ابو خالد . .ما عليك زود . .صرت أنا الآن من يأخذ ما يعجبه هناك ويترك ما لا يعجبه هنا؟!

ثم وهو يحاول أن يستجمع نفسه ويعود إلى وقاره من جديد:

ـ المهم . .قد يكون في كلامك بعض الصحة.

ثم وهو يهز سبابته في وجه صالح ويبتسم:

ـ عاد لا تطلع فيها كعادتك. .قلت بعض الصحة وليس كل الصحة. .

ثم وهو يضحك مجدداً:

ـ كما أن هذا هو عيبكم أيضاً يا من تدعون عدم تأثركم بالغرب. .تأخذون ما يجوز لكم هناك، وما يجوز لكم هنا، ولكنكم أكثر مكراً، وهذا هو الفرق. .كلنا في الهوا سوا يا صاحبي. .

وتنحنح صالح بقوة، ثم بصق في سلة المهملات بجانب المكتب، وقال:

ـ خلك من خرابيطك هالحين. .لنعد إلى العلة التي أنا فيها. . طبيب نفسي؟ مرض نفسي؟ يعني جنون. . خبال يعني. . .

ـ ولكنك تعلم كما أعلم أن ذلك غير صحيح.

ـ نعم. .ولكن ما تعارف عليه الناس صحيح، وإن كان غير صحيح. .وأنا أريد تزويج البنات. .هل فهمت ما أعني؟

ـ نعم. . نعم. . وإن كنت لا أقرك عليه.

ثم وهو ينهض:

ـ أنا قلت ما لديَّ على أية حال، وأنت حر. .ولكني أقول لك مرة أخرى. .لا بد من الذهاب إلى طبيب نفسي.

ثم وهو يغادر:

ـ سوف أكون في مكتبي إن أردت شيئاً. . سلام. . باي.

وغادر سليمان تاركاً صالحاً غارقاً في أفكاره. إنه يعلم أن سليمان على حق، فقد مرت زوجه مها بحالة اكتئاب شبيهة بحال لطيفة في بعض جوانبها، وإن لم تكن بمثل شدتها وأعراضها، وعرضها على أطباء النفس في الداخل والخارج، غير آبه بما يقوله الناس، وهي الآن في حال لا بأس بها. نعم إنها لا زالت تذهب إلى طبيبها النفسي بين فترة وأخرى، وتتعاطى بعض المهدئات، ولكنها تجاوزت أزمتها العاصفة قبل سنوات. بل حتى سليمان نفسه يراجع بعض عيادات الأمراض النفسية في الخارج. ولكنه ليس بشجاعة سليمان، ولا يعتقد أنه قادر على تحمل همسات الناس من حوله مثل سليمان. كما أن سليمان ليس لديه بنات يخشى على مستقبلهن، فلم يرزقه الله إلا ولد

واحد، ثم أُصيبت زوجه بالاكتئاب، وبعدها قرر ألا ينجب غيره رغم رغبة مها في مزيد من الأطفال. كان صالح حائراً بالفعل.. هل يتركها على حالها التي تسوء يوماً عن يوم حتى يفعل الله أمراً كان مفعولاً، أم يعرضها على الأطباء كما يرى سليمان ولا يهمه كلام الناس؟

وبرقت في خاطره فكرة.. لم لا يأخذها إلى قريتهم ويتركها هناك لبعض الوقت عند أهله أو أهلها، فلعل رؤيتها لشقيقتها قماشة وشقيقها محمد، وعودتها إلى مرابع الطفولة تعيد شيئاً من الهدوء إلى نفسها المضطربة، ولن يكون هناك حاجة لطبيب نفسي أو غيره. وارتاحت نفسه لمثل هذه الفكرة، وقرر أن يفاتح فيها خالد وبدرية ومشاعل. ولكن بعد برهة من الراحة لمثل هذا القرار، بدأت وخزات خفيفة في الداخل تنغص عليه هذه الراحة، ولم تلبث هذه الوخزات أن تحولت إلى لسعات وهو يعيد التفكير فيما استقر عليه.. هذه أنانية مطلقة.. هو لا يريد لها الشفاء بقدر ما يسعى إلى التخلص منها بأي طريقة كانت.. كيف يتركها في قرية لم يعد لها فيها أحد حقيقة، بل إن القرية ذاتها ومراتع الطفولة لم تعد موجودة؟ أيتركها عند أخوته هناك، أم عند شقيقتها البائسة، أو شقيقها الذي بالكاد يُشبع أطفاله خبزاً، أم يلقيها وحيدة في منزل والديها الذي بات مهجوراً؟

وضيقت نفسه الخناق عليه، فأحس باحتقار شديد لنفسه، وود لو أنه كان قادراً على البكاء ليبكي ويرتاح، ولكن كيف للرجل أن يبكي؟ هكذا علموه، وهكذا كان دوماً، وهكذا سيبقى أبداً، رغم أن صوتاً خفياً في داخله كان يشجعه على البكاء، وهو له من المكابرين، «فالعود من أول ركزة» كما يقولون. وأبعد الفكرة من رأسه جملة وتفصيلاً، وعادت الحيرة من جديد.. وإحساس بالعجز يستولي عليه.. ماذا يفعل؟.. فالفضيحة تفرض نفسها بقوة، ولن يطول الوقت حتى تعرف الرياض كلها أن زوج الشيخ صالح الأثلة مجنونة، وهو يقف عاجزاً عن فعل أي شيء لتجنبها، لأول مرة في حياته.

وأخيراً قرر أن يعرض الأمر على الأولاد، وهو لذلك من الكارهين، فلم تجر العادة أن يستشير أحداً من أهل بيته في أمور تحتاج إلى قرارات حاسمة،

إذ يبقى الأب هو سيد المنزل المطلق بغير منازع، وهو الذي يعلم ما لا يعلمون. ولكنهم قالوا في أمثالهم: «قال وش حدك على المر، قال اللي أمر منه»، وهو اليوم يجد نفسه مشلولاً تماماً، فربما وجد لدى الأولاد ما يمكن أن يسهم في حل لهذه المصيبة التي لم يتخيل أن تصيبه هو بالذات ولا في كوابيس آخر الليل..

*

فوجئ خالد وبدرية ومشاعل بدعوة والدهم لهم للعشاء في أحد أفخم المطاعم الصينية في الرياض، فقد مرت سنون عديدة منذ أن اجتمعوا مع الوالد على وجبة طعام خارج المنزل. بل وحتى في المنزل كانوا نادراً ما يتناولون الطعام سوياً، فقد كان الوالد إما مسافراً، أو مشغولاً، أو على موعد عشاء أو غداء عمل، أو في أحد سهراته المعهودة.

كان الجميع فرحين بمثل هذه الدعوة، وإن كان فرحاً مشوباً ببعض القلق والحذر، فليست هذه من عادات الوالد. وتأكد للجميع أن هذا القلق لم يكن مبالغاً فيه، فرغم إصرارهم على مرافقة الوالدة وطارق وعروس خالد الجميلة «إيمان» لهم، كي يلتئم شمل العائلة كلها، إلا أن صالح أصر على عدم اصطحابهم، فعلم الجميع أن المسألة ليست مجرد دعوة للعشاء، وأخذوا ينتظرون مساء الخميس بفارغ الصبر، وبالكثير من القلق والتوتر.

وفي مساء الخميس، وفي مطعم «بجعات هونان»، كان صالح وأبناؤه مجتمعين على طاولة قصية أحيطت بالستائر الخشبية من كل جانب بحيث لا يراهم أحد ولا يرون أحداً، وبدأ صالح الحديث دون مقدمات، وكأنه يريد أن يقذف ما في جوفه قبل أن تخونه عزيمته، فقال:

ـ لا شك أنه لم يعد خافياً عليكم حالة أمكم خلال الأشهر الأخيرة، بل خلال السنة الأخيرة، فهي لم تعد تلك التي عرفتها أو عرفتموها قبل ذلك..

وتوقف صالح عن الحديث وهو يرمق أبناءه بنظرة سريعة، حيث كان الجميع منصتين وعيونهم معلقة بوجه الوالد الذي أشعل سيجارة أخذ ينفث دخانها في الهواء، ويرتشف شيئاً من عصير الليمون الممزوج ببعض الجن الذي جلبه معه في زجاجة صغيرة، وكان الامتعاض واضحاً جداً على وجه

خالد وهو يحاول تشتيت دخان والده بكفه، وهو ينظر إلى كأس العصير المغشوش باشمئزاز بيّن، وقد تقلّصت عضلات وجهه كلها. .

ـ حقيقة. . لا أعرف ماذا أفعل.

ثم بعد تردّد لم يدم طويلاً، ورشفة كبيرة من الليمون:

ـ فكّرت في عرضها على طبيب نفسي، ولكنكم تعرفون الناس وكلام الناس، سوف يقولون إن أم خالد قد جُنت، وهذا ما لا أرضاه لكم ولها. .

قال ذلك وهو يجيل النظر بين بدرية ومشاعل، اللتين أدركتا ما يعنيه الوالد، فأغرقتا نفسيهما في عصير الفراولة أمامهما تاركتين المجال للوالد كي يكمل حديثه. .

ـ لم ألجأ إليكم إلا بعد أن أعيتني الحيلة. . فالذهاب إلى طبيب نفسي مشكلة، وتركها هكذا مشكلة، وأنتم اليوم من زمرة الناضجين، وعلى قدر المسؤولية إن شاء الله. . فماذا ترون؟

وأحس صالح أنه قد تخلص من عبء كبير كان يجثم على صدره، فأخذ نفساً عميقاً بعد ذلك المجهود الكبير الذي بذله كي يصرّح للأولاد بعجزه عن تحمل العبء، وهو الذي كان لا يعترف بشيء اسمه العجز، أو شيء اسمه مشاركة أهل بيته في القرارات التي تتصل بالبيت.

وران الصمت على الجميع، وأخذ الأخوة ينظرون إلى بعضهم بعضاً في حيرة، فيما كان الوالد يشعل سيجارة من أخرى وهو يجيل النظر بين أبنائه. ولم يقطع حبال الصمت المتشابكة إلا قدوم النادل الصيني بأطباق الطعام. وفيما كانت الفتاتان ملتهيتين بتقطيع أوصال «بطة بكين»، قال خالد بصوت متحشرج وجاف، كأنه قادم من قعر بئر مهجورة:

ـ أرجو المعذرة يا والدي، ولكني أعتقد أنك السبب فيما أصاب أمي. .

وصمت خالد لبرهة، وأخذ يملس على لحيته المهذبة بتؤدة، فيما توقفت الفتاتان عن تقطيع البطة وأخذتا تنظران إلى أخيهما بأعين مندهشة من مثل هذه الجرأة التي لم تعهداها في خالد الهادي الطبع، ثم تحولان النظر إلى الوالد، فيما كان كأس عصير الليمون يهتز في يد صالح المرتعشة وهو ينظر إلى ولده،

وهو في غاية الاندهاش الممزوج بالكثير من الغضب، وبعضاً من الاتفاق الدفين الذي يحاول أن يجد لنفسه مكاناً وسط هذه المشاعر المتضاربة. ولكنه ضبط نفسه، وتحكم في أعصابه في النهاية، وقال بصوت انتزعه انتزاعاً من داخله، وهو يحاول أن يكون وقوراً وهادئاً كل الهدوء:

ـ وكيف كان ذلك؟. .نورنا يا شيخ خالد؟

ثم أغرق نفسه في كأس العصير وهو يستمع لصوت خالد الرفيع القادم من أعماق بحر لا قرار له وهو يقول:

ـ أرجو أن لا تغضب يا والدي، فالحق لا عيب فيه، كما أن حالة والدتي تحتاج إلى الصراحة كل الصراحة، إذا كنا فعلاً جادين في علاج المشكلة. .

وهدأت أعصاب صالح قليلاً، فيما واصل خالد حديثه:

ـ أمي امرأة تقية، وأسلوبك في الحياة. . .

وشرب جرعة من الماء لترطيب حلقه الجاف وهو يجيل النظر في الحاضرين، ثم وهو منكس الرأس:

ـ أسلوبك في الحياة يجرح كل يقين لديها. .أسلوبك في الحياة. .أسلوبك في الح. . .

وقبل أن يكمل خالد، ثار صالح وقال بغضب:

ـ وماذا ترى في أسلوبي في الحياة؟. .هل ترى أنني فاسق أو مارق من ملة محمد يا شيخ خالد؟. .أم أن تخرجك من الجامعة، واحتلالك وظيفة مرموقة، وزواجك من فتاة لم تكن تحلم بها جعلتك تخرج عن طورك؟. .أنا لا زلت أبوك، وكل ما أنت فيه من خير ونجاح هو بسببي. .أم أنك نسيت. .يا. .يا شيخ خالد؟

وتناول صالح كأس العصير بيد مرتجفة، وأخذ منه جرعة كبيرة، فيما كان خالد يحاول جمع شتات نفسه، وقد أحس بالإهانة تجرحه بعمق من الداخل، ولكنه حاول أن يتماسك وهو يقول بصوت كان واضح الجفاف:

ـ العفو يا والدي. . أنت تبقى دائماً الخير والبركة، وجعلك الله ذخراً

لنا دائماً، ولكن ما أردت قوله هو أنها لا تريد أن تغضبك لأنها زوجة صالحة، فانعكس كل ذلك عليها مرضاً نفسياً وجسدياً..

ثم وهو يتناول كأس الماء بيد مرتعشة:

ـ هذا هو تحليلي لحالتها، وأرجو أن لا أكون قد أغضبتك، ولكن الضرورات تحل المحرمات كما تعلم..

وافترّ فم صالح عن بسمة جانبية وهو يسمع خالد يتحدث عن «تحليله» بمنتهى الثقة، وشعر ببعض الفخر رغم ثورة في داخله كانت تحاول الانفجار. ورغم غضب صالح العارم من هذه الجرأة، بل الوقاحة والصفاقة كما بدت له، والتي لم يعهدها من ابنه من قبل، إلا أن حديثه صادف جرحاً في نفسه، فأحس بألم يجتاحه كله، وكادت عيناه تذرفان دمعة لولا أنه منع نفسه في آخر لحظة، وأحس بالندم على ما تفوّه به تجاه ابنه الذي كان مثال الابن دائماً، ولكنه الشيطان أخزاه الله. وتناول جرعة كبيرة من عصير الليمون الحامض، وأشعل سيجارة أخذ يمتصها بقوة واضحة، فيما غارت عيناه وهما تنظران إلى داخل ضاق حتى أصبح أضيق من سم الأبرة..

ـ هذا ليس صحيحاً..

قالت بدرية بصوت عال وهي تهز يدها، ثم أدركت أنها في مكان عام بالرغم من الستائر المحيطة، فخفضت من صوتها وهي تقول:

ـ هذا ليس صحيحاً. والدي رجل مثالي وزوج مثالي، وهو لم يقصر في واجباته تجاه أسرته، وأسأل الله القدير أن يرزقني بزوج له نصف سجايا والدي..

ثم بعد أن ابتلعت ريقها:

ـ الوالدة منظولة.. نعم منظولة.. أصابتها عين حسود حارة.. عين ما ذكرت الله، ولا صلت على النبي...

وابتسم الجميع من قول بدرية، فيما كان صالح ينظر إليها وهو يحس بحب جارف نحوها، وإحساس بالحب والخيلاء يثملانه. لطالما أحب بدرية رغم شقاوتها، فهو يعلم كم هي متعلقة به منذ الصغر، كما كان هو متعلقاً

بها. وأحست مشاعل بالغيرة من أختها، وتلك النظرات الحانية التي خصها الوالد به، وهي لطالما أحست بالغيرة تجاه شقيقتها، فقالت وهي تضحك ساخرة:

ـ منظولة؟!..ما هذه الخرابيط..نحن في أواخر القرن العشرين، وأيام العلم والمعلومات، وأنت تتعلقين بالخرافات..عين..حسد..بلا كلام فارغ يا شيخة..

ـ كلام فارغ!..بل أنت الفارغة يا من تدعين الثقافة...

قالت بدرية بعصبية:

ـ صديقتي غادة لم تستطع أن تؤدي امتحان الثانوية العامة للمرة الثانية، رغم أنها اجتازت مراحل التعليم كلها بامتياز، فقد سقطت مريضة في أول أيام الامتحان، ولم تشفَ إلا بعد أن انتهى الامتحان، رغم أن الطبيب لم يجد فيها أي علة عضوية!

ثم بعد تردد:

ـ وانظري إليَّ أنا..توقفت عند الثانوية العامة، فقد رغبت نفسي عن مواصلة التعليم بدون وجود علة ظاهرة، ورغم أني من الأذكياء..ماذا تسمين ذلك يا «مدموزيل» مشاعل؟..

ثم جالت بعينيها في وجوه الجميع قبل أن تواصل:

ـ وأم صديقتي عواطف سقطت مريضة لعدة أشهر، وذاب كل اكتناز جسمها، ولم يجد فيها الأطباء أيضاً أي مرض عضوي معروف، ولم تشفَ حتى عرفوا من نظلها، فأسقوها من بقايا شرابه، وهي اليوم أفضل مما كانت..فماذا تسمين ذلك يا ست مشاعل؟..

ـ أسميه جهلاً وتخلفاً يا ست بدرية..لا بد أنها كانت أمراضاً نفسية تلك التي عانى منها من ذكرت، ولو عرفنا القصص التي مر بها هؤلاء، لعرفنا سبب العلة..ولكن الجهل والتخلف يضعها تحت مسمى العين والحسد.

قالت ذلك وهي تنظر بطرف عينها إلى شقيقتها وتبتسم بازدراء واضح، مما أثار بدرية التي انفجرت قائلة:

ـ يعني مجانين؟ . . لا قوليها . . هم مجانين، وأنا مجنونة يعني؟ . .

وضحكت مشاعل وهي تقول:

ـ أما أنت فنعم . . وشهار قليل عليك.

وكادت بدرية أن تنهض من مقعدها وهي في قمة الغضب، لولا وجود الوالد الذي كان يتابع المعركة بحبور أفصحت عنه عيناه، وتلك البسمة الراضية التي احتلت كل مبسمه، ولكنها حاولت ضبط نفسها وهي تنظر إلى شقيقتها وقد زوت عينيها بخبث وهي تقول:

ـ أنت تتهمين القرآن والسنة بالتخلف إذاً؟ . . فالحسد مذكور في القرآن، والرسول، صلى الله عليه وسلم، ذكر العين، وقال ما معناه إنه لو كان هناك شيء يمكن أن يسبق القدر، لكان العين . . ثم تأتين جنابك وتنكرين كل ذلك!

وتحفّزت مشاعل وقد أدركت لعبة شقيقتها الخبيثة وهي تقول، هازة سبابتها بشدة:

ـ يا لك من خبيثة يا أختاه، يا لك من خبيثة . . تصطادين في الماء العكر . . لم أكن أعرف أنك ماكرة إلى هذا الحد . . العين والحسد والجن كلها مذكورة في الكتاب والسنة، ولكننا لا نعرف ما هي بالضبط ولا كيف تحدث . . ثم من قال لك إن الحوادث التي تتحدثين عنها سببها هذه الأشياء؟ . . لا تلعبي بالنار كي لا تحرقك يا أختاه . . ومن حفر لأخيه حفرة وقع فيها في النهاية . . أم أنك تأخذين ما تريدين وتتركين ما تريدين؟!

ثم وهي ترتشف بعضاً من العصير، وقد تحولت شفتاها، الأقرب إلى شفتي أمها، إلى لون الدم، وهي تراقب شقيقتها التي عادت للانزواء في مقعدها، وهي تمتص عصيرها بقوة وسرعة:

ـ دعيني أقص عليك قصة ربما تبين ما أعني، رغم أن رأسك ناشف . . ذكرها عالم نفس اسمه على ما أذكر «ساندرو فرنشي» . . وأنت لا تعرفينه طبعاً.

ونظرت إلى شقيقتها بزاوية عينها، فيما كانت بدرية تكاد تنفجر:

ـ روى هذا العالم قصة عن امرأة جميلة ومتزوجة أصيبت بنوع من الوسواس كاد أن يوصلها إلى الجنون، بل وصل إلى درجة الوسواس الجنوني. كانت تخاف الخروج وحيدة، ومن الأماكن المفتوحة، كما كانت تعاني من رؤوس مدببة تظهر في فروة رأسها، وتتصور أن أذنيها تستطيلان، ومن حكة شنيعة في جسدها، ودقات قلب متسارعة. وعند الفحص تبين أنها لا تعاني في الحقيقة من أي مرض عضوي، رغم أنها تؤكد أن كل ما تعانيه حقيقي وليس مجرد تهيؤات..

كان الجميع يتابع قصة مشاعل بشغف، وقد سيطرت صورة منيرة على ذهن صالح الذي كان يحاول تصنع الهدوء، فيما كانت النار تشتعل في داخله. وأحست مشاعل بأنها قد استرعت انتباه الجميع، فشعرت بالفخر والنشوة وهي تنظر إلى بدرية وتقول:

ـ لو عرضت عليك هذه القضية يا ست بدرية، فماذا كنت تقولين؟..

ولم تعط مشاعل شقيقتها فرصة الرد وهي تقول:

ـ لا ريب أنك ستقولين إنها عين.. أو حسد.. أو جن وعفاريت.. أليس كذلك؟..

ونظرت إلى شقيقتها بسخرية، فيما كانت بدرية في غاية التحفز، باحثة عن جواب داخلها، ولكن مشاعل لا تمنحها الفرصة:

ـ لقد تبين أن عللها العضوية لم تكن إلا تعبيراً عن علل نفسية..

وران الهدوء والتحفز انتظاراً لبقية القصة:

ـ كانت مدرّستها تصفها بالحمارة في طفولتها، وأحرجتها أمام زميلاتها حين اكتشفت القمل في رأسها، وكان ذلك سبب إحساسها بطول إذنيها وكل تلك البثور في رأسها. .ولكن الأعمق كان أكبر..

وانشدّت الوجوه باتجاه مشاعل:

ـ طفلتها الكبرى كانت مشلولة، وكانت في أعماقها تتمنى موتها، ولكنها كانت تكبت هذه الرغبة عن طريق العناية الزائدة بهذه الطفلة، وتفضيلها على طفلتها الثانية السليمة. ومن ناحية أخرى، فإن تجنيد زوجها في

الحرب، وعملها مكانه بالإضافة إلى عنايتها بطفلتها المشلولة، جعلها في غاية الإرهاق، ولكنها يجب أن تعمل كل ذلك، ومن هنا كانت الأمراض العضوية مجرد آليات نفسية لتبرير عدم قدرتها على العمل ومجابهة كل هذه المسؤوليات..

وظن الجميع أن القصة قد انتهت، وتهيأت بدرية للحديث، غير أن مشاعل واصلت:

ـ كما اكتشف المحلل النفسي رغبة تلك المريضة في الحصول على طفل ذكر، وهي التي كان لديها طفلتان بدون عضو ذكري..

قالت مشاعل ذلك وهي تنظر لأبيها بخجل، وقد أحمر وجهها، وواصلت:

ـ وقد استشف المحلل ذلك من ترديدها أثناء العلاج قول «أنا فلانة.. وأنا لدي..»، ومن تحليل أحلامها، وقصص كانت غائبة في لاوعيها منذ الصغر، حتى حفر عنها المحلل..المهم..كانت تشعر بنقص نتيجة عدم امتلاكها ذاك العضو، ولذلك كانت تحاول الحصول على طفل ذكر، ومن هنا كان نفورها من زوجها الذي لم يمنحها ذاك الطفل، والشعور بالشهوة ازاء أولئك الشباب الأقوياء لاعتقادها أنهم قادرون على منحها الطفل، وهذا ما يفسر وجيب قلبها ودقاته المتسارعة..

وبعد أن أنهت مشاعل قصتها، نظرت إلى بدرية التي كانت تشتعل غيظاً وغيرة وهي تقول:

ـ هل بإمكانك أن تفهمي ما أقصد يا أختاه؟..

وانفجرت بدرية غيظاً وهي تقول:

ـ أنا أحدثك عن القرآن والسنة، وأنت تحدثينني عن الغرب ومهازل الغرب..عن فرويد وصحبه من الشاذين..لنا خصوصيتنا يا سيدة غرب..

ـ يا سلام!..وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا أنت مولعة كل هذا الولع بمايكل جاكسون وآل جاكسون، ومادونا وفرقة «أبا» وال«بي. جيز»، وبيتر فرامتون وجون ترافولتا وحمى ليلة السبت وغريس وروايات الجيب الرومانسية المترجمة، وكل تلك الأفلام الأميركية التي لا تملين مشاهدتها؟..ثم انظري إلى

نفسك وماذا ترتدين؟. .ليست «كرتة» أمك تلك الأيام، ولا «مقطع» جدتك في القرية. .يكفي نفاقاً. .يكفي التفافاً على ما هو واضح وضوح الشمس!.

وتوترت بدرية، وقد ارتعشت كل أطرافها، وأرادت أن تقول شيئاً، إلا أن الوالد سبقهن وهو يقول ضاحكاً:

ـ على رسلكن يا بنات، على رسلكن.

قال صالح وهو يحاول فك الاشتباك بين ابنتيه، وهو يضحك من أعماق قلبه منذ فترة طويلة، ويقول:

ـ لم أكن أعرف أنك تقرئين كل هذا القدر يا مشاعل. .

ثم ينظر إلى بدرية ويقول:

ـ ولم أكن أعلم أنك تسمعين كل هذا القدر من الأغاني الهابطة يا بدرية. .

ثم وهو يكتم ضحكته ويتصنع الغضب، وإن لم ينجح في ذلك، موجهاً حديثه إلى مشاعل:

ـ ولكن. . نعم يا بنيتي، لنا خصوصيتنا كما قالت شقيقتك، وفرويد ليس منا ولسنا منه. .بالإضافة إلى أن ما تقرأينه هذا فيه الكثير مما يخالف قيمنا وعاداتنا وتقاليدنا، بل ديننا. .

وبانت النشوة على وجه بدرية وهي تقول:

ـ وفرويد هذا يهودي أيضاً يا أبي. .

لم يكن صالح يعرف من هو فرويد، ولكنه تصنع المعرفة وهو يقول:

ـ نعم. .ففرويد وفكر الغرب مناقض لقيمنا وتقاليدنا كلها. .

وضحكت مشاعل في داخلها، وهي تنظر إلى الكأس في يد والدها، وكل تلك اللوحات والتماثيل في منزلهم تحتل ذهنها، ولكنها ركنت إلى الصمت، وحاولت أن تكون في غاية التهذيب وهي تقول، وقد نظرت إلى شقيقتها بطرف عينها:

ـ وماذا بشأن جاكسون ومادونا ورفاقهما يا والدي؟

ولكن صالح حسم الأمر، وكان الحرج واضحاً في عينيه، رغم أنه قال بحزم:

ـ على أية حال، نحن نبحث عن حل لمشكلة والدتكن، وأنتن تحاولان تصفية حسابات قديمة..

وضحك من قلبه، وهو يقول:

ـ لا ريب أنكما من صلبي.. ولكن من يدري؟!

وران الصمت على الجميع عندما عادت «سيرة» الوالدة، وتبادلت الشقيقتان نظرة أسى، فيما كان خالد يراقب الموقف ببرود وهو يتناول شيئاً من الأرز المقلي بآلية ودون رغبة..

ـ أرى أنه لا بد من عرضها على طبيب نفسي.

قالت مشاعل..

ـ أرى عرضها على معالج بالرقية الشرعية.. أو حتى غير الشرعية.. فما زلت أصر على أن الوالدة منظولة.. بل وربما كانت مسحورة!

قالت بدرية وهي تنظر إلى مشاعل بطرف عينها..

ـ أرى أن الله فعّال لما يريد.. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.. وإذا أحب الله عبداً ابتلاه، والأجر على قدر الصبر..

قال خالد وقد أخرج نفسه من المسألة كلها، فيما كان صالح يفكر وهو يلوك قطعة من اللحم بآلية ودون رغبة، ويلقي في جوفه آخر قطرة من زجاجة الجن، فيما أشغل الجميع أنفسهم بمحاولة التقاط حبات الأرز بتلك الأعواد الخشبية المصقولة.

الروح والحلقوم

لاقى اقتراح بدرية بعرض الوالدة على معالج بالرقية الشرعية استحساناً كبيراً لدى صالح عندما قلب الأمر على وجوهه. فقد أصبح الجميع يذهبون هذه الأيام إلى المعالجين بالرقية طلباً للشفاء من كل أنواع الأمراض، العضوي منها والنفسي. ولذلك فإنه لن يكون من المستغرب أن يعلم الأقارب والمعارف بذهاب لطيفة إلى معالج بالرقية، بل إن ذلك قد يكون مستحباً.

وكانت شهرة الشيخ «نايف الصقعا» قد عمت البلد كله، ووصلت شهرته في علاج الأمراض المستعصية إلى دول الخليج المجاورة، فكان كثيرون يشدون إليه الرحال حيث يقيم في هجرة «أم العصاعص»، في منتصف المسافة تقريباً بين اليمامة والحجاز، وفي أعماق صحراء يحيطها الأفق من كل جانب.

- هل تعاني زوجك من قشعريرة في الجسد؟

- كلا.. حسب ما أعلم.

- هل ترتعش عينها كثيراً؟.. أعني أكثر من المعتاد.

- كلا.. أحياناً.. نادراً..

- هل تصرخ عندما تأتيها الحالة؟

- كلا.

هل عيناها محمرتان دائماً؟

- كلا.

- هل يتصلّب جسدها أو تتيبس أعضاؤها عندما تأتيها الحالة؟

ـ كلا.

ـ هل تبكي كثيراً، وتحاول الهرب من المنزل؟

ـ تبكي، نعم، ولكنها لا تحاول الهرب.

ـ هل تستفرغ، ويكون استفراغها مصحوباً بسواد أو صفار كصفار البيض؟

ـ كلا.

ـ هل حدث أنها تكلمت بصوت غير صوتها؟

ـ كلا.

ـ إذاً أبشرك يا أخ صالح فإن زوجك غير مسحورة والحمد لله، كما أنه لا يتلبسها أي جني.

قال الشيخ نايف الصقعا مستبشراً:

ـ مهمتنا الآن أن نعرف ما إذا كانت مصابة بعين، ونوع الإصابة.. فهل تعاني زوجك من صداع مزمن لا علاج له؟

ـ كلا.. الصداع المعتاد.

ـ هل تعاني من حالات ضيق واكتئاب واختناق؟

ـ أحياناً.

ـ الآم في الجسم أو بعض الأعضاء؟

ـ نعم.

ـ خمول وكسل شديد؟

ـ نعم.

ـ تنميل في الجسد أو بعض الأعضاء دون وجود مرض عضوي؟

ـ ليس فيما أعلم.

ـ البكاء والضحك دون سبب واضح؟

ـ نعم.

ـ حالات أرق شديدة؟

ـ أحياناً . .

ـ أحياناً أم دائماً . .أريد جواباً واضحاً يا أخ صالح، حتى أستطيع مساعدة زوجك على الشفاء إن شاء الله .

ـ أكثر الأحيان.

ـ كوابيس وأحلام مزعجة، ورؤية كلاب وقطط وأموات ودم والسير في مقابر والسقوط من أماكن مرتفعة، ونحو ذلك؟

ـ أعتقد ذلك . .نعم.

ـ هل تتنهد دائماً كثيراً، وبسبب وبلا سبب؟

ـ نعم . . نعم.

هل تتثاءب عندما تصلي أو تقرأ القرآن؟

ـ نعم.

ـ هل هناك بقع صغيرة تظهر على الجلد؟

ـ نعم.

ـ هل تعاني من اصفرار في الوجه لم تكن تعاني منه سابقاً؟

ـ نعم.

ـ الحمد لله على كل حال . .

قال الشيخ وهو يزفر بقوة:

ـ زوجك مصابة بعين غير مقرونة بجن يا أخ صالح، وأبشرك بأن علاجها يسير إن شاء الله.

ثم وهو يزفر من جديد:

ـ قاتل الله الحسد والحساد، ووقانا الله من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد.

ثم طلب من صالح أن يُدخل زوجه إلى غرفة العلاج. وما هي إلا برهة، ودخلت لطيفة مستندة على كتف ابنتها بدرية، وعباءتها تكاد تسقط عن

رأسها، وقد بان نصف جبينها الذي انحسر عنه حجابها، فيما كان صالح يقف غير بعيد عن الباب، وكأنه متردد بين الدخول وبين الانصراف. أمرها الشيخ بالجلوس في زاوية معينة من الغرفة، وطلب من بدرية أن تُصلح من حال أمها، وأمر الجميع بالصمت المطلق، ثم وضع يده على رأسها وأخذ يقرأ بصوت عال: «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم. ولا الضالين».

ثم يتوقف للحظات ينفث خلالها على المرأة المنكمشة أمامه، ثم يعود للقراءة: «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.. آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين..».

ويتوقف من جديد، ويجوس بيده على رأس لطيفة وشفتاه الغليظتان تتلفظان بكلمات غير مسموعة، ثم يعود للقراءة بصوت عال: «قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد... قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس... هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق الباري المصور له الأسماء الحسنى يُسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز

الحكيم.. بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك.. بسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، ومن شر كل ذي عين..».

واستمر الشيخ في القراءة على لطيفة التي تكومت أمامه في عباءتها السوداء، وتقوقعت على نفسها وهي منكسة رأسها إلى الأرض، ثم يتناول قدحاً من الماء، ويأخذ منه قطرات يرشقها على وجهها، وما اتفق من جسدها، ثم يعود لوضع كفه على رأسها ومواصلة القراءة. واستمرت العملية لأكثر من ساعة، كانت لطيفة خلالها ساكنة لا تبدي أية حركة. حتى إذا انتهى الشيخ، عاد إلى صالح وقد تساقط العرق من على جبينه بغزارة، وهو يقول:

ـ حمداً لله إن حالتها ليست بذاك السوء، وعلاجها يسير بإذن واحد أحد، عليّ قدير...

ثم وهو يمسح عرقه بطرف شماغه:

ـ عليها أن تتوضأ بعد قضاء الحاجة مباشرة، وعليكم أن تدهنوا جسمها بزيت الزيتون، وخاصة قبل النوم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه طيب، من شجرة مباركة»، ويستحسن أن يكون العسل جزءاً دائماً من إفطارها، وعليها أن تقرأ دائماً سورة يس، والصافات، والجن، والرحمن، كما أن عليها الإكثار من الاستغفار وقول «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» مائة مرة في اليوم، وشرب ماء زمزم بنية الشفاء إن شاء الله، فماء زمزم لما شُرب له، وعليكم كتمان أمر هذا العلاج عن أي أحد ممن ترتابون في أمره، حتى لا يعاود شره وينقض العلاج..

ثم غادر الشيخ لبرهة، وعاد وهو يحمل زجاجة فيها ماء دفعها إلى صالح وهو يقول:

ـ هذا ماء مقروء عليه، عليها أن تفك ريقها على جرعة منه، ويكون هو آخر شرابها قبل النوم. ويا حبذا لو أنكم دققتم سبع ورقات من سدر أخضر، ثم تصبون عليها الماء بما يكفي للاغتسال، وتقرأون عليه آية الكرسي،

والآيات من ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف، ومن الآية ٧٩ - ٨٢ من سورة يونس، ومن ٦٥ - ٧٠ من سورة طه، وسورة الكافرون...

ثم وهو ينظر إلى بدرية التي انكمشت هي الأخرى بجانب أمها، وقد فاحت منها رائحة عطر رقيق يكاد لا يُشم:

- ويا ليتكم تلتزمون بالأخلاق الإسلامية السليمة، فلا تسمعون الغناء أو تشاهدون أفلام التلفاز، وأن تتخلصوا من الصور والتماثيل والحيوانات النجسة التي قد تكون في المنزل، فوجودها مدعاة لوجود الجن وابتعاد الملائكة، وربما يبطل كل عمل نقوم به لدرء العين وشرورها.

ثم وهو ينهي المقابلة:

- وعليكم أن تعودوا إليَّ بعد شهر من اليوم، وإن شاء العليم سوف تكون بأحسن حال إذا نفذتم ما أوصيتكم به..

ثم دس صالح في يد الشيخ عشرة أوراق من فئة الخمسمائة ريال، واتجه إلى حيث زوجه وابنته، وغادر الجميع، فيما كان الشيخ يودعهم ويتمنى لهم السلامة في طريق العودة وفي كل حين، وهو يتحسس تلك الأوراق الزرقاء الملساء في يده، ويراقب «الفان» البيضاء وهي تثير الغبار من حولها حتى ابتلعتها الصحراء، ويمرر بيده الأخرى على لحيته الطويلة المُحناة، والمهذبة بعناية، وهو ينظر إلى الأفق البعيد، حيث تتلاقى زرقة السماء بصفرة الصحراء.

*

وبالفعل تحسن حال لطيفة إلى حد كبير بعد زيارة الشيخ نايف الصقعا، وأخذت تعود لبعض حالها، وقد أحاطها الجميع بعنايته، وإن كان شحوب كشحوب المومياء لا يزال يحتل وجهها، وقد غارت عيناها، وجفت شفتاها، وتحول لونهما الوردي إلى بني فاتح يعلوه بياض شاحب. وبالإضافة إلى محاولة الجميع، وخاصة صالح وخالد وبدرية، الالتزام بنصائح ووصفات الشيخ قدر الإمكان، إلا أن بدرية كانت تقوم بجهد واجتهاد مستقل.

فبعد زيارة أي ضيف لهم، وخاصة من النساء، كانت تجمع بنفسها كؤوس الشراب وفناجين الشاي والقهوة، وتجمع الباقي من الشراب فيها في

زجاجة، وتسقي أمها منه كل يوم، فقد قيل لها إن هذه هي الطريقة الوحيدة لإبطال أثر العين، إذ ربما من أصاب أمها بالعين كان واحدة أو واحداً من معارفهم أو جيرانهم أو أقربائهم. لم تكن ملزمة أن تسقي أمها كل يوم من ذاك الشراب، وكانت مرة واحدة تكفي حسب ما قيل لها، ولكنها أرادت أن تتأكد من إبطال العين بشكل جذري، فكانت تسقيها منه كل صباح على الريق.

وزيادة في الحيطة، كانت تجمع نوى التمر بعد كل زيارة يقوم بها الرجال أو النساء، وتنقع كل ذلك في الماء، وتسقي أمها منه. كما نظفت البيت تماماً من التحف والتماثيل واللوحات والصور، وجعلوها كلها في شقة فارغة في إحدى عمارات والدها، كي تكون بعيدة عن البيت بشكل كامل. وأخبرتها إحدى صاحباتها المقربات أن أفضل طريقة لفك أثر العين والسحر هي في أن يذهب المسحور إلى شاطئ البحر لحظة الغسق، والشمس تغرق في الأفق الغربي من البحر، ويجلس بكامل ملابسه في ماء البحر المالح، ويأخذ في قراءة المعوذات والكرسي وسورة الجن والصافات وياسين والطارق حتى تختفي الشمس تماماً، ويحل الظلام، وعندها ينفك كل معقود مهما كان صعباً.

واستولت الفكرة على كل كيانها، فأخذت تحاول إقناع والدها بقضاء إجازة عيد الأضحى القريبة في جدة أو الدمام. كان صالح يفكر بالذهاب إلى نيس أو كان في هذه الإجازة القصيرة، ولكن بدرية أقنعته بالبقاء في البلد من أجل الأضحية. لم تكن الأضحية هي التي تشغل بال بدرية، بقدر ما كانت أمها وحالها الذي لا يسر عدواً ولا حبيباً. نعم، فهنالك بحر في نيس وكان، ولكن بحر المسلمين أفضل لا شك في ذلك. ورضخ الجميع لإرادتها، وخاصة بعد مساندة خالد، وذهب الجميع إلى الشاليه الذي لم يطرقه أحد من سنين في جدة، رغم امتعاض مشاعل من «خرابيط» بدرية، كما كانت تسميها. وهناك، غطست أمها في مَياه شاطئ البحر عدة مرات. أما بالنسبة للطيفة، فقد كانت كآلة، بل كلعبة، لا تدري من يحركها ولا إلى أين يحركونها، فقد تركت نفسها لأيدي الجميع تحركها متى تشاء، وأنى تشاء، وإن كانت لحظات قليلة من الصحو تنتابها، ولكنها كانت تمر سريعاً كسحابة صيف عجلة.

*

وعند العودة من جدة، أخذت بدرية تبحث في أرجاء البيت عن أثر لسحر قد يكون هو السبب في حالة والدتها، وأصبحت أكثر قسوة مع الخدم، وهي التي كانت ودودة معهم لدرجة أن والدتها حذرتها ذات يوم من رفع الكلفة تماماً معهن. فقد سمعت من بعض صديقاتها عن قصص لبيوت دمرها السحر والمربوط والمعقود والمنفوث، وكانت الخادمات ذوات دور كبير في هذه المسألة.

وذات يوم جاءت بدرية وهي تصرخ هلعاً، وإحساس بالنصر يحتويها في آن واحد. فقد وجدت في غرفة السائق «عبدالحق» وسادة قديمة، وكان بداخلها حجاب مطوي بعناية. فتحوا الحجاب، فإذا هو يحتوي على ورقة مهترئة كتب عليها بحبر أسود غامق، وريشة طاووس:

استفتحت باسم الله واستعنت بالله وتوكلت على الله أدعوكم معاشر الأرواح الروحانية دعوة مسرعة بحق الاسم المخزون هاف أزرين يمليخا ربي عز وجل فرد جبار صمد حي قادر مقتدر عدل أصبحت أقول الحق ورسوله دوسم لجيم أصبحت أقول الحق ورسوله بشقطهولج ٢ شقطهولج ٢ هلهلج ٢ هلجلج ٢ أهلج ٢ مهولج ٢ أدهلج ٢ مدهلج ٢ يو هلج ٢ شلجلج ٢ يتلجلج منه نور بهي ساطع أضاء فسطع وسطع فلمع ولمع فأبرق وأبرق فأحرق كل شيطان مريد وجبار عنيد. يا معشر الجن والشياطين اصعقوا بهذا العارض المعتدي وأحرقوه في هذه الجثة بنار الله الموقدة حتى يصير رمادا أجبني يا جبرائيل واصعقه يا مهقيائيل وادهشه يا دهشيائيل وازجره يا درديائيل واحرقه يا طلهكفيائيل واطبق عليه السموات والأرض بشيكة هيكة كهيطة هيداشر نوخ مرنوخ شروخ يرشوخ أخذتك أيها الروح السوء (وأخذتكم ابنها الأعوان الموكلين) أخذه هكش مهكوش وأطبقت عليك الأرض والسماوات بشهاب شهوب بشمائل شمول فمالك من أسماء الله ملجأ ولا منجا ولا ملتجأ انزلوا أيتها الملوك بحق الهيطلوش الأعظم أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون أخذك الله أخذ عزيز مقتدر إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع هون هون وبأهيا شراهيا أدو ناي أصباؤت آل شداي وبحق من تجلى للجبل فجعله دكا وخر موسى صعقا أجيبوا أيتها الملوك وافعلوا ما تؤمرون به بقدرة من يقول للشيء كن فيكون

الوحا ٢ العجل ٢ الساعة ٢ بارك الله فيكم وعليكم..

وعلى الجانب الآخر من الورقة، كان هناك رسم على شكل مثلث يتوسط دائرة كبيرة، وفي داخل المثلث كان هناك مثلث آخر مقلوب، وفي داخله حروف وأرقام وجمل ورسومات غريبة ومخيفة بعثت الرعب في قلوبهم. فغر الجميع أفواههم وهم يقرأون هذه الكلمات، التي كانت دعوات لجن بعشائرهم، وشياطين بصفاتهم، وعفاريت بأسمائهم.

استدعى صالح السائق، وبين له ما اكتشفوه في غرفته، فأنكر السائق أن يكون له علاقة بالأمر، ولكن صالحاً هدده بإحالته إلى الشرطة أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإعدام هو نهايته في هذه الحالة، خاصة وأن حكاية الساحر الذي أُعدم مؤخراً لا تزال ماثلة في الأذهان. انهار السائق، واعترف بأن الحجاب له فعلاً، ولكنه لا يقصد من ورائه أي أذى. فالحجاب معمول من أجل أن يحفظه سالماً معافى حتى يعود إلى أهله ليس إلا. كان صالح يشعر في أعماقه بأن السائق صادق فيما يقول، وهو يعلم بأن للآخرين عادات وتقاليد وطقوس ليس بالضرورة أن تكون متفقة مع عاداتهم وتقاليدهم وفهمهم لما يجب أن يكون عليه التدين الصحيح الخالي من الشوائب. ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل المسألة في ظل الظروف الراهنة، كما أن خالداً وبدرية لن يسمحا بوجوده في المنزل بعد تلك الحادثة، وهما يجزمان بأن له يداً فيما يجري لأمهما، خاصة وأنه هو سائقها الخاص.

وبالفعل أصرت بدرية على إبلاغ الشرطة، فيما كان من رأي مشاعل تجاهل الأمر، فكل هذه خزعبلات لا أساس لها من الصحة. فإذا كان السائق معذوراً في جهله، فأي عذر لهم وهم من الواعين..أو يفترض أن يكونوا كذلك..كما علقت مشاعل وهي ترمق شقيقتها بطرف عينها، غير عابئة بتلك الثورة التي كانت تعتمل في صدر بدرية، وتوشك أن تنفجر، لولا الظرف الذي هم فيه. أما خالد، فقد كان يرى أن يُنهى عقد السائق ويُسفر إلى بلده بأسرع وقت ممكن دون أذية. ولكن قبل ذلك، يجب العودة بأمه إلى الشيخ نايف، فقد أصبح في حكم اليقين الآن أن ما تعانيه أمه هو نتيجة سحر مقصود، وطلسم مرصود، وليس مجرد عين وحسد.. قال ذلك وهو يؤكد أن

هذه هي نتيجة الاعتماد على الخدم في كافة شؤون حياتهم، وهم الذين لم يعرفونهم قبل الطفرة «لا بارك الله فيها»، كما أصبح يردد كثيراً في الآونة الأخير، «فقد جلبت النعيم معها، ولكن الجحيم كان متعلقاً بإهابها. . حسبنا الله ونعم الوكيل. . حسبنا الله ونعم الوكيل».

وأخذ صالح يفكر. . حيرة تلو الحيرة هذه الأيام. . إنه لا يريد الفضيحة، ولا يريد أن تصل المسألة إلى الآخرين، وإلا انكشف سر زوجه وجنونها، كما أنه لا يريد أذية هذا المسكين. فإذا سلمه إلى الشرطة أو الهيئة، كان هناك سين وجيم هو في غنى عنهما. وإن هو تجاهل الأمر، فربما كان ما يحدث له ولعائلته مؤخراً نتيجة هذا السحر، وهو لا يدري إن كان لدى السائق طلاسم أخرى. وقر قراره على أن يسفر السائق بأسرع وقت ممكن، بعد أن يقرروه عن احتمال وجود طلاسم أخرى في البيت، غير عابئ باحتجاج خالد بضرورة الذهاب إلى الشيخ نايف قبل تسفيره، ولا بغضب بدرية التي كانت مصرة على تسليمه للسلطات، كي يكون عبرة لمن يعتبر.

الدوامة

وانتكس حال لطيفة إلى أسوء مما كان عليه، بعد أن استبشر الجميع خيراً بعلامات الشفاء التي أخذت تظهر عليها بعد زيارة الشيخ نايف. وعاد بها صالح إلى الشيخ من جديد عدة مرات، فأكد أن ما تعاني منه لطيفة سحر وحالة تلبس جني بإنسان وليس مجرد عين وحسد، كما اعتقد في المرة السابقة، وخاصة بعد أن أخبروه بحكاية السائق. وعزا الشيخ الخطأ الذي وقع فيه إلى أن صالحاً لم يكن صريحاً معه كل الصراحة في المرة الأولى، ولم يشرح له بالتفصيل حالة لطيفة، ولا تلك العلامات التي من الممكن الاستدلال بها على نوعية الحالة، وإلا كان أخبرهم من البداية أنهم أمام حالة سحر، وربما نبههم باكراً إلى ما يمكن أن يكشف ما فعله السائق. ولام الشيخ صالحاً لتسفيره السائق بهذه السرعة، فقد كان من الواجب تسليمه للسلطات ليكون عبرة لمن اعتبر، وتخليص الناس من شروره، فربما عاد إلى بلاد المسلمين وآذاهم. كما نبههم الشيخ بأخذ الحذر من الخدم والسائقين، وهو يحوقل لما آلت إليه الأمور من اعتماد مطلق على الخدم في كافة الشؤون، وسط استغراب صالح الذي كان ينظر إلى مُساعد الشيخ الأفريقي السحنة، وكله حيرة ودهشة.

وحاول الشيخ هذه المرة إبطال السحر وإخراج الجني من أعماق لطيفة، وفي كل مرة كان يؤكد أنه خرج منها إلى الأبد، حتى أنه في آخر مرة أخاف صالح فعلاً. فقد أخذ الشيخ يضرب لطيفة بخيزرانة دقيقة، وهو يقرأ القرآن بصوت عال، ثم يصرخ آمراً الجني بالخروج من جرح صغير أحدثه بوخزة إبرة

في إبهام رجلها اليسرى، فيما كانت لطيفة تتنفس بصعوبة وتنظر إلى ما حولها بعينين زائغتين، وقد تناثر لعابها حول فمها، وأنينها لا يفتأ يرتفع وتزداد حدته، فيما كان الشيخ يؤكد أن هذه علامات خروج الجني من جسدها، الذي أكد أنه جني وثني من أتباع إبليس اللعين، وما هي إلا فترة بسيطة وتعود لطيفة إلى أفضل مما كانت عليه بعد أن تطهر جسدها من السحر والجن ونسل إبليس لعنه الله.

ولكن حال لطيفة كان يزداد سوءاً بعد كل زيارة، وخاصة بعد المرة الأخيرة. فبعد تلك الزيارة، طالت فترات «تخشبها»، وأصبحت تقضي معظم الوقت في حالة تكوم على بعضها كما الجنين في بطن أمه، وتنظر إلى ما حولها بعينين مفتوحتين معظم الوقت، ولكنهما لا تريان شيئاً. كما أنها توقفت عن تناول الطعام والشراب بشكل كامل، لولا بدرية التي كانت تدفعه دفعاً في فمها، وتحول جسدها المكتنز إلى مجرد هيكل عظمي يكسوه جلد متغضن فقد حيويته وبريقه. والحقيقة أنه لم يبق في لطيفة من شكلها الماضي إلا عيناها اللتان غارتا، ولكنهما لم تفقدا اتساعهما المميز، ولا تلك الأهداب الطويلة التي كانت مثار حسد كل من كان يعرفها. وعندما وصلت الأمور إلى هذه المرحلة، لم يجد صالح محيصاً من الذهاب إلى عيادة أمراض نفسية، وهو لذلك من الكارهين.

ـ هل تعاني المدام من قشعريرة؟

ـ نعم.

ـ هل تصيبها رعشة عين باستمرار؟

ـ نعم.

ـ احمرار في العين، تصلب في الأعضاء، استفراغ، وصداع؟

ـ أحياناً..

ـ آلام في الجسد أو بعضه، تنمل في الأطراف؟

ـ نعم.

هل تبكي أو تضحك بدون سبب؟

ـ أحياناً.

ـ هل تعاني من الخمول والكسل طوال الوقت؟

ـ نعم.

ـ هل تعاني من الأرق، وعندما تنام تعاني من كوابيس مفزعة؟

ـ نعم.

ـ هل تتنهد، أو تزفر بسأم كثيراً؟

ـ نعم.

ـ هل ترى أو تسمع أشياءً لا ترونها ولا تسمعونها؟

ـ أحياناً.

ـ هل تشكو من آلام في المعدة؟

ـ نعم.. كثيراً.

ـ تستفرغ كثيراً؟

ـ ليس فيما أعلم..

ـ هل تؤذي نفسها عندما تأتيها الحالة؟

ـ لا..

ـ هل تؤذي الآخرين؟ أنتم مثلاً..

ـ نفسياً، نعم.

ـ أقصد جسدياً..

ـ كلا.

ـ وأخيراً. .هل تصيبها حالات ذهول، فتبقى صامتة وساكنة كلوح خشبي أو ثلجي، أرجو المعذرة، أو شيء من هذا القبيل؟

وحاول صالح أن يتذكر، فلم يتذكر شيئاً. ثم فجأة تذكر ليلة أن دخل عليها غرفة النوم، وكانت متكومة على نفسها تكوم الجنين في بطن أمه، أو

انكماش القنفذ على نفسه حين الإحساس بالخطر. . كلا لم تكن نائمة. . فقد كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما، ولكنها كانت لا تقول شيئاً بالرغم من محاولته الحديث معها، وكان واضحاً أنها لم تكن هناك، رغم أنها هناك. وبعد أن انتهت الحالة، لم يعد يكترث بها، فنسي الأمر برمته، أو هو تناساه، وهاهو يذكر اليوم كل شيء، وهل نسي شيئاً من الأساس؟. هل أصابتها مثل هذه الحالة كثيراً ولم يرها، أم أنها كانت الوحيدة؟. . لم يكن يكترث كثيراً. . ولا يزال لا يكترث، فهو يريد أن تنتهي المسألة بأسرع ما يمكن، فسمعته في الميزان. . ولكنه فعلاً لا يدري.

ـ نعم، مرة واحدة. . على ما أذكر.

ـ منذ متى لاحظتم مثل هذه الأعراض؟

ـ لا أدري بالضبط. . سنة تقريباً. . أكثر بقليل ربما. . أو أقل بقليل.

ـ وهل تلازمها الأعراض دائماً، أم أنها تذهب وتعود؟

ـ كانت تأتيها عرضاً، ولكنها في الآونة الأخيرة أصبحت شبه دائمة. .

ـ من الواضح أن المدام تعاني من حالة اكتئاب حاد لست قادراً على تحديد ما إذا كان اكتئاباً عصابياً، أو أنه اكتئاباً ذهانياً، أدى إلى انهيار عصبي كامل يا أستاذ صالح. . وربما كانت حالة شيزوفرانيا غير محددة Unspecified Schizophrenia لا أدري بالضبط. .

قال الدكتور كلمته الأخيرة بالإنجليزية، وقد عوج لسانه بعض الشيء على طريقة الأميركان، لدرجة دفعت صالح للابتسام بالرغم منه، ولكنه وأد الابتسامة وتصنع وقاراً صارماً وهو يستمع إلى كلام الدكتور:

ـ وربما أن ما تعاني منه المدام هو قلق رهابي Phobic Anxiety Disorder، أو ربما كان اضطراب وسواس قهري Obsessive Compulsive Disorder وكل أمراضها الجسدية التي ذكرتها ليست إلا نتيجة ما تعانيه في نفسها أو في عقلها. .

ثم وهو يرفع حاجبيه، ويغمض عينيه:

ـ لا أدري. . الحقيقة أننا لا نستطيع أن نجزم بعلتها تماماً قبل الفحص

الكامل والشامل، عضوياً ونفسياً. . عندها يمكن أن نحدد ما إذا كان ما تعاني منه هو عصاب أو ذهان، ثم يكون لكل حادث حديث بعدها. .

قال الدكتور يسري المفك، فيما كان صالح يتصنع فهم ما يقوله الدكتور، وهو في الحقيقة طلاسم لا معنى لها بالنسبة له. كان في غاية الضيق حيث أن الدكتور لم يدعوه بالشيخ صالح، ولم يكن يبدو أنه يعرفه على الإطلاق. لقد كان همه أن لا يعرفه أحد عندما جاء للعيادة، ولكن أن لا يعرفه أحد؟. . هذه طامة كبرى. . ثم نظر الدكتور إلى لطيفة التي كانت تجلس على طاولة الكشف، ذاهلة عن كل شيء حولها وكأن لا شيء يعنيها:

ـ يجب أن تدخل المستشفى، وأعتقد أن قسم الطب النفسي في المستشفى الجامعي هو الأفضل في هذه الحالة، فعلينا أن نعرف تاريخها الطبي وتاريخ عائلتها، وتلك العادات التي قد تكون مارستها في طفولتها، والأعراض العصابية في الطفولة كقضم الأظافر والتبول الليلي ونحو ذلك، وسجل والديها الطبي، والعلاقة الجنسية مع الزوج، وطبيعة العلاقات الاجتماعية. . أشياء كثيرة يا أستاذ صالح، ولكن لا بد منها. .

وكان صالح يقهقه في أعماقه. . جاء بزوجه المجنونة كي تُعالج، فوجد من هو أجن منها. . عما يتحدث هذا المخرف؟. . علاقات جنسية، وأعراض عصابية في الطفولة، وسجل الوالدين الطبي، وتاريخ العائلة المرضي. . ألا يعلم أننا في نجد. . وفي نجد لا يوجد شيء أسمه نفس أو مرض نفسي. . الناس هنا إما أصحاء أو مرضى، عاديين أو مهابيل، ولا وسط في ذلك. ثم، من أين يمكن أن يأتي بتاريخ العائلة الطبي وكل هذه «الخرابيط؟»، أيحسب نفسه في أميركا؟. . الواحد عساه «يعبي بطنه» تلك الأيام، وهو يطلب سجل الوالدين الطبي. . عز الله إنه خبل. . كلا. . لا ريب أن هذا «المفك» مفكوك «الصواميل»، أو مجرد أفاك أو ساع لثروة عاجلة، أو هو لا يرى إلا من خلال الكتب، والكتب لم تُكتب عنا، ولا تعرفنا، وكيف تعرفنا ونحن لا نعرف أنفسنا. . فنجد لا يعرفها أحد، ولا يمكن أن يعرفها أحد، فهي ظاهرة عجيبة، وطرفة فريدة. . سجل العائلة الطبي، وأعراض الطفولة العصابية؟. . ويبتسم صالح وهذه الكلمات تطوف في ذهنه، ثم يعيده صوت

الدكتور إلى حيث المكان والزمان.

ـ لا أدري يا سيد صالح لماذا تأخرتم في علاجها كل هذه المدة! فحالتها تبدو متقدمة، وأخشى أن علاجها سيستغرق وقتاً طويلاً..

ـ هل تعني أنها مجنونة يا دكتور؟

ويضحك الدكتور باقتضاب وهو يقول بتعال واضح:

ـ ليس هناك شيء اسمه الجنون..إنها أمراض نفسية أو عقلية..الجنون، أو ما يسميه الناس جنوناً هو حالة نسبية..بل هو أقرب إلى الحكم الاجتماعي من كونه حالة موضوعية..بمعنى أن من يشذ عن قواعد السلوك العامة المتفق عليها في أي مجتمع، قد يُعتبر مجنوناً في أعين الناس، ولكنه قد يكون عبقرياً، أو سابقاً لزمانه وأوانه، أو أي شيء آخر..فالرسل أنفسهم وصفوا بالجنون في بداية أمرهم، لأنهم أتوا بما هو خارق للمألوف مجتمعاتهم، ولكننا نعلم اليوم أنهم كانوا من أصحاب الرسالات..ونحن معشر العلماء..

قال الدكتور جملته الأخيرة بغرور واضح.

ـ نحن معشر الأطباء لا نعرف شيئاً اسمه الجنون..نحن لا نعرف إلا مرضاً في النفس، وهو ما نسميه اليوم عصاباً بشكل عام، وأحياناً يكون ذهاناً، أو اختلالاً في العقل ذاته، لأسباب فسيولوجية عضوية معينة أو غير عضوية، وهذا ينتمي إلى طائفة الأمراض الذهانية الحادة، أو اضطرابات في الشخصية ونحوها..ولكن لا شيء اسمه جنون.

ثم وهو يلقي بفمه قرص نعناع، دون أن يكلف نفسه عرض واحد على صالح، مما أثار استهجانه لمثل هذا السلوك الذي لا يدل على الذوق السليم:

ـ بل إن المسألة تخطت مفهوم الجنون إلى مفهوم الشذوذ بصفته حكماً اجتماعياً قبل أن يكون حقيقة موضوعية. فبعض أنواع السلوك كانت في الماضي تعتبر شذوذاً في بعض المجتمعات، ونوعاً من أنواع الأمراض العصابية، ولكنها اليوم أزيلت من قائمة الأمراض العصابية والسلوكيات الشاذة..فاللواط أو السحاق كان يعتبر شذوذاً ومرضاً عصابياً في أميركا مثلاً، ولكنه اليوم لا يعتبر كذلك، بل إنه حتى لا يسمى لواطاً أو سحاقاً، بل يسمى مثلية جنسية..الأمور نسبية يا سيد صالح..الأمور نسبية.

«اللواط والسحاق ليست شذوذاً؟!.. المخنثون ليسوا من الشاذين؟!.. عما يتكلم هذا الأبله؟.. بل هي جريمة وفساد كامل..»، أخذ صالح يحدث نفسه، رغم أنه لم يفهم ماذا كان يقول الطبيب خلاف اللواط والسحاق، ولم يكن يهمه في الحقيقة أن يفهم، المهم لديه هو الفضيحة التي توشك أن تطل برأسها على عالمه الذي شاده حجراً فوق حجر. ليتحدث الطبيب عن اللواط والسحاق والمخانيث كيفما يشاء. ولكن المهم بالنسبة له هو إنهاء هذه المشكلة، بل هذه الفضيحة، وبأسرع وقت ممكن.

ـ أرجوكَ يا دكتور، كله إلا الوقت..

قال صالح وهو في غاية الضيق من تكرار دعوة الدكتور له بالسيد بدل الشيخ، ولكن ليدعوه الطبيب بما يشاء، إذا كان قادراً على معالجة لطيفة ووأد الفضيحة.. فضيحة أن زوجه مجنونة.

ـ نحن لا نعالج هنا زكاماً أو حمى طارئة يا شيخ صالح، بل ولا حتى سل أو زُهري.

ونظر الدكتور إلى صالح بسرعة ثم واصل:

ـ أمراض النفس تحتاج إلى وقت طويل، وليس هناك ضمان للنتيجة.. وقد تأخرتم كثيراً. فليس هناك إبرة بنسلين منقذة سريعة.

وأسقط في يد صالح، رغم شعور الارتياح الذي أحس به حين دعاه الطبيب بالشيخ لأول مرة. فهو يعرفه إذاً؟.. هذا الخبيث. كان يتجاهله طوال الوقت.. المهم.. هل يستطيع علاج لطيفة بأسرع وقت ممكن؟.. إنه لم يلجأ إلى الطبيب إلا بعد أن أعيته الحيلة، ووجد نفسه مجبراً على ذلك، ولكنه لا يستطيع الاستمرار في التردد على العيادة النفسية لمدة طويلة، فكيف يمكن أن يودع زوجه في المستشفى الجامعي وكأنه يعلن عن مرضها في الصحف المحلية الثمان معاً، وينكشف أمر مرض لطيفة، ويصبح مضغة في أفواه أناس لا ترحم، وتضيع سمعته التي فعل المستحيل من أجلها. ثم، من سيتزوج من بنات «المجنونة»، كما سيصمها الناس، وكيف سيتحمل نظرات الناس وهو يعلم أنهم يتحدثون عن زوجه «المجنونة» من وراء ظهره، كما كانوا يتحدثون عن المجانين في قريتهم. ويبتسم حين يطوف هذا الموضوع في ذهنه، ويتذكر

سعيدان الطرطعانة، وعلي الدرو، وإبراهيم الدردغانة. . أشهر المهابيل في قريتهم. ويضحك، ثم ينظر حوله كي يتأكد من أن لا أحد حوله، وهو يتذكر قصص علي الدرو خاصة.

كانوا يصلون ذات يوم في المسجد، وكان هو يقف إلى جانب علي الدرو، وعلى الجانب الآخر كان يقف أحد العابرين من أبناء البادية. وعندما قرأ الإمام: «إن الأعراب أشد كفراً ونفاقاً»، لمز علي البدوي في خاصرته وهو يقول بصوت عال: «تراه يعنيك يا الأخ»، فضج المصلون بالضحك بالرغم منهم، وقطع الإمام صلاته وهو يغطي فمه بطرف غترته، وطردوا علياً من المسجد، وأعادوا الصلاة من جديد. وذات مرة رأى إبراهيم الدردغانة رجلاً مفرط البدانة في السوق، وقد دخلت أطراف ثوبه في مؤخرته، فما كان منه إلا أن سحبها بهدوء دون أن يشعر الرجل، فعاتبه من رآه على هذا السلوك الشائن، فلم يلبث علي أن عاد إلى الرجل من جديد، وأعاد أطراف الثوب إلى مكانها بإصبعه، وسط ضحكات الجميع التي لم يكونوا قادرين على منعها رغم المحاولة.

أما سعيدان فقصصه أكثر من الهم على القلب. . لقد كان الجنون بعينه رغم كل ما يقوله هذا المفك. كان سعيدان يجلس ذات عصرية في زاويته المعتادة التي لا يفارقها في «قيصرية ابن سليمان». ثم فجأة، وأمام كل المارة والباعة والمشترين، يقف، ثم يرفع ثوبه إلى الأعلى بحيث تبدو سوأته كاملة، ويأخذ في تحسس شعر عانته أمام الغادي والرائح، وهو يقول: «هل رأيتم أجمل من هذا الشعر؟. . لقد تغزلتم بكل أنواع الشعر، وتركتم ذكر هذا الشعر الجميل. . فعليكم به يا عيال الحرام. . فما الفرق بين شعر العانة وبين شعر الرأس؟. . أليس كله شعر في شعر؟. .»، فينهره الجميع عابثين، وهو يبحثون عن حصيات صغيرة لرجمه، وهم يرددون: «الله يخسك. . الله يغربلك. . عز الله إنك خبل. .»، فيهرب سعيدان منهم وهو يصيح بأعلى صوته: «ترى لو هو عزيز، ما طلع في. .»، ولم يدعوه يكمل جملته التي يعرفونها في الوقت ذاته الذي يحاولون كتم ضحكات كانت تريد الانطلاق من أعماقهم، وهم يحذفونه بحصيات لا تكاد تصل إليه. ويضحك صالح دون إرادة منه، ويفكر بحديث الطبيب قبل قليل. . إن لم يكن هذا شذوذاً وخبالاً، فماذا

يُسمى؟. . مرض نفسي؟. . مرض عقلي؟. . أم موهبة سابقة لأوانها؟. . أطباء النفس وعلماؤه لهم من الخذاريف الشيء الكثير. . ثم وهو يضحك في سره: «ربما كانوا هم المهابيل ويريدون تهبيل غيرهم معهم، كي يصبح الجميع في الهوا سوا».

*

ولكن صالحاً لا يلبث أن يعود إلى «المصيبة» التي هو فيها. . آه لو كان بشجاعة شريكه سليمان الذي لا يهتم بكلام الناس، بل هو لا يهتم بكل المجتمع الذي يصفه دائماً بالتخلف وضيق الأفق. . ولكنه ليس مثل سليمان، ولا يستطيع أن يكون مثل سليمان مهما حدث. . «ودها لأهلها، وبدل الوحدة أربعة». . تذكر قول شريكه ناصر في شركة النقل الجديدة التي أسساها في أعقاب الحرب العراقية الإيرانية، وهو يشكو له مرض زوجه. . لم يذكر له أنها تعاني من مرض نفسي، بل حاول أن يبين له أنها تعاني من مرض جسدي يجعلها في حال من العزلة الدائمة. فعلى العكس من شريكه سليمان، كان شريكه ناصر رجلاً تقليدياً محافظاً بكل ما في الكلمة من معنى، حتى أنه هو نفسه يبدو متحرراً أكثر من اللزوم بالنسبة له.

تراوده نفسه على أن يأخذ بنصيحة شريكه ناصر، ويأخذها إلى بيت أخيها محمد في القرية، ولكن الأولاد فرضوا أنفسهم على ذهنه، وخاصة خالد وطارق الصغير. ماذا سيقولون عن أبيهم، بل ماذا ستكون نظرتهم إلى أبيهم وهو يتخلص حقيقة من المرأة التي شاركته الفاقة فإذا هو يتخلص منها دون مبالاة حين جاءت الوفرة. بل ماذا سيكون مصير طارق الصغير وهو المتعلق بأمه إلى درجة الهوس. ربما لم تعد أمه اليوم كما كانت بالأمس، ولكنها تبقى أمه، وهو متعلق بها سواء كانت صحيحة أو عليلة. .

كلا. . إنه لا يستطيع أن يكون مثل ناصر، كما أنه لا يستطيع أن يكون مثل سليمان، ولكن مثل من يكون؟. . فهو لا يعرف إلا كيف يُصنع المال من أجل لذة الدنيا، وكيف يصلي ويصوم من أجل لذة الآخرة، ولكنه لا يعرف كيف يمكن أن يتعامل مع مثل هذه الأمور التي لم يكونوا يعرفونها قبل اليوم. . وخطرت له فكرة أخرى. . لم لا يتزوج فعلاً، ويترك المنزل للطيفة وأولادها، فربما تحسنت حالها بعد تركه إياهم؟. . بل قد تعيدها الصدمة إلى

رشدها؟.. وصادفت الفكرة هوى في نفسه، وصدى طيباً في أعماقه، وطافت جواهر في خياله، ولكنه أحس بعدها مباشرة بالنذالة والجبن يخترقان كل عظمة من عظامه. إنه لا يبحث عن شفاء للطيفة، بقدر ما يبحث عن مفر له.. يا ترى لو كان هو المريض وهو من يعاني، هل كانت لطيفة تتركه، أو كان أطفاله يفرون من حوله؟ لا يدري عن أطفاله، ولكنه واثق أن لطيفة لا يمكن أن تتركه حتى لو أصبح بهلولاً بذاته، أو هبنقة الأحمق بنفسه.. أو حتى علي الدرو أو سعيدان الطرطعانة.

وشعر بالأسى حين طاف مثل هذا الجواب في ذهنه، فلطيفة لن تفعل ما يفكر هو فيه الآن، بل ولا يمكن أن تفكر بما يفكر فيه، فكيف يفعل هو ذلك؟.. آه من الناس وكلام الناس، فلولا كلام الناس لما تردد لحظة في التردد على أفضل المصحات النفسية في العالم، ولكن الناس لا يرحمون، وأهل بلده لا يغفرون. آه كم يكره الناس في أحيان كثيرة، بالرغم من حبه لهم وافتخاره بهم. كل الحقد والنفاق والحسد يجده في هؤلاء الناس، رغم كل التقوى، ورغم كل الورع. رحماك يا نجد.. أنت الأب وأنت زوجة الأب معاً. رحماك يا صحراء.. أنت الأمل وأنت الألم. رحماك يا رياض.. أنت الحلم وأنت الحقيقة، في زمان ضاعت فيه الحقيقة، وتبخرت الأحلام.. «ألا قاتل الله النفط وأيام الطفرة»، أخذ يحدث نفسه وهو في غيبوبة عما حوله، «لقد خدرتنا رائحة النفط، واستدارت رؤوسنا في دوامة الطفرة.. ولكن لماذا نعلق أخطاؤنا على الطفرة والنفط، والنفط منها براء.. نعمة أنعمها الله علينا.. بل قاتل الله الجبن وعدم القدرة على مواجهة ما نعلم أنه خطأ، ونحن نعلم أنه خطأ.. ضعنا وأضعنا، وليلطف بنا اللطيف.. ليلطف بنا اللطيف».

*

وصف الدكتور يسري المفك للطيفة بعض المقويات العصبية والعامة، ومختلف أنواع الفيتامينات والمعادن، وبعض أنواع المنبهات الخفيفة، مع بعض الحقن التي لا تستخدم إلا عند الحاجة القصوى، ونصح صالح بالتسرية عنها ما أمكن، وبالسفر إذا كان ممكناً، ولكنه أكد على أن ما وصفه لن يساعد كثيراً في حالة لطيفة، إذ إنها بحاجة إلى أن تدخل المستشفى، وبصراحة، كما أكد

الدكتور، هي بحاجة إلى نوع من العزلة والابتعاد عن الوسط العائلي، وعلاج سيكولوجي ودوائي قد يستمر سنيناً طويلة. وما وصفه من أدوية وعقاقير ليس إلا نوعاً من المسكنات البسيطة، هي بالنسبة لأمراض النفس مثلها مثل الأسبرين لأمراض الجسد: قد تسكنه لفترة، ولكنها لا تعالجه ولا تشفيه. وجمع أهل البيت بين العلاج بالرقية كما وصفه الشيخ نايف، والعلاج الدوائي الذي وصفه الدكتور يسري، وبدأت لطيفة تعود إلى شيء من طبيعتها، وإن بقيت مصفرة الوجه، جافة البشرة، غائرة العينين، هامدة النشاط، فاقدة لكل شهية.

وذات أصيل ربيعي، وفي لحظة من تلك اللحظات النادرة التي بدأت فيها لطيفة تعود إلى بعض من طبيعتها السابقة، كانت تجلس وصالح في حديقة المنزل، في يوم رق نسيمه وصفت شمسه من أيام آذار، فيما كان طارق يلعب بالقرب منهما، متمتعاً بالجو بدوره. ففي الآونة الأخيرة، أخذ صالح يخصص وقتاً ليس بالقصير للجلوس مع زوجه ومشاركتها أحاسيسها قدر الإمكان. كانا يرتشفان الشاي بصمت، وعينا لطيفة مغرورقتان بالدموع كعادتها في الآونة الأخيرة، وهي تنظر إلى طارق صامتة، فيما صالح يفكر في ما دهى زوجه التي كان يُضرب بها المثل في كل شيء. كان يبحث عن أي شيء يحدثها به، ويتصنع الابتسام والضحك، ولكنها كانت كالمومياء صمتاً وشكلاً، ترتشف الشاي ولا تزيح نظراتها عن طارق. وفجأة، حولت لطيفة نظراتها إلى صالح، ونشجت قبل أن تقول:

ـ أبو خالد. . .

ـ يا عيون أبو خالد.

قال صالح وهو مستبشر خيراً بنطقها أخيراً، فليس من عادته أن يُحسن الغزل أو الكلام الرقيق، حتى مع بنات الهوى اللاتي عرف منهن الكثير. كان يتصنع الغزل، ففي أول عهده بالثراء والعلاقات النسائية خارج إطار الزوجية، كان يحاول أن يكون خفيف الظل، سريع النكتة حاضرها، ولكنه لم يكن يشعر بذلك في الداخل. ثم أدرك أن القضية هي قضية مال في مثل هذه الأمور، وأدرك أن خفة دمه تقدر بثقل ماله. ولكنه يتوق إلى أن يكون مرغوباً دون

مال، ولكن ما أن ينظر إلى وجهه بالمرآة، ويرى آثار الجدري على ذلك الوجه، ويدرك ضخامة شفتيه، حتى يوقن بأن الله لطيف بعباده. لقد حرمه الوسامة والجمال، ولكنه منحه المال والجاه، وله دائماً في خلقه شؤون. .ثم ينظر إلى لطيفة وكل ذاك الجمال الذي حباها الله إياه، فيدرك أن في الأمر حكمة، وهو موقن بذلك، ولكن كي يزداد اطمئناناً.

غريب هو هذا العالم، فلو كانت لطيفة من بنات الهوى العربيات في لندن أو باريس، فربما دفع فيها عشرات الألوف من الجنيهات أو الفرنكات، ولكنه في هذه اللحظة، وفي لحظات أخرى كثيرة لا يشتهيها. .ما هي الشهوة؟. .أهي حالة نفسية أم قدرة عضوية؟. .لا يدري. .وها هو يشعر الآن بشبق غريب تجاه لطيفة، ولكنها في حالة لا تسمح بشيء من ذلك. .هل لذلك علاقة بمسألة الشهوة؟. .ربما. .لا يدري. .بالفعل هذا الإنسان كائن غريب. .

ـ لقد فكرت كثيراً في حياتنا، وقررت قراراً.

جاءه صوت لطيفة فأفاقه من هواجس كان برماً بها.

ـ خير. .خيراً إن شاء الله!. .

قال صالح وقلبه يدق بعنف لسبب لا يدريه، وإن كان يدريه، ولكنه يحاول الا يدريه. .

ـ لقد قررت أن تتزوج. . .

وفغر صالح فاه دهشة، ولم يُحر جواباً لهذا الطلب الغريب. وقبل أن يفتح فاه بكلمة واحدة، قالت لطيفة بهدوء:

ـ وأنا على استعداد لأن أخطب لك زوجة صالحة بنفسي. .فأنت تستحق كل خير.

ولم يحر صالح جواباً، فقد كانت المفاجأة الثانية أشد وقعاً من الأولى. وتتالت المفاجآت، حين قالت لطيفة، غير معطية له فرصة حتى للتنفس:

ـ أعرف واحدة تصلح لك، إنها جواهر أخت أم محمد، جارتنا القديمة في الملز. . .هل تذكرها؟

صمتت قليلاً ريثما تبلع ريقها، ثم تقول:

ـ فتاة صغيرة وجميلة وتقية، لا تصلح إلا لك، ولا تصلح أنت إلا لها. .رغم أنك صالح في كل الأحوال.

ورغم المفاجأة، إلا أن صالحاً لم يستطع منع نفسه من التفكير في جواهر، وأخذت حبات الذاكرة بالانفراط السريع.

*

كانت جواهر في حدود الثانية والعشرين من العمر عندما كانت وأهلها جيراناً لهم في الملز، ولا ريب أنها اليوم قد تجاوزت السادسة والعشرين من عمرها، وأصبحت أكثر نضجاً وفتنة. كان يلمحها على عجل عندما كانت تأتي لزيارتهم مع شقيقتها الكبرى أم محمد. لم يكن يعرف لأم محمد هذه اسماً، بل إنه حتى لطيفة لم تكن تعرف لها اسماً. هي أم محمد وكفى. ورغم أن أم محمد تزوجت عدة مرات، وطُلقت عدة مرات، إلا أنها لم ترزق بمحمد أو غيره من ذكور. كان لديها سرب من بنات جميلات ومتعلمات، اللهم لا حسد، ولكن ذلك لم يشفع لها عند أزواجها المتعددين، حتى عزفت هي من ذاتها عن الزواج في آخر المطاف، وتفرغت لتربية بناتها، ثم لرعاية بيت أخيها عبدالله بعد وفاة زوجته، وامتناعه عن الزواج، وسط استغرابها من هذا الوفاء النادر الذي لا تجده بين كل الرجال، وعودة البنات إلى بيوت الآباء. كانت جواهر كما يذكر، فتاة «مملوحة»، وإن لم تكن جميلة بشكل لافت للنظر حقيقة، كما كانت أم محمد رغم كبر سنها النسبي. فرغم أن أم محمد في منتصف الخمسينيات من العمر آنذاك، إلا أنها كانت لا تزال تحتفظ بظلال جمال قديم لم يكن خافياً على أي عين قادرة على اكتشاف مكامن الجمال.

وكانت جواهر ربعة القامة، مع ميل إلى القصر. قمحية البشرة، ممتلئة الجسم إلى درجة الاكتناز، وخاصة في الأجزاء السفلية من جسدها. ولكن أكثر ما كان يلفت الانتباه في جواهر، عيناها السوداوان الواسعتان، وذلك الشعر الفاحم السواد وقد انقسم بعدل صارم دقيق إلى قسمين حول جانبي رأسها الذي كان يبرق كالمرآة، وذلك الأنف الدقيق، فوق شفاه داكنة مكتنزة ومتحفزة.

كم اشتهى جواهر حين لمحها لأول مرة في مجلس «الحريم»، عندما كان خارجاً بعد عصرية من العصريات. ورغم أنه «تنحنح» كثيراً قبل الخروج، إلا أن جواهر كانت حاسرة الرأس، مكشوفة الوجه حين مر خارجاً بسرعة، حيث التقت العيون بعجل كانت كافية لأن تستوعب بعضها بعضاً. ورغم أن العملية لم تدم إلا لحظة واحدة، إلا أن الصورة ارتسمت بالكامل، وبكل تفاصيلها في مخيلته، وفسر تلك النظرة تفسيراً معيناً، وفق خبرته الخاصة بالنساء، وعقد العزم على رؤيتها مرة أخرى. لقد كانت عينا جواهر توحيان بالكثير من حديث صامت لا يفهمه إلا من كان يملك مفتاح حل الشفرة الخاصة بحديث الصمت ولغة العيون، وكان صالح أحد هؤلاء، أو كان يعتقد أنه منهم. لقد قرأ في عينيها الشيء الكثير، وفسر نظرتها بالشيء الكثير، وقرر أن يفعل الكثير.

ورغم أن خطاباً كثيرين تقدموا لجواهر، إلا أنها رفضت الجميع لسبب لا يدريه أحد. وكان أخوها وولي أمرها عبدالله منصاعاً لرغبتها، فهو لا يريد أن يجتمع لديها اليتم والقهر معاً. وتمر الأيام، ويشغله المال والعقار عن أي شيء آخر، فينسى جواهر وينسى لطيفة ذاتها، فقد كانت اللحظة آنذاك تقاس بالملايين، ومن فاتته اللحظة فاته خير كثير يعلم الجميع أنه لن يتكرر. وهاهي لطيفة تعيد إليه الذكرى من جديد، فيشعر بالحرارة تنتشر في كل أرجاء جسده، ولكنه يعود للوعي بحالة لطيفة التي بين يديه، فيفتر كل شيء فيه، ولا يبقى إلا حالة لطيفة الغريبة هذه..

ـ لا ريب أنك قد جننت. أتزوج؟.. ومتى؟.. بعد أن شارفنا على أن نصبح أجداداً؟.. لا ريب أنك تمزحين؟.. أكيد أنك تمزحين.

قال صالح وهو يبعد جسد جواهر عن ذهنه.

ـ بل أنا على حافة الجنون..

قالت لطيفة بهدوء:

ـ وإن لم تسمع كلامي فسوف أجن حقاً.. هذا إن لم أكن قد جننت بعد.

ثم وهي ساهمة وبهمس لا يكاد يُسمع:

ـ أنت تستحق من هي أفضل مني..

ـ لا تقولي هذا الكلام يا أم خالد. . أنت عندي بالدنيا كلها.

قال صالح بإخلاص أحس به يحتل كل فؤاده. وتفتر شفتا لطيفة عن ابتسامة باهتة، وعيناها تنظران ببرود إلى صالح، ثم تنظر إلى الأفق وتقول بصوت هامس كأنه قادم من قاع المحيط:

ـ إذا كنت تريد سعادتي حقاً فتزوج.

ثم تنظر إليه فجأة وتقول:

ـ هذا إن لم تكن متزوجاً فعلاً. .

ـ ماذا؟

قال صالح وقد أحس أن نوبة من نوباتها قد أزفت.

ـ كلا. . لا شيء. . مجرد دعابة.

ـ إذاً فهي دعابة. . قولي كذا من الأول.

ـ أن تتزوج؟. . كلا. .

وعادت إلى ارتشاف الشاي البارد، فيما غرق صالح في ذاته. .

كم تمنى أن يتزوج من جديد، ولكنه لم يكن يتصور في يوم من الأيام أن يكون زواجه محاطاً بمثل هذه الظروف. نعم كانت له مغامرات نسائية كثيرة في كل مدن الشرق والغرب الشهيرة، وعلى امتداد خطوط الطول والعرض، ولكن الزواج من أخرى يبدو وكأنه شيء في الدم بالنسبة لعربي نجدي مثله. لقد تزوج أبوه أربعاً من النساء، وهو لا يعرف أحداً من جيله إلا وله زوج أخرى، فلماذا يكون هو الاستثناء؟. . وهاهي «أم عياله» تقدم له الفرصة على طبق من ذهب، فلم التردد؟. . هناك شيء في داخله لا يفقهه يمنعه من الإقدام على مثل هذه الخطوة، وفي مثل هذا الوقت بالذات. . شيء لا يستطيع أن يتبينه أو يفهمه، ولكنه ينغص عليه فرصة الفرح المنتظر.

لم تنتظر لطيفة إجابة من صالح، وافترضت أنه موافق تلقائياً، فأخذت تفرض شروطها. لم يمانع صالح أن تفرض لطيفة شروطاً، فهي صاحبة الفكرة أولاً وأخيراً على أية حال. اشترطت أن لا تقيم زوجه الجديدة في البيت نفسه الذي تقيم فيه، فهو بيتها، بيت العمر الذي طالما حلمت به لها

ولأولادها، ولم يمانع صالح بهذا الشرط، بل وكان سعيداً به في قرارة نفسه، والشقق الفخمة في عماراته المتناثرة في أرجاء الرياض وفيرة وتبحث عن الساكنين. واشترطت أن لا يكون لجواهر ليلة خاصة، يكفيها أن يزورها كل يوم متى شاء، ولكنه يؤوب إلى بيته عندما يرخي الليل سدوله. واشترطت أن لا ينجب منها، فهي تريد أن يكون جميع أبنائه منها. وافق صالح على كل شروطها، إلا أنه لم يضمن حكاية الإنجاب تلك، ولكن لطيفة أصرت على تلك النقطة بالذات، فوافق وهو يحس بأن جواهر قد أصبحت ملك اليمين أخيراً..

*

وافقت جواهر على الزواج من صالح بسرعة استغربها شقيقها وشقيقتها أم محمد، وهي التي كانت ترفض فكرة الزواج جملة وتفصيلاً. ولكن شقيقها كان مسروراً في النهاية من أن صبره وصبرها لم يذهب هباءً، إذ أين يجد زوجاً لشقيقته أفضل من الشيخ صالح الأثلة. وكانت «أم محمد» من أكثر الفرحين بهذا الزواج، الذي سيعيد أواصر الصداقة بينها وبين «أم خالد»، وإن كانت تشعر ببعض الإحراج كون شقيقتها سوف تكون «ضرة» لامرأة أحبتها حباً صادقاً لا شائبة فيه. ولكن «أم محمد» شعرت ببعض الارتياح حين علمت أن زواج الشيخ صالح من شقيقتها كان برضى من «أم خالد»، وباختيار منها للعروس ذاتها، فعادت السكينة تحتل قلبها، ومنت النفس بعودة تلك الأيام الجميلة في الملز.

وكانت الأيام تمر ثقيلة على صالح، وهو يستعجل ليلة الزفاف، فقد كان مجرد تخيل جواهر وجسدها المكتنز، يلهبان كل ذرة في جسده، وكأنما عادت أيام الصبا من جديد. كان كل شيء يوحي بأن الأيام الوردية تعود من جديد، والليالي تبتسم من جديد. فجواهر أصبحت ملك اليمين، ولطيفة تبدو في الطريق إلى العافية هذه الأيام، وإيمان زوج خالد بدأت تظهر عليها إمارات الحمل.. ويبدو أنه ليس هناك ما هو أفضل مما هو كائن.

لم يكن صالح يحبذ أن يقام حفل عرس كبير، بل كان يعتقد أن حفلة عائلية مختصرة أكثر من كافية. ولكن جواهر كانت تتطلع إلى مثل هذا اليوم،

فأصرت على أن يكون حفلاً كبيراً في فندق كبير. وأخيراً استقر الرأي على إقامة الحفل في قصر من قصور الأفراح، على أن يقضيا الأيام الثلاثة الأولى للعرس في فندق فخم، ثم يسافرا إلى أوروبا وأميركا لقضاء شهر العسل.

وفي ليلة الزواج، كانت لطيفة في غاية أناقتها وجمالها، وكان واضحاً أنها تحاول أن تبدي أقصى درجات جمالها، فأفرطت في استخدام المكياج حتى تزيل آثار الأيام الماضية، حتى فاقت أم فهد في ذلك، وكانت البسمة لا تغادر ثغرها، وترقص بلا كلل بين النساء المتعجبات من كل هذا الفرح الذي تبديه امرأة لزواج زوجها. بل إنها كانت تجر صاحبتها أم فهد، وبدرية ومشاعل جراً للرقص بالرغم منهما، وهما اللتان حضرتا حفلة العرس مجبرتين إرضاءً لخاطر أمهما وإلحاحها الغريب. .أمهما التي لم تعد تلك الأم التي عرفتاها لسنين خلت.

ولم تجد النساء تفسيراً لسلوك لطيفة الغريب إلا بالقول إنها كانت تعرض بدرية ومشاعل لعيون النساء، عل إحداهن ترى فيهما عروساً مناسبة لابنها أو أخيها أو قريب شاب يبحث عن زوج، كما جرت عادة الكثيرين في مثل هذه الأحوال. كانت لطيفة ترقص بعنف وقد تحولت إلى فراشة لا تهدأ، وشعرها الناعم الطويل يتناثر على جسدها وهي ترقص بلا توقف، وضحكتها ترن طوال الوقت، فيما كان العرق ينساب غزيراً على جبينها الواسع، فيزيدها فتنة على فتنة. ولكن كل هذه الضحكات كانت تخفي وراءها أمراً لا يعرفه إلا هي.

الشيطان يرقص

العزيز أبو خالد، الأعزاء خالد وبدرية ومشاعل،

أرجو أن تصفحوا عني، وتطلبوا لي الغفران والرحمة من الرؤوف اللطيف على خطيئتي وما جنيته من ذنب عظيم، وأنا واثقة أنكم ستصفحون عني، كما سيغفر لي العزيز القدير إن شاء الله، ففي موتي راحة لي ولكم. ستحزنون لفترة وجيزة، ولكن الحياة ستسير، وتحققون السعادة التي عجزت أن أوفرها لكم. فخلال الفترة الماضية لم أعد أحس أنني أنا، مجرد لحظات أعود فيها إلى نفسي، ثم تضيع نفسي من نفسي، وأحس أنني على حافة الجنون، إن لم أكن قد جننت بالفعل. وأنا أكتب هذه الكلمات وأنا في حالة من الصفاء الكامل، ووضوح في الرؤية لم أعهد منذ زمن طويل، بل ربما لم أعهد طوال حياتي.

أحس في هذه اللحظات أنني في غاية السعادة، ولا أريد لهذه السعادة أن تنتهي كحلم جميل، أو تنقلب إلى كابوس مريع، فكل ما أريده من هذه الدنيا هو أن تكونوا من السعداء. لذلك وجدت أن أفضل طريقة للقبض على لحظة السعادة هذه هي في أن أمسك بها إلى الأبد، وذاك لا يكون إلا بالموت. لقد انتظرت الموت طويلاً في الآونة الأخيرة، بل اكتشفت مؤخراً أنني كنت أنتظر الموت طوال حياتي، ولكنه غادر لا يأتي حين نتمناه، فقررت أن أذهب إليه بنفسي هذه المرة. فإذا كان هو جباناً، أو يلعب معي لعبة سقيمة كلعبة قط وفأر، فلن أكون أنا من الجبناء، وسيلقي الفأر بنفسه بين شدقي القط دون خوف أو وجل هذه المرة، فقد عزفت نفسي عن اللعب منذ أمد بعيد، وليغفر الله لي فهو الوحيد الذي يعلم مقدار ما أعاني.

أنا أعلم أن قتل النفس حرام، وأعلم أن نبينا الكريم توعد المنتحر بالخلود في النار وبئس القرار، ولكني لم أعد أستطع الاحتمال، وكل عزائي أن الغفور الرحيم هو من سأواجه، وهو أعلم بنفسي مني. أحبكم كثيراً، بل أكثر من الحياة ذاتها، ولأجل ذلك الحب أريد أن أموت كي تستمروا في الحياة. فحالي اليوم هي أكثر بؤساً من حال آدم بعد الهبوط، وحال داود بعد السقوط، وحال أيوب في مرضه، وبدر شاكر السياب في مستشفاه وهو يصرخ «أريد أن أموت يا إله». لست أيوباً في صبره ولا أستطيع أن أكونه، ولا أريد أن أتعذب وأصرخ أريد أن أموت يا الله كما فعل السياب، بل سأفعلها وأموت.

أرجوكم ألا تؤاخذوا أباكم في زواجه الأخير، فأنا من رتب هذا الزواج، وأنا من أصر عليه بالرغم منه، فوالدكم يستحق بعضاً من السعادة في هذه الحياة الفانية، وأنا لم أعد قادرة على منح السعادة لأحد. والدكم إنسان رائع، لم يقصر معي في شيء، وكان نعم الزوج والرفيق في هذه الحياة، ودعك يا خالد من هواجسك حول والدك، فهو يحبك ويحبكم أكثر مما تتصورون. أرجو أن تبلغوا طارقاً حين يكبر كم كنت أحبه، وأن تشرحوا له أن أمه ماتت بقضاء الله وقدره، وكان هو آخر شخص يحتل ذهنها ساعة الرحلة الأبدية. . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين. .

محبتكم حتى الموت
الطامعة في غفران الله ثم غفرانكم،
لطيفة بنت صالح الأثلة. . غفر الله لها.

*

أخذت مشاعل تقرأ الرسالة التي تركتها والدتها بجانب علبة الحبوب المنومة الفارغة، والرعب والحزن يملآن كل ذرة فيها، في الوقت الذي كان الجميع ينتحبون حول سرير أمهم، وخاصة طارق الصغير الذي فجعه منظر أمه وهي مغمضة العينين، وزبد شبه جاف يتراكم حول زاويتي فمها المفتوح،

وأنفاس متقطعة تصارع للبقاء، فيما كانت بدرية تنظر إلى وجه أمها وقد اصفرّ لونها، وهي لا تدري من هي في تلك اللحظة. أما خالد، فقد أصابته نوبة من الغثيان، وأسرع إلى الحمام يستفرغ كل ما حوته معدته من عصارات. وبقيت مشاعل مشلولة لبضع دقائق، ثم عاد إليها عقلها العملي الذي لا يهدأ.

طلبت من أخوتها نقل والدتها إلى السيارة بأسرع وقت ممكن، والذهاب إلى أقرب مستشفى، فيما تناولت هي التليفون واتصلت بفندق «الرمال الذهبية» وأبلغت والدها العريس بما حدث. وفي المستشفى، أعطت والدها رسالة الوالدة الأخيرة، فيما كان الأطباء يسرعون في محاولة إنقاذ حياة تكاد تنتهي، وتحول صالح إلى شيء أشبه بالكركم القديم في صفرته وجفافه. فرغم صدمته بما حدث، وخوفه الشديد على حياة زوجه وأم أولاده وابنة عمه، إلا أنه لم يستطع منع نفسه من التفكير في أمر آخر. فلا ريب أن المستشفى سوف يبلغ الشرطة عن الحادث، وإذا جاءت الشرطة فلا بد من تحقيق وسين وجيم، وعندها قد يتسرب الخبر إلى الخارج وتكون الفضيحة. . وكله إلا الفضيحة.

*

مَ العمل؟ . . كيف يمكن إخفاء الفضيحة؟ . . كان هذا هو ما يفكر به في تلك اللحظات الحرجة. وكان أول شيء قام به هو أنه جمع أولاده وبيَّن لهم خطورة الموقف، وحذرهم من تسرب الخبر. وشعرت بدرية ومشاعل بكره شديد نحو والدهن في تلك اللحظة، وكان الامتعاض بادياً على وجهيهما، فيما كان خالد يرتجف بشدة موافقاً والده على ما يراه. . فكله إلا الفضيحة وكلام الناس. ثم حاول صالح أن يقنع الطبيب المعالج أن لا يذكر في تقريره أن الحالة حالة انتحار، ولكن الطبيب رفض، فهو لا يستطيع خيانة أخلاقيات المهنة بأي حال من الأحوال. ثم حاول الاتصال بمدير المستشفى، وإقناعه بعدم إبلاغ الشرطة، أو الضغط على الطبيب المعالج كي يغير مما سيرد في التقرير، ولكن المدير بيَّن له استحالة الضغط على الطبيب في مثل هذه الحالة، كما أنه من المستحيل عدم إبلاغ الشرطة، إذ لو تسرب الخبر إلى الشرطة دون بلاغ رسمي، فربما كان الثمن إغلاق المستشفى.

وأسقط في يد صالح، ولم يجد أمامه من حل سوى الاتصال بصديقه

ونديمه في الليالي الملاح، اللواء حمد المرعباني في مديرية الشرطة، وشرح له الحالة وتركه يتصرف بما يراه. لم يكن يريد أن يستعين بأحد من أصدقائه في الشرطة، فمعنى ذلك تسرب الخبر، وهو أدرى بأصحابه، ولكنه لم يجد من الأمر بد في النهاية. نعم قد يتسرب الخبر، ولكن لن يكون هناك أي وثيقة رسمية تؤكد الأمر، فيتحول إلى مجرد إشاعة، وما أكثر الإشاعات في البلد.

*

وسجلت الحادثة على أنها تناول جرعة زائدة من الدواء، وليست حادثة انتحار. أما الملف الطبي للطيفة الأثلة، فقد اختفى من المستشفى، بعد أن تم سحب تقرير الشرطة من السجلات الرسمية، وشعر صالح بالارتياح التام، وتنفس الصعداء، فقد وأد الفضيحة بقدر ما يستطيع، وبقيت حالة لطيفة شاهداً على فضيحة تكبر لا يستطيع صالح لها إخفاءً إلى ما لا نهاية..

وسولت له نفسه تلك الأيام أن يقوم بأعمال كان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم كلما خطرت له على بال. أفكار مثل تمني الموت لها، والأسف على عدم نجاح محاولتها في الانتحار، والراحة من هذا العناء الذي لم يخطر له على بال في يوم من الأيام. بل فكر ذات مرة في إمكانية قتلها بهذه الطريقة أو تلك، ولكنه سرعان ما يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويردد: «اللهم أخزك يا شيطان..اللهم أخزك يا شيطان..»، ويتذكر كيف كانت لطيفة خير معين له في أيام الفقر القاسية، فيشعر بالأسى يعصر قلبه، ويزداد ألمه كلما تذكر أنه تمنى لها الموت، أو يتمنى لها الموت..

وأصيبت لطيفة بالخرس التام بعد حادثة الانتحار، ولولا أن بدرية ومشاعل كانتا تجبرانها على بلع بعض الطعام والشراب، لماتت جوعاً وعطشاً. كان واضحاً أنها رافضة للحياة، وأنها تحاول الانتحار بطريق أخرى. ولم يعد أحد يتركها وحيدة مهما كان الأمر، وتناوبت الشقيقتان على النوم بجانبها خوفاً من أن تعاود محاولة الانتحار مرة أخرى. نعم كانت في غاية الهدوء والصمت، وابتسامة بلهاء على فمها، ولكن لا أحد يمكنه التكهن بما يجري في رأسها، أو يتفاعل في أعماقها. وكانت نظرات الجميع مليئة باللوم تجاه الوالد، وكأنها تقول له: «افعل شيئاً..»، وكان صالح يلاحظ هذه النظرات

ويستوعب معناها، ولكنه حائر. .إنه يريد أن يفعل شيئاً، ولكن ما هو وكيف؟. .الفضيحة والخوف من الفضيحة يلاحقه باستمرار، ولكنه يحتقر نفسه عندما يدرك أنه يجازف بحياة زوجه ورفيق عمره وابنة عمه من أجل كلام ناس هو أول المقتنعين بسخافته، حين يقلب الأمر على مختلف جوانبه ووجوهه، ولكنه مع ذلك لا يستطيع إلا الرضوخ لكلام الناس وعاداتهم وتقاليدهم. حال زوجه لا ترحم، ونظرات أبنائه تحرق، والناس يبحثون عن أي شيء تلوكه ألسنتهم، وجحيم يستعر في صدره، والوسواس الخناس لا يريد أن يتركه في حاله.

الكتاب الثالث:

بحر الظلمات

السقوط

أخذت سيارة المرسيدس السوداء تشق طريقها من مطار دمشق في الطريق إلى بيروت مباشرة. كان صالح قد أجرى اتصالاته خلال وجوده في أميركا، وبمساعدة أصحاب له من رجال أعمال لبنانيين، وحجز للطيفة في مصح «الأجنحة المتكسرة للأمراض العصابية والذهانية» الذائع الصيت في بيروت. فرغم الحرب الأهلية المستعرة في لبنان، يبقى هو الأفضل في مثل هذه الخدمات. كان قد فكر بالذهاب إلى مصر أو غيرها من بلاد العرب، ولكن نفسه لم تسترح لذلك، وكانت بيروت هي الخيار رغم المخاطر.

راودته نفسه في الذهاب إلى أحد مستشفيات الأمراض النفسية والعقلية الجديدة في البلد، ولكنه عدل عن فكرة لم تكن مستحبة منذ البداية. فإن يعرف الجميع أن زوجه في مستشفى للأمراض النفسية، أو حتى أنها تراجع مستشفى من هذا النوع، يعني الاعتراف بجنونها، وهو ما لا يرضاه للطيفة ولا لعائلته. فالمجنون في بلده يبقى مجنوناً إلى آخر عمره، حتى وإن حمل شهادة طبية تثبت أنه أعقل العقلاء. وأن تبقى لطيفة مجنونة من دون علاج، خير من أن تصبح عاقلة بعد العلاج، ولكنها مجنونة في نظر الجميع. من أجل ذلك، فإنه أشاع بين المعارف والأقارب قبل السفر إلى أميركا، أن لطيفة تعاني من مرض جسدي عضال، بل وأشاع أن هذا المرض العضال قد يكون سرطاناً خبيثاً في الثدي، وفي مرحلة متقدمة أيضاً، وأن الخبراء في مثل هذه الأمور نصحوه بمستشفى «مايو كلينك» في مدينة «روشستر» في ولاية مينسوتا حيث تحدث المعجزات كما يقولون. كان ضميره يؤنبه على هذا «الفأل» السيء،

ولكن فأل سيء خير من القول إنه ذهب لعلاج زوجه المجنونة من جنونها. بل كان في قرارة نفسه يعتقد أنه كان من الأهون لو أصيبت بالسرطان بدلاً من هذه العلة التي لا يدري كيف ألمت بها، ولا من أين أتتها. وبالفعل كان قد قرر علاجها في أميركا، ولا تهم التكاليف مهما بلغت.

وفي منتجع «نيوبورت بيتش» الساحلي الساحر في جنوب كاليفورنيا، بين مدينتي لوس أنجلوس وسان دياغو، أدخلها مصح «ذا نيو ريزوريكشن»، أحد أشهر المصحات في الولايات المتحدة، المطل على المحيط الهادي من فوق قمة جبل «سيدوكشن هيل» الشهير. ولكنه أكتشف أن الأمر سيطول، ولن يكون هناك أي ضوء قريب في نهاية نفق طويل جداً. فكل ما كان المصح يفعله هو إعطاؤها أدوية مهدئة وحقن تجعلها تنام طوال الوقت، ولكنها تعود إلى الهياج تارة وإلى البكاء تارة أخرى، ثم تتقوقع على ذاتها عندما تزول آثار الأدوية المهدئة، ورعب غريب يحتل عينيها الميتتين. وكاد صالح أن يخرجها من المصح عندما رآهم ذات مرة يستخدمون معها الصدمات الكهربائية في إحدى حالات هياجها النادرة، وكل تلك الأحزمة التي كانوا يربطونها بها معظم الوقت. وبعد مرور أكثر من أربعة أسابيع على وجودها في المصح، صارحه الدكتور تشارلز جيمس، أحد أشهر أطباء النفس في أميركا، أنه لا أمل في حالتها، وأنهم لا يستطيعون إلا إبقاءها في المصح تحت رقابتهم إلى آخر العمر ربما.

وبيَّن له الدكتور أن أفضل أسلوب علاج لها هو مزيج من الأساليب المختلفة لعدة مدارس في علم النفس، وإن كان أسلوب التحليل النفسي هو الذي سيكون سائداً، بالإضافة إلى الأدوية، ولكنهم لا يضمنون النتيجة، كما أنهم لا يستطيعون ممارسة أي من تلك الأساليب معها بكفاءة، وخاصة التحليل النفسي. فهي لا تعرف اللغة الإنجليزية، وحتى لو كانت تعرفها فإنها لن تكون قادرة على التعبير عن نفسها بعفوية كما لو كانت تتحدث بلغتها الأم. ومن ناحية أخرى؛ فإن اختلاف الخلفية الثقافية بشكل كامل بين المحلل والمريضة، لن يجعله قادراً على الغوص في أعماقها، وبالتالي غير قادر على التحليل الدقيق. ونصحه الدكتور بنقلها إلى أي بلد عربي، حيث الخلفية الثقافية المشتركة، ورشح له أسماء ثلاثة من كبار أطباء النفس والمحللين

النفسيين العرب على مستوى العالم: الدكتور محمود فراشة والدكتور عمر أيوب في القاهرة، والدكتور سليم كزبرة في بيروت.

*

في مطار دمشق، استقبلتهم سيارة خاصة عند باب الطائرة مباشرة، ورافقهم ضابط أمن رفيع المستوى لتسهيل إجراءات الدخول إلى لبنان في مثل تلك الظروف، ولتسهيل الانتقال داخل لبنان نفسه، حتى الوصول إلى مصح الأجنحة المتكسرة الذي يقع في منطقة متنازع عليها بين عدة ميليشيات مسلحة. فصالح يُعد واحداً من كبار المستثمرين في سوريا، سواء بشكل مباشر، أو من خلال التستر وراء مستثمرين محليين. كما أن له علاقات واسعة بمختلف الشخصيات السياسية والاقتصادية في القُطر السوري.

مناظر جميلة وخلابة كانت تمر على ركاب السيارة الرسمية الفارهة في الزبداني وبلودان وما بينهما وما قبلهما وما بعدهما، ولكن أين هي النفس التي يمكن أن تشعر بهذا الجمال. فالجمال إحساس في النفس قبل أن يكون وجوداً في المادة. كان المارة من الفلاحين والمصطافين وعامة البشر يقفون بخشوع وهم ينظرون إلى السيارة العابرة، وهم يجزمون أن زجاج نوافذها السوداء يخفي وراءه شخصية سياسية هامة، ربما كانت شخصية سورية في طريقها إلى لبنان في مهمة سرية، أو شخصية لبنانية أدت مهمة رسمية سرية في دمشق، أو شخصية أميركية أو أوروبية أو حتى إسرائيلية ذات مهمة سرية، فقد علمتهم الأيام، ومعيشتهم على خط بيروت الشام أن يتوقعوا أي شيء وكل شيء، فما يقال في الأخبار الرسمية ليس كل شيء. لم يكن من المقرر أن يمروا على بلودان والزبداني، ولكن صالح كان مصراً على العبور خلالهما، فهناك من الذكريات الجميلة ما يستحق عناء المرور، وهو بأشد الحاجة إلى بعض الذكريات السعيدة.

كانت لطيفة منكمشة في مقعدها، كوليد لتوه خارج من رحم أمه، وضعوه في أول سرير له في الدنيا، وقد أخذت تمص إصبعها بقوة، وهي عادة لم تمارسها منذ أن انقطعت عنها عندما كانت طفلة صغيرة. وكانت قد بدأت بممارستها بعد أن كوتها شقيقتها قماشة بمسمار ساخن على مثانتها،

عقاباً لها على تبولها في الفراش، وعادت إليها بعد دخولها مستشفى نيوبورت بيتش. كانت تنظر إلى لا شيء رغم أن كل الأشياء تمر أمامها، فيما كان صالح ينقل نظره بينها وبين المناظر من حوله دون أن يراها هو الآخر أيضاً. دمشق، سرغايا، الزبداني، بلودان. . يا الله كم من الذكريات الجميلة له هنا!. ولكنه كان من التعب بحيث أغفى دون أن يشعر، فقد كانت رحلة طويلة بالفعل، من لوس أنجلوس إلى لندن، ومنها إلى دمشق دون توقف للراحة. واستيقظ في مدينة «المصنع» اللبنانية على الحدود، حيث كانت هناك سيارة مرسيدس سوداء أخرى تنتظرهم لتقلهم إلى داخل لبنان. لم يكن من الضروري تغيير السيارة، ولكن صالح وجد أنه من الأفضل أن لا يكون معهم سيارة رسمية سورية في لبنان، ولكنه أصر على مرافقة الضابط السوري حتى الوصول إلى المصح.

كل شيء في الطريق كان يوحي بتلك الأيام الجميلة الماضية، وهذه الأيام التي أفلت فيها العقل من عقاله. ما زالت المصائف التي يمرون بها جميلة الطبيعة، ولكن دخان البارود وقذائف المدافع شوهت الإنسان والمكان معاً. من يصدق أن هذه هي شتورة، وتلك بحمدون، وهذه هي عاليه، وفي الأسفل هناك صوفر وحمانا؟. . متاريس في كل مكان، وحواجز مفاجئة في كل منعطف، ولبنانيون ليسوا كاللبنانيين الذين عرفهم يوقفونهم في كل مكان، والكل يسأل عن الهوية، التي أصبحت الحد الفاصل بين الحياة والموت. مجرد قطعة من الورق، تحمل معلومات لم يكن لصاحبها خيار فيها، أصبحت هي الحد الفاصل بين الحياة والموت. أعبث أكثر من هذا؟. . سؤال كان يجول حائراً في ذهن صالح.

كانوا يسيرون بسهولة ويسر من حاجز إلى حاجز، لا يهمهم إن كان حاجزاً لهذا الحزب أو ذاك، هذه الطائفة أو تلك، ولكن سيارات كثيرة كانت موقوفة على جوانب الحواجز، وكان أصحابها يرتعدون فرقاً وهم يرون فوهات البنادق والمدافع الرشاشة مستعدة لقذف مخزونها من الرصاص في رؤوس أشخاص كل ذنبهم أن حظهم العاثر ألقى بهم في هذه البقعة من المكان، وفي هذه اللحظة من الزمان. ليس هذا هو لبنان الذي عرفه صالح قديماً، وليسوا هؤلاء هم اللبنانيون الذين تعامل معهم في أيام خلت.

وفي وسط بيروت، في منطقة الأسواق التي كانت لا تهدأ، وفي ساحة الشهداء وما يحيط بها من الأحياء البيروتية الشهيرة، كان الجحيم والدمار والبؤس قد اتخذ مركزه هناك. . لا . . ليست هذه هي بيروت التي كان يعرفها، وهو لا يريد اليوم أن يعرفها. . كيف يمكن للإنسان أن يدمر جنته بيده؟ . . كان هذا هو السؤال الذي يحرق صالح من الداخل، ولكنه لا يجد له جواباً. أراد أن يناقش الضابط السوري الذي معه في الموضوع، من باب قتل الوقت ليس إلا، ولكنه كان يعلم ما سيقوله الضابط السوري من وجهة نظر معروفة، فعدل عن الكلام، واستسلم لتأمل الخراب حوله، وأصوات الرصاص تأتيهم من بعيد ملعلعة، فيما كانت لطيفة قد توقفت عن مص إبهامها، وإن بقي محشوراً في فمها، وبدت عيناها وكأنهما تنظران إلى مدينة كانت قطعة منسية من جنة الخلد، فإذا بها تتحول إلى جمرة من نار السعير. وانسلت دمعتان خجولتان من عيني لطيفة، فيما كانت السيارة تقف عند حاجز آخر يعترض السيارة في الطريق إلى الجبل. .

الديجور

كانت بدرية هي الأكثر افتقاداً لأمها. فرغم الخصومات التي كانت تدور بينهما حول سلوك بدرية الذي لم يكن يروق للطيفة، إلا أن الاثنتين كانتا تعلمان أن هنالك خيطاً وجدانياً خفياً يربط بينهما بشكل غريب. لم تكن القضية قضية أم وابنتها، ولكنها كانت شيئاً أعمق من ذلك وأكبر بحيث لا يمكن التعبير عنها بالكلمات المعتادة. وشعرت بدرية بالكره لنفسها وهي تتذكر تلك الأيام التي كانت تتخاصم فيها مع أمها لعدم ثقتها فيها، ولاعتقادها بأن مشاعل هي المفضلة لديها. كانت تعلم بأن أمها كانت تتنصت على مكالماتها الهاتفية مع صديقاتها اعتقاداً منها بأنها كانت «تغازل» أحدهم على التليفون. وتبتسم وهي تتذكر تلك الأيام. .لقد كانت أذكى من أمها بمراحل، إذ ما إن تطمئن أمها إلى أن المتحدثة هي نورة أو غادة أو نجوى، صديقاتها المفضلات، حتى تغلق السماعة، وتتصل بحمد ومحمد وفيصل وفهد. .

كان هناك نوع من اتفاق «الجنتلمان» بينها وبين صديقاتها المفضلات يقوم على قاعدة «امسك لي واقطع لك». تتصل بهن في ساعة معينة لطمأنة الوالدة، ثم تبدأ المحادثات الأعذب بعد ذلك. لا تدري لماذا يضيق الأهل من حديثهن مع الشباب، فهي لم ولن تمكّن أي شخص من التغرير بها لمجرد الحديث. ولكن فلسفة أمها في هذا المجال هي فلسفة جدتها ذاتها، رغم البون الزمني والثقافي الذي يفصل أمها عن جدتها: المرأة كالزبدة، والرجل كالشمس، ولا تلتقي الزبدة والشمس أبداً. كانت تسخر من فلسفة أمها وجدتها هذه، فالفتاة لا يمكن أن تعطي إلا إذا أرادت أن تعطي، وحين ذاك لن يستطيع أحد أن

يمنعها من العطاء، حتى لو أغلقوا عليها في صندوق من حديد، تحرسه طلاسم من أيام سليمان وعفاريته ومردته. بل إن شدة الحرص، وحس الحماية الزائدة، قد يدفع الفتاة إلى تحدي هذه القيود لمجرد التحدي، فتلقي الزبدة نفسها في عين الشمس تمرداً وانتحاراً، كما الفراشة حول الضوء، وما كانت لتفعل لو أن الأمور تركت لطبيعتها، وكانت الثقة المطلقة هي أساس العلاقة.

نعم.. قد تحدث أمور لا تحمد عقباها، ولا تكون في الحسبان، ولكن تلك الأمور تبقى خروجاً على القاعدة، أو ما يجب أن يكون القاعدة، والشذوذ لا ينفي القاعدة بأي حال من الأحوال، حتى في مجتمع مثل مجتمعهم. كانت تناقش أمها في مثل هذه الأمور كثيراً، ولكنها كانت تستغرب كيف أن أمها، رغم كل تلك الثقافة التي تتمتع بها، ورغم انفتاحها الثقافي الكامل في أمور أخرى عديدة، إلا أنها كانت في غاية التشدد فيما يتعلق بالعلاقة بين الرجل والمرأة. كانت تقول لها إن الرجل عندنا لا يرى من الفتاة إلا جانباً واحداً، بل زاوية واحدة، وهي أنها فريسة إما أن تكون له أو لأخيه أو للذئب، وما عدا ذلك مجرد خيالات أو أمنيات. وكانت أمها مبالغة بعض الشيء في مثل هذا الأمر، وكانت بدرية مقتنعة ببعض ما تقول أمها، ولكن ذلك لا يعني أن يبقى ذلك قاعدة مطلقة لا يمكن أن تتغير.

كانت بدرية تحاول أن تقنع أمها بمنطقها هذا، ولكن أمها كانت في النهاية تختم النقاش بقولها إنها تعلمت الكثير في حياتها، ولا تريد لابنتها أن تعاني ما عانت. ولكن بدرية تتشبث برأيها، وترى أنها يجب أن تكتسب الخبرة بنفسها، لا أن تعطى لها جاهزة. فالخبرة المكتسبة مباشرة أكثر نفعاً من تلك التي تأتي جاهزة من تجارب وخبرات الآخرين. صحيح أن الجيل القديم يريد بحب أن يقدم خبراته التي يعتقد أنه عانى كثيراً في سبيل اكتسابها، ولكن الجيل الجديد يريد أن يكتسب خبراته الخاصة من تجاربه الخاصة ووفق نظراته الخاصة، وهنا تكمن فجوة سوء الفهم والاتصال بين الأجيال.

لم تكن بدرية تتحدث عن مجرد العلاقة بين الرجل والمرأة في هذا المجال، ولكن بشكل عام. ولكن عند هذا الحد، كانت عينا لطيفة تحمران بشكل غريب، وترتجف أطراف أنفها بشدة، كما هو حالها عندما يشتد غضبها، وتقول

بحسم وصرامة: «رأسك ناشف، بل هو أنشف من الصوان..»، فترد عليها بدرية باسمة: «بنت أمي..»، ولكن لطيفة ترد عليها بصرامة: «إذا حصل منك ما أكره، فلا تعرفيني ولا أعرفك. وسيكون لك شأن آخر مع والدك..». وترتجف بدرية من مجرد ذكر والدها، وهي تعلم أن المسألة معه لن تكون مجرد نقاش. وتنظر إلى أمها، وتتابع ارتجاف أطراف أنفها، وتبتسم.. كم تبدو أمها جميلة وهي غاضبة، لدرجة أنها تتمنى لو كانت غاضبة على الدوام. كانت تبدو فاتنة وهي غاضبة. كم تشتاق اليوم لرؤية والدتها، وتلك النقاشات التي بدت لذيذة في هذه اللحظة، ولا تملك إلا أن تترك العنان لدموعها تغسل ما يمكن غسله مما يعتمل في داخل كثرت نفاياته، وتداخلت ذكرياته.

ولم تعد بدرية راغبة في الحديث لأي شخص، سواء صديقاتها المقربات، أو أصدقاء التليفون في الهزيع الأخير من الليل، رغم أنها كانت عبارة عن «لسان تجسد بشراً»، كما كانت أمها تصفها ضاحكة في لحظات الصفاء. ولكن أين تلك اللحظات. هل يمكن أن تعود؟. أم أنها ذهبت بلا رجعة؟. كما لم تعد تجد لذتها في التسكع بين المطاعم والأسواق، وأصبح المنزل زاوية لا تريد أن تبرحها رغم محاولة الصديقات. لقد بدا كل شيء قاتماً وحزيناً. حتى الفرح ذاته انتفى منه الفرح. كانت تجوس خلال البيت، فتدخل هذه الغرفة، وتخرج من تلك، وكل شيء حولها يذكرها بأمها. هنا كانت تشرب شاي العصرية، وهناك كانت تلاعب طارقاً، وفي هذا المكان كانت توبخ خالداً في أنصاف الليالي، وفي تلك الزاوية كانت تقرأ حين تجد لنفسها فسحة من الوقت. كل شيء يذكرها بأمها، حتى رائحة الهواء المحيط كانت تحمل ريح لطيفة. ليتهم لم يسافروا بها إلى الخارج وأبقوها في منزلها، فمجرد وجودها هو السعادة ذاتها رغم كل شيء. ولت أيام السعادة، ولم يبقَ إلا أيام الشقاء. تبتسم وطلال مداح يطوف بخيالها وهو يشدو: «يا قمر صبرك شويه الهوى ما له قرار، والليالي الحلوة جيه بعد طول انتظار». «الليالي الحلوة جيه..»، لعلها تكون كذلك، وأن كل ما يحدث مجرد سحابة صيف عابرة. ولا تجد بدرية إلا مزيداً من الدموع تنحدر على وجنتيها دون شعور، عندما تتذكر ضحكة أمها، وتلك الأسنان البراقة دوماً متحدية كل عتمة.

*

أما مشاعل، فرغم افتقادها الشديد لأمها، إلا أن عقلها كان لا يهدأ. كانت تعتقد أن ما يجري أفضل لها وللجميع. كان واضحاً أن أمها كانت على حافة الجنون، وتأخير العلاج لن يكون في صالح أحد على الإطلاق. وخلال الأيام التالية لرحيل أمها، كانت تحاول أن تحلل ما جرى، ولماذا جرى، وكيف وصلت أمها إلى تلك الحالة. قرأت كثيراً، وفكرت كثيراً، ولكنها لم تستطع أن تصل إلى نتيجة. فقد اكتشفت أنها لا تعرف شيئاً عن أمها سوى أنها أمها، أما عدا ذلك فلا شيء على الإطلاق. كانت ترى شقيقتها وهي سارحة والدموع لا تفارق عينيها، وتتمنى لو أنها كانت قادرة على ذرف ولو دمعة واحدة، ولكنها لا تستطيع، فتشعر بشيء من تبكيت الضمير، وشيء من الألم ينغرسان في مكان خفي من داخلها. إنها تحب أمها لا ريب في ذلك، ولكن ما بال هذه الدموع تأبى الخروج؟!.. ولكن.. هل لا يكون حزن وأسى دون دموع؟.. ليس بالضرورة.. ليس بالضرورة.

ووجد خالد نفسه ضائعاً. أسئلة كثيرة تحاصره من كل جانب: ماذا جرى؟.. كيف أصبحت أمه الهادئة الرزينة كذلك؟.. قد يكون لأسلوب حياة والده دور فيما آلت إليه حال أمه، ولكن أن تنتحر والعياذ بالله، وهي المؤمنة الصالحة؟.. هذا شيء لم يكن قادراً على فهمه أو إدراكه.. المؤمن لا ينتحر ولا يحاول الانتحار، بل ولا يفكر فيه مهما كانت قسوة الظروف. فالانتحار يأس من روح الله، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، فهل كانت أمه غير مؤمنة؟.. هل كانت كافرة؟.. مستحيل.. أمه في غاية التقوى والإيمان، فهي لم تكن تفوت فرضاً، بل وكانت تصلي الضحى، وتصوم أيام الاثنين والخميس، والأيام البيض من كل شهر، وهي التي أخذت بيده حين كاد ينحرف تلك الأيام لا أعادها الله. ماذا حدث إذاً؟.. إنه في غاية الحيرة، فالسؤال محير، والجواب أكثر حيرة. لا ريب أن أمه ارتكبت تلك المعصية في لحظة جنون، والمجنون مرفوع عنه القلم، ولن يؤاخذها الله بما فعلت. وارتاح كثيراً لمثل هذا التفسير، وعادت السكينة تحتل فؤاده، وحاول أن يغرق نفسه في اجتماعات وجلسات أصدقائه الجدد من أهل الورع والتقوى، فوجد عندهم الراحة كل الراحة، وترك الأمور لصاحبها يجريها كما يشاء.

الغسق

كان الكل كارهاً لزواج الوالد، ولكن ما العمل وهذه رغبة الوالدة نفسها. ولكن شعور الجميع بالتشاؤم من هذا الزواج، حتى قبل أن تمضي عدة أيام عليه، كان هو الطاغي على كل المشاعر، وكان صالح هو أكثر المتشائمين. ففي صباحية ليلة العرس، كان خبر محاولة انتحار لطيفة. وبعد الحادثة بأقل من أسبوع، أجهضت إيمان جنينها الأول. وعندما عاد صالح من بيروت بعد ثلاثة أشهر من الغياب والقلق واحتراق الأعصاب، وبعد أن اطمئن على وضع لطيفة، غادر خالد فجأة إلى حيث لا أحد يعلم. قيل له إنه غادر مجاهداً إلى أفغانستان مع بعض الشباب المتحمس لعودة أيام الجهاد في أفغانستان، مما يعيد ذكرى غزوات الرسول وفتوحات خلفائه الراشدين، ولكن لم يكن هناك ما يؤكد الخبر أو ينفيه. لم يترك خالد أي خبر عن وجهته أو أين اختفى، حتى لدى شقيقته المفضلة بدرية، أو زوجه الرقيقة إيمان. كل ما وجدوه في غرفة مكتبه بعد اختفائه مجموعة من الكتب الصغيرة المتناثرة في أرجاء شقته، والتي تحث على الجهاد، كان من أبرزها كتاب للدكتور عبدالرحمن عزام بعنوان: «آيات الرحمن في جهاد الأفغان»، كان واضحاً أن خالداً قد قرأه عدة مرات، كما قالت إيمان، فقد كان مهترئاً، وتكثر الخطوط الحمراء تحت جمل كثيرة بعينها، وخاصة تلك التي تتحدث عن المعجزات التي ترافق المجاهدين أينما حلوا وأينما رحلوا.

وبسؤال أصدقاء له يعملون في وزارة الداخلية، علم صالح أن خالداً قد غادر البلد إلى كراتشي، وكان ذلك آخر العهد به. لم يكن صالح مهتماً أين

ذهب خالد ولماذا، ولكن ما يهمه هو أن خالداً قد غادر إلى حيث لا يعلم. لا ريب أنه ذاهب إلى أفغانستان، فليس لديه ما يفعله في كراتشي على أية حال، وهذا هو ما يقلق صالح. لقد كان كغيره تلك الأيام، معجباً بالمجاهدين الأفغان، وتصديهم لثاني قوة في هذا العالم. كما كان متحمساً للجهاد في سبيل الله، الذي يبدو أنه قد عاد في أفغانستان، وتبرع كغيره بالكثير من الأموال لصالح الجهاد. ولكن أن يكون متحمساً للجهاد والمجاهدين، لا يعني أن يذهب ولده إلى هناك. فهو رجل ميسور، والمجاهدون يحتاجون إلى المال قبل الرجال، فلماذا يفعل خالد هذا بنفسه، ويلقي بها إلى التهلكة! هل لمأساة أمه دور في الموضوع؟ هل لزواجه الجديد علاقة بالأمر؟ بل لماذا يفعل هذا بأبيه ويحرق قلبه عليه، وهو الذي لم يجمع هذه الثروة، ولم يكن هذا الاسم الرنان إلا لأجله هو وأخوته؟ بل إنه سافر ولم يأبه بمشاعر زوجه الشابة، ولا بذلك الجنين الذي يتحرك في أحشائها. هل أخطأ عندما زوجه بالرغم من إرادته؟ ولكنه لم يزوجه مجرد فتاة، بل زوجه إيمان بنت الشيخ منصور الصماني، واحدة من الفتيات اللاتي يتمنى أي شاب أن يقترن بهن. إنه لا يدري، لا يدري. .كل شيء جائز، وكل شيء ممكن. ولكنه لا يستطيع التخلص من شعور غريب أخذ يستولي عليه من أنه مسؤول إلى حد ما عما جرى ويجري، سواء بالنسبة لمصير خالد أو أمه.

وما يجعل صالحاً يشعر بالحرقة أكثر، هو عدم استشارة خالد له في قراره وسفره. وابتسم وهو يصل إلى هذا الحد في تفكيره، إذ لو استأذنه أو استشاره، لما أذن له، ولكن هل من يأخذه الحماس للجهاد إلى هذه الدرجة سوف يطيع والده في منعه؟ بل ربما كان سفر خالد واختفاؤه نوعاً من التمرد عليه، قبل أن يكون حباً في الجهاد الخالص؟ وابتسم صالح بأسى وهو يصل في تفكيره إلى هذا الحد، وبدت أمامه حياته كلها وكأنها كانت صرحاً من سراب بدأ في التبدد والانقشاع، فشعر بالحزن يعصره من كل جوانبه. ولم يجد في النهاية أمامه إلا أن يدعو العلي القدير أن يأخذ بيده في هذه المحن التي تتوالى، وإلا فإنه إلى الضياع يسير.

شيء واحد كان صالح واثقاً منه كنور الشمس في رابعة النهار، في ظل هذه العتمة التي تلف كل شيء حوله، وهو أن يوم زواجه من جواهر كان

يوم شؤم وخراب بيوت. ألم يقل النبي الكريم إن الشؤم في ثلاث: البيت والمرأة والدابة. وانعكس ذلك التشاؤم على معاملته لها. تحولت ملاحتها التي جذبته وأسرته ذات عصرية قديمة في الملز، إلى قبح كان يتراءى له حتى في بسمتها التي كانت أجمل ما فيها. ورغم أنها كانت تحاول إرضاءه بكل وسيلة ممكنة، إلا أنه بقي جاف المعاملة، دائم التكشير، يختلق أتفه الأسباب للتشاجر ثم لا يلبث أن يترك الشقة التي لم يمكث فيها إلا ساعة أو بعض الساعة، بعد أيام طويلة من الغياب، ولا تجد المسكينة ملاذاً لها إلا الدموع، أو الذهاب إلى شقيقتها «أم محمد» تشكو لها سوء حظها في زواج انتظرته طويلاً. وتحاول شقيقتها المجربة أن تهدئ من روعها، وتشرح لها الظروف التي يمر بها صالح، وأنه لا ريب سيعود إليها رجلاً ولا كل الرجال بعد أن تنقشع الغيمة، فتهدأ جواهر قليلاً، وتدعو رب الخلق أجمعين أن يكون كلام شقيقتها صحيحاً، فتعود إلى بيتها وكلها رجاء وأمل.

ولكن الأيام تمر، والشهور تنصرم، وصالح لا يتغير، ولا يبدو في الأفق أنه من الممكن أن يتغير. بل إنه يزداد جفوة وقسوة مع الأيام. وأخذت جواهر تلاحظ نظرات غريبة في عيني صالح كلما جاء في زياراته النادرة إلى الشقة، لم تستطع لها تفسيراً. كانت مزيجاً من نظرات الشك والاحتقار، ولكنها لا تجزم بشيء، وهو لا يقول شيئاً منذ أن يدخل حتى يخرج. وبدأت تلاحظ أن هناك سيارة بعينها تتابعها عندما تخرج في زيارة لبيت شقيقها، أو عندما تذهب إلى أحد الأسواق، فكانت تشعر بالرعب يجتاحها، حتى تأكدت لاحقاً أن ذلك كان سائقاً يعمل لدى صالح. وبدأت تشعر أن سائقها الخاص وخادمتها كانا يتجسسان على كل حركاتها وسكناتها، ولكن لماذا يراقبها صالح؟.. لماذا؟.. فهي لو أرادت أن «تلعب بذيلها» من ورائه، لوجدت ألف وسيلة ووسيلة. بل لو أنها لم تكن تحبه، لما وافقت على الزواج منه أصلاً، ولما استسلمت له في الليلة الأولى من ليالي الزواج الطويلة، خلافاً لكل عادة وكل تقليد، وخلافاً لنصائح شقيقتها «أم محمد». لقد كانت ميسورة الحال في بيت شقيقها، وليست من عاشقات الثروة الطائلة، ولم يكن المال هو دافعها للزواج من «الشيخ أبو خالد». وصارحته بالأمر في إحدى زياراته التي أصبحت نادرة مع الوقت، وعندما فاض بها الكيل، ولكنه أنكر شكوكها وخيالاتها، كما

وصف ما صارحته به، جملة وتفصيلاً، وجعل من سؤالها مجالاً لشجار، غادر بعده المكان لأيام طويلة.

إنها واثقة أن الذي يتبعها شخص يأتمر بأمر صالح، وأن السائق والخادمة يصدعان بما هما مأموران به، ولكن لماذا؟.. أيشك في سلوكها وهي التي وقع في خاطرها منذ أن كانت تراه عندما كانوا جيراناً لهم في الملز، وتعلم أنها قد أسرت لبه حين التقاء النظرات في تلك العصرية. لقد تقدم لخطبتها كثير من الشبان الذين يبهجون الخاطر في وسامتهم وفتوتهم، وكان لها مغامرات لم تتجاوز حدود العفة مع آخرين، ولكنها فضلته على الجميع، وهي التي كانت رافضة لفكرة الزواج لمجرد الزواج، فقد بدا لها صالح رجلاً كاملاً، والكامل وجه الله، قادراً على منحها دفء الحنان وارتواء الأبدان، ولكن هاهو الحرمان يحيطها بصقيعه. وطوال فترة زواجها لم يبدر منها ما يثير الريبة أو الشبهة، حتى أنها لا تغادر الشقة إلا لزيارة أهلها، أو لقضاء حاجة في السوق، أو لزيارة صديقة قديمة، وهي تستأذنه في كل حركة تتحركها، ولم يبدر منها ما يمكن أن يثير شكه، بل إنها تحاول المستحيل لإرضائه، حتى لو كان ذلك على حساب كرامتها المهدرة.. فبمَ يشك إذاً؟

وتبتسم وهي تستعيد ذكرى أيام الزواج الأولى، حين كان صالح منشغلاً بلطيفة وسفرها. لم تكن تدري كيف تصف مشاعرها آنذاك.. فهي مسرورة للزواج من الرجل الذي وقع في خاطرها منذ رأته لأول مرة، ولكنها في الوقت ذاته حزينة، وذلك مثل شراب بالحنظل والعسل معاً، من أن سعادتها سوف تكون على حساب امرأة أخرى.. فهي تعرف أم خالد منذ زمن بعيد، وهي جديرة بكل حب واحترام، كما أنها هي من خطبها لزوجها، وحقق لها أمنية من أماني العمر.. ولكنها اليوم ضرتها، ولا تستطيع منع نفسها من التفكير في أنهما تتنافسان على رجل واحد، وعلى قلب واحد. لطيفة مريضة.. أخذت تكرر هذه العبارة في ذهنها، وهي تحس بالتمزق الشديد بين ذاتين كل منهما يدعي أنه هو ذاتها: ذات تقول إن الطريق قد أصبح ممهداً أمامها لتكون هي المرأة الوحيدة في حياة صالح، فلتسعد بهذه النتيجة. وذات تقول إنها يجب أن تشعر بالحزن الشديد، فمن هو صالح، أو أي رجل آخر، حتى تبتهج بامتلاكه بثمن باهظ لا يتحمله إلا قساة القلوب، وهو مأساة

شخص آخر؟ . . يا لسخرية الأيام، فبعد أن كانت تمني النفس بامتلاك قلب هذا الرجل، هاهي اليوم تتمنى لو أنه يمنحها مجرد بسمة عابرة ليس إلا . . فعلاً يا لسخرية الأيام . . وتعود إلى دموعها، لعلها تغسل شيئاً مما يتراكم في داخلها.

*

كان الشك ينهش قلب صالح، فهو لم يستطع أن ينسى تلك النظرات التي جذبته إلى جواهر تلك العصرية، والتي فسرها تفسيراً خاصاً تلك الأيام، وهو الذي يعتبر نفسه خبيراً بالنساء ولغة العيون . . ألم يقولوا إن الصب تفضحه عيونه؟ . . فكذلك نزوات كل شخص تفضحها عيونه . . العيون نوافذ الروح . . طيبة تلك الروح أو شريرة . . وجواهر لم تكن تلك المرأة الفاضلة . هكذا قالت عيونها. وكلما عادت به الذكرى إلى التقاء العيون تلك العصرية البعيدة، أحس صالح بنيران شهوة الشباب تعتمل في داخله، ولكن كل ذلك كان يخبو فجأة عندما يتذكر أن جواهر أصبحت زوجاً له. لقد أروى ظمأه منها بسرعة عجيبة لم يتوقعها، ولم تكن بتلك اللذة والحرارة اللتين ألهبتا خياله تلك الأيام، ولم يعد راغباً فيها على الإطلاق هذه الأيام. ذهبت اللذة العابرة التي كانت منتظرة، وبقيت تلك النظرات القديمة تنهش القلب منه والروح .

لقد أطفأ نيران شهوته في الليلة الأولى من الزواج. وفجأة أحس بشيء كحقيقة المتصوفة ينجلي له فجأة ودون ستر. لقد مكنته جواهر من نفسها في ليلة الزفاف، بل وكان من الممكن نيلها حتى قبل ليلة العرس، وكأنها كانت على عجلة من أمرها، فكيف يكون ذلك من فتاة عذراء لم يسبق لها أن انفردت برجل غريب في حياتها؟ . . أم أنه سبق لها ذلك؟ . . إنه يذكر أن لطيفة لم تستسلم له إلا في الليلة الثالثة، وعلى استحياء شديد، فما بال هذه «ما صدقت على الله»؟ . وأخذ يستعيد لحظات تلك الليلة بالتفصيل لأول مرة منذ زواجه . . شرب كثيراً، واستسلمت له جواهر بسهولة بعد ساعة من حديث لم يعد يتذكره، ولكنه كان حديثاً عذباً. لقد حقق ما يبتغيه، وهو الذي كان يتوقع بعض المتاعب.

جامعها تلك الليلة عدة مرات، وبشبق لم يعهده منذ زمن بعيد. كانت

جواهر ترتجف بين يديه بمتعة واضحة، تفوق لذته بمراحل، مما أعطاه إحساساً بفحولة كان يظن أنها قد غادرته منذ زمن بعيد. وفجأة، أحس وكأن ذاته ترتجف بقوة من الداخل. . لم تصرخ جواهر تلك الليلة. . العذراء لا بد أن تصرخ ألماً تلك الصرخة التي لا بد منها. . هكذا علموهم. . ولكنها لم تصرخ. . هل كانت عذراء؟ . . وشعر بالندم الشديد على أنه لم يأبه لتلك المسألة تلك الليلة، وإلا قلب الفراش رأساً على عقب حتى يرى قطرات الدم القانية تلوث الشراشف البيضاء. . يا له من غبي. . بل يا له من أحمق. . كيف فاتته هذه المسألة؟ . . كلا لم تفته، ولكن محاولة انتحار لطيفة صباح اليوم التالي، لم تمكنه من فعل أي شيء، أو التفكير في أي شيء.

ويبتسم بأسى. . كم أنت محظوظة يا جواهر، لقد أنقذتك لطيفة دون أن تشعر أو تشعرين. . لا ريب أنها لم تكن عذراء، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً حيال ذلك اليوم. واليوم هي زوجه، فمن يضمن له أنها لا تقابل شباناً من ورائه، وهي التي لم تتجاوز الخامسة والعشرين إلا بقليل، فيما هو ينحدر بسرعة نحو الستين؟ . . ويحس بالغضب الشديد يتملكه وهو يتخيل جواهر عارية بين يدي شاب غريب، وتنظر إليه من بعيد وهي تضحك ضحكة شيطانية، وتمد له لسانها، فيود في تلك اللحظة لو أنه كان قادراً على خنق روحها الشريرة، وذاتها الخائنة، ولكن. . الفضيحة!! من ينجيه من الفضيحة لو فعل ذلك؟ . . لِم لا يطلقها ويستريح؟ . . ولكنه قد يكون ظالماً لها، فماذا يقول الناس، بل وماذا يقول لأهلها تبريراً لفض زواج لم يكمل خمسة أشهر؟ . . بل وماذا يفعل بهذا الجنين الذي يتكون في أحشائها؟ . . يا له من غبي. . كيف جعلها تحمل، ولماذا لم يجعلها تتناول موانع الحمل؟ . . كيف لم ينفذ شرط لطيفة في أن لا تحمل جواهر؟ . . لعلها كانت تعلم شيئاً لا أعلمه، أو لا تعلمه إلا النساء؟ . . كم أنا غبي. . ولكنها الشهوة قاتلها الله. . أليست الشهوة هي التي دفعت سيدنا وأبانا آدم إلى معصية من جبله بيديه مباشرة؟ . . وما نحن إلا أبناء آدم. . نحن أبناء آدم.

وانتفض كأن ماساً كهربائياً قد صعقه. . من يضمن أن هذا الجنين منه؟ . . قد يكون من أحد عشاقها الكثيرين. . لطيفة لم تحمل بعد طارق، رغم أنهما لم يستخدما أية موانع للحمل إلا بعد فترة طويلة، فكيف حملت هذه

القحـ. . .أستغفر الله العظيم. .أستغفر الله العظيم. .كيف حبلت هذه المرأة بهذه السرعة؟. .ربما كانت حبلى عندما تزوجتها، ولذلك وافقت على الزواج بسرعة، وهي التي كانت مضربة عن الزواج قبل ذلك. .بل ربما كان أهلها يعلمون بذلك، فوافقوا على الزواج بهذه السرعة الرهيبة؟. .أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم. . مستحيل ذلك. . مستحيل، وإلا كان شقيقها امتص دمها قطرة قطرة. .ولكن. .جنين من هذا الذي في أحشائها؟. .جنين من؟. . لا يمكن أن يكون من صلبي. . ولكن ما أدراني؟. .كلا إنه ليس مني. . أللهم اخزك يا شيطان. .ويبقى صالح يدور فوهة بركان من الحيرة والريبة والجنون، وهو يكاد يكون فيها من الهاوين.

وبدون إرادة منه، كان يقارن بين جواهر وبين لطيفة. .شتان. .فرق بين الثرى والثريا. .بين الشيطان والملاك . .لطيفة كانت مثال المرأة الكاملة، ونموذجاً مجسداً للعفة والفضيلة، ومجرد مقارنتها بجواهر ظلم كبير لها!. لطيفة. . ليس لها مثيل، ولكن أين هي لطيفة. .ويشعر بالأسى يستولي عليه من جديد، كما أصبح ديدنه هذه الأيام، ولا يشعر إلا ودمعة تحفر أخدوداً على صفحة خده الجاف وهو عنها من الساهين.

ثقوب في خمار أسود

نظر الدكتور سليم كزبرة في التقارير التي أمامه وأخذ يفكر. . تقرير الدكتور يسري المفك من الرياض يرى أنها تعاني من حالة شيزوفرانيا حادة، واكتئاب ذهاني مستبد، وقلق وسواسي. خليط عجيب من الأمراض، وتقرير غامض لا يعني شيئاً. تقرير المستشفى الأميركي يقول إنها حالة اضطراب ذهاني حاد Acute Psychotic Disorders، ولكن المريضة لم تستمر في المستشفى حتى يمكن فحص حالتها بالكامل، رغم أن الفحص المبدئي يرى أنها حالة سيكوباتية شبه ميئوس منها، ومن المفترض أن تبقى في مصح عقلي بقية حياتها، فهي خطر على نفسها وعلى المحيطين بها لو بقيت خارج مصح.

نظر الدكتور سليم إلى كل هذه التقارير، وأشعل سيجارة أخذ يمتصها بلذة وهو يبتسم من أنه ما زال في المرحلة الفمية رغم تجاوزه الستين من العمر، وأخذ يملس على صلعته الملساء اللامعة وهو يفكر. . تحد جديد يواجهه. . وامرأة من مكان كان المعتقد أنه خال من كل أمراض النفس التي يعرفها عالم اليوم. . مكان كما الجنة في بداية الخلق، لا فاقة ولا عقد. . فرصة لا تعوض. . لتكن لطيفة الأثلة هي الحالة التي يختم بها حياته المهنية، فهو يفكر منذ زمن في ترك العمل في المصح، والتفرغ للبحث بعد أن توفرت له مادة خام جيدة طوال ربع القرن الذي قضاه فيه، فقد كان القلق مسيطراً عليه من حيث أنه جاء إلى المهنة ولم يفعل شيئاً سوى ممارسة التحليل، وكتابة كتب أكاديمية مدرسية حول علم النفس والطب النفسي. ولكنه يريد أن يثبت شيئاً في هذا المجال. . يريد أن يطرح جديداً هنا. لقد انطلق فرويد من عيادته في

فينا، ومن النساء البرجوازيات هناك، وهو يريد أن ينطلق كما انطلق ذاك اليهودي التائه...

إنه يعيش في مجتمع مزقته الحرب، وفي بقعة من العالم تعتقد أنها سوية النفس والجسد، ولكنها في غاية الشذوذ. وفي ظل زعامات تعتقد في نفسها القوة، ولكنها في أعماقها تشعر بالدونية، ولأجل ذلك هي تسحق الآخرين. ولكن المشكلة هي أنه لم يضع يده على حالة فردية معينة يمكن من خلالها تحليل كل ذلك، وهاهي لطيفة تعرض نفسها عليه..لا يستطيع الثقة المطلقة في التقارير التي أمامه، ففيها من الخلط والاضطراب الشيء الكثير، وهي تتأرجح في تحديد الحالة بين العصاب والذهان، أو هما معاً. ولكن.. قد تكون الحالة التي أمامه نوعاً جديداً من العصاب، أو نوعاً جديداً من الذهان، أو هي حالة يلتقي فيها العصاب بالذهان، أو ربما حالة خاصة لا علاقة لها بعصاب أو ذهان، فما هذه التصنيفات إلا مفاهيم وضعها العلماء، ولكنها لا تعبر تماماً عن زخم الحياة وتفاعلاتها. وربما خرج من هذه الحالة التي بين يديه بمفهوم جديد في علم النفس يجعله من الرواد، والذين تركوا بصمتهم في هذا المجال..هذه هي فرصته التي طالما انتظرها لتقديم شيء جديد..فقد تكون حالة لطيفة الأثلة الفردية، مجرد تعبير عن حالة عصاب جماعية عامة، بل وحتى ذهان عام، وربما لا تكون كذلك..المهم..لقد بدأت خلايا الحماس وذرات النشاط تدب في نفسه من جديد، وهو نفسه الذي كان يستعين بمضادات الاكتئاب، في بيئة بدا له وكأنها فقدت عقلها جملة وتفصيلاً..بل فقدت عقلها بالفعل. فما يجري أمامه من ذبح على هوية لا خيار لصاحبها فيها، أو تدمير ما بنت اليد في سنوات في مجرد لحظات، أو وأد فرحة الميلاد بأسى الموت دون هدف ولا مبرر، لا يمكن أن يُفسر إلا بكلمة واحدة..الجنون..فقد يمرض الأفراد عصابياً أو ذهانياً، ولكن المجتمعات تجن..نعم تجن.

*

– اسمي لطيفة..لطيفة بنت صالح بن محمد بن صالح بن عبدالرحمن بن عبدالعزيز بن محمد بن حميدان الأثلة..

ثم وهي تضحك:

ـ لا أدري من أين أتت الأثلة، ولا تسألني عنها. . ربما كان جدنا البعيد أثلة. . اعتبرها طوطماً من طواطمنا. . لا ريب أنها طوطماً من طواطمنا.

وتضحك حتى تدمع عينيها، ثم تقول:

ـ طوطم! . . من أين جاءت الكلمة؟ . . يمكن من طوط طوط. . أخبرونا يا أهل النفس.

ثم تهدأ وتمسح عينيها بيدها وهي تنشق بقوة، ثم تبتسم باعتزاز وغرور وهي تقول:

ـ لا تستغرب يا دكتور، فلقد قرأت في علم النفس كثيراً. . ربما أكثر منك.

وتصمت قليلاً قبل أن تقول بلسان أثقلته الأدوية:

ـ على فكرة! . . أسمك كزبرة أم كسبرة، أم هو شيء آخر؟

ثم وهي تحاول كتم ضحكة تخرج من أنفها:

ـ من أين أتاك لقب «كزبرة»، أو «كسبرة»؟ . . هل لذلك علاقة بالكزبرة؟ . . أم أن له علاقة بفرج المرة؟ . . ربما كان أصله «كسمرة»، ولكنكم حرفتموه خجلاً. . لا تخجل يا دكتور. . أخبرني.

ثم وهي تضحك من أنفها:

ـ من غير المعقول أن يكون طوطمكم كزبرة. . البقدونس أحلى.

ثم وهي تنخر:

ـ بل وحتى الكراث. . هل تعرفه؟ . . أكيد أنكم لا تعرفونه في هذا البلد. . . على فكرة. في أي بلد نحن؟ . . أكيد لسنا هناك، فماذا يكون هنا.

وتستمر لطيفة في الحديث بمثل ذلك، فيما كان الطبيب يبتسم، وهو يقول بآلية من اعتاد أي شيء وكل شيء:

ـ كلها نباتات طيبة على أية حال. . لا عليك مني، المهم أنت. . من أنت؟ . . تحدثي واعتبريني غير موجود.

صمتت لطيفة لبرهة، وأحست أنها ارتكبت ذنباً لا يغتفر، ثم قالت وقد احمرّ وجهها خجلاً، وبصوت واضح الارتجاج:

ـ باستطاعتي أن أصل بسلسلة نسبي إلى شيت بن آدم إن شئت.. فهل تريد ذلك؟.. لا أظن.

وتضحك من جديد وهي تقول:

ـ يكفي لنوح ربما.. أو ما رأيك بسام بن نوح؟.. اليهود يريدونه لهم وحدهم، ولكنه أب الجميع.. ما رأيك؟.. تبي الصراحة يا دكتور؟.. أنا أرى أن حام أفضل من سام.. فهو يبدو مظلوماً بالنسبة لي، وعوقب على ذنب هو بريء منه.. أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم.. أوقعت نفسي في ذنب عظيم.. أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم.

ثم وهي تعود إلى الاسترخاء من جديد:

ـ متزوجة من صالح.. صالح بن إبراهيم بن محمد الأثلة... الخ.

ثم وهي تضحك من جديد:

ـ لا تخلط بين أبي صالح وزوجي صالح يا دكتور..

ثم وهي تهز سبابتها في الهواء بشكل مسرحي، وقد ارتفع حاجباها الكثيفان وهي تقول:

ـ ترى الخلط في هاذي الأمور ما هوب زين.. الخلط في مثل هذه الأمور يعني دم.. دم.. دم.. دم.

أخذت لطيفة تردد الكلمة الأخيرة وصوتها يعلو بعد كل مرة تردد فيها الكلمة، وقد غارت عيناها وهما تنظران بعيداً إلى لا شيء قبل أن تقول:

ـ وإياك وفلتات اللسان يا سليم، فهي تعبير عن مكنونات الوجدان.. ألم يقل لك فرويد ذلك؟.

ثم وهي تضحك:

ـ كنت أعتقد أن اسمه فريد، عندما قرأته لأول مرة، ولكن مشاعل صححت لي الاسم..

ثم بعينين مغرورقتين:

ـ مشاعل. . كم أتوق لخالد وطارق. . بدرية شقية، أما مشاعل فالله يكملها بعقلها.

ثم وهي تنظر إليه بعينين حمراوين جاحظتين:

ـ هل العقل نعمة أم نقمة يا سليم؟

وتعود إلى الاسترخاء، فيما يبتسم الطبيب وهو يحضها على مواصلة الحديث:

ـ دعك من العقل الآن. . ماذا عنك أنت؟. . قلت إنك متزوجة من صالح. . ثم. .

ـ أنا أم خالد وطارق وبدرية ومشاعل، وشقيقة محمد وعبدالرحمن وقماشة ومنيرة. . اسم أمي. . ولاً تدري، بلاش اسم أمي. . ولاً تدري. . اسمها هيلة. . تدري وشي الهيلة يا دكتور؟. . أسكن في العليا في الرياض. . ولدت في قرية منسية من قرى نجد اسمها. . ولاً أقول لك بلاش اسمها. . أو تدري. . اسمها روضة النعيم.

ثم وهي تضحك:

ـ أو نقرة الجحيم. . لا تغرّك الأسماء يا سليم، فلم تعد قريتنا بروضة، ولا هي تعرف النعيم. . لم يعد في نجد إلا الأسماء.

ثم وهي تعود إلى شبك ذراعيها على صدرها:

ـ نجد. . هل تعرفها يا سليم؟. . من الأفضل ألا تعرفها، فنجد قاسية على نفسها وعلى أبنائها. . حتى العشاق فيها أصبحوا من المجانين. . ولاً أقول لك. . يجب أن تعرفها، فأنت عربي، أليس كذلك؟. . أكيد سمعت قول الشاعر: الا يا حبذا نفحات نجد، وريا روضة بعد القطار. . وقول الآخر: تضوع أرواح نجد من ثيابهم، يوم القدوم لقرب العهد بالدار. .

ثم وهي تضحك، وتفرقع باصبعيها:

ـ بس هذا كان زمان. . زمان. . زمان. .

وتستمر في ترديد «زمان» عدة مرات، ثم تستند على جذعها فجأة، وتحدق في الدكتور لبرهة، ثم تعود للاسترخاء وتقول:

ـ شكلك لا يقول إنك عربي. . لا تشبهنا. . ولكنك لبناني. . أي عربي. . أليس كذلك؟.

تصمت للحظة ثم تعود للحديث بهمس:

ـ قيس وليلى، وعنترة وعبلة، وحاتم الطائي، وامرؤ القيس، وأعشى قيس، وكليب والمهلهل وجليلة، كلهم من هناك. . كلهم من نجد. . ولكني لا أدري ماذا دهى نجد؟. . كانت جميلة وتغيرت. . لماذا يا دكتور. . لماذا؟

ثم وهي تضحك بهمس:

ـ على فكرة يا دكتور. . هل تعرف جليلة؟

ثم بنوع من الغنج:

ـ يقول ابني خالد إني أشبهها. .

تنهض، وتصلح من شأن شعرها، ثم تسترخي وتقول، وعيناها معلقتان بالسقف:

ـ ومسيلمة وسجاح من هناك أيضاً. .

ثم تضحك بصوت كصوت فأر محاصر وهي تقول:

ـ لقد كان مسيلمة كذاباً. . لقد كان رجلاً. . والرجال كذابون ما لم يثبت العكس. . أما سجاح. .

تأخذ نفساً عميقاً، ثم تقول بزهو واضح:

ـ هل تصدق يا دكتور؟. . لقد ظهرت نبية في نجد. . ولكنهم قهروها. . قهرها الرجال.

ثم تستغفر بعجلة عدة مرات، وتصمت لبرهة قبل أن تقول:

ـ لقد كانت كذابة لا شك في ذلك، ولكنها لم تكن تدري أنها كذابة. . كانت مخدوعة. . كانت مسكينة. . كل امرأة مسكينة.

تضحك باقتضاب ثم تقول:

ـ ولكن أتدري؟ من الأفضل ألاّ تعرف نجداً.

ثم وهي تضحك بحبور طفل صغير:

ـ فأم دحيم من هناك أيضاً. . وأم دحيم امرأة. .

ـ من هي أم دحيم يا لطيفة؟

وتضحك لطيفة من جديد وهي تقول:

ـ أم دحيم! . . أم دحيم هي أم دحيم. . عجوز لا يمكن أن تجدها إلا في نجد.

ثم وهي تنظر بعيداً إلى لا شيء:

ـ وكل العالم أصبح نجداً.

ثم وهي تضحك:

ـ تصوم وتصلي، ولكنها خبيثة. . حية رقطاء. . هل تظن أنها من نسل الحية التي أدخلت إبليس إلى الجنة؟ . . لا أعتقد أنها من بنات حواء. . ما رأيك يا دكتور؟

وتضحك بحبور طفل من جديد، ثم تتنهد وهي تقول:

ـ صبا نجد أرق نسيم في الوجود يا دكتور. . ألم تسمع عوض الدوخي وهو يغني: ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد، لقد زادني مسراك وجداً على وجد؟

تصمت للحظات، ثم تقول:

ـ ولكنه لم يعد موجوداً. . لا أدري أين ذهب؟

تضحك بصوت كالصرير ثم تقول:

ـ هل غيرت الرياح اتجاهاتها؟ . . ربما لم يذهب. . ولكن أين هو إذاً؟ هل تعرف نجداً يا دكتور؟ . . من الأفضل ألا تعرفها. . ولاّ أقول لك. .

واستمرت لطيفة في الحديث كما اتفق، وهي مسترخية على تلك الأريكة الجلدية، فيما جلس الدكتور سليم كزبرة خلف الأريكة، ليس بعيداً عن مستقر رأسها وهو يمسك دفتراً وقلماً، وبجانبه جهاز تسجيل يسجل كل ما تتلفظ به لطيفة. كانت الكلمات تخرج من فم لطيفة بطيئة وثقيلة، فتأثير الحبوب المهدئة ما زال مسيطراً، ولكنها كانت واضحة ومنسابة بعض الشيء.

*

واستمرت الجلسات الطويلة، عشرات منها وربما مئات، ولكن دون أن يتمكن الدكتور كزبرة من التقاط طرف خيط يمكن أن يوصله إلى السبب الكامن لعلة لطيفة. كان الدكتور عازماً على اتباع تقنيات التحليل النفسي في علاج حالة لطيفة، فهي الطريقة الأفضل في رأيه للوصول إلى جذور المشكلة، ومن ثم محاولة السيطرة عليها، رغم الزمن الطويل الذي قد تستغرقه، وهو واثق أن علتها عصابية بحتة وليست ذهانية، بالرغم من تقارير الأطباء الذين فحصوها قبلاً. كما أنه واثق من أنها لا تعاني من أية علة فسيولوجية في ذات الدماغ. ولكن بعد كل هذا الكم من الجلسات، وكل هذه المقاومة التي كانت تبديها لا شعورياً، رغم اقتناعه برغبتها الحارة الدفينة في الشفاء، كاد أن يُقر جزئياً بما جاء في تقرير الطبيب الأميركي، ولكنه لم يستعجل الأمر، فطالما أن الفحوص ألغت إمكانية أن يكون ذات الدماغ مصاباً بعلة فسيولوجية في مثل هذه الحالة، فما عليه إلا الصبر. ثم إن هذا عمله في نهاية المطاف، وهذه حالة يرجو أن يخرج منها بالكثير، فليتحمل، فقد تبزغ الشمس من بين السحاب فجأة دون سابق إنذار.

قرر مبدئياً أن يلجأ إلى طرق علاجية أخرى قد تكون أسرع في مثل الحالة التي هي عليها، على أساس أن يفتح ولو فرجة بسيطة في ذلك العالم المظلم وآلياته الذي يحتل أعماق لطيفة، تكون بداية لانفراج الباب كله. كما فكر في إخضاعها للتنويم المغناطيسي، لعل ذلك يكون البداية، ولكنه أدرك أنه لن يستطيع تنويمها مع كل هذه المقاومة التي تبديها. فطالما أنها ما زالت تضع نوعاً من «الكنترول» على انسياب ذاتها من ذاتها، فإن التنويم المغناطيسي لن يكون ذا جدوى. بل إنه فكر مرة في حقنها بمصل الحقيقة، لعلها تتفوه بشيء يمكن أن يكون بداية اختراق لمقاومتها الصلبة التي لا تريد أن تلين، ولكنه عدل عن الأمر لأسباب أخلاقية بحتة، فهو لا يعمل في جهاز أمن شرقي، أو وكالة مخابرات غربية. وحتى لو كان هناك مبررات طبية لاستخدام مثل هذا الأسلوب، فإنه يجد رفضاً عنيفاً في داخله للجوء إلى مثل هذه الأساليب. والأهم من ذلك كله، هو أنه قد يخسر مريضته في النهاية نتيجة الصدمة.

ولكن المعجزة جاءت في النهاية على غير انتظار. فذات يوم، وفي جلسة بدت وكأنها ستنتهي كما انتهت الجلسات السابقة، رغم أن لطيفة قد بدأت

تستجيب نسبياً لمثل هذه الجلسات، وفيما كان يحاول أن يستخدم معها أوليات التداعي الحر للمرة المائة ربما، وهو شبه يائس من انهيار مقاومتها رغم كل ذاك الكم من الحبوب المهدئة والحقن المخدرة، سألها:

ـ ماذا يخطر ببالك مباشرة حين أقول كلمة أبيض؟

ـ أسود. . فراغ. . نهار. . دب. . طهارة. .

ثم وهي تضحك على استحياء:

ـ مني. .

ـ أسود؟. .

ـ أبيض. . ليل. . عبد. . عنترة. . ظلم. . كلاب. . لطيفة. . أم دحيم. . الوالدة. . صحراء. .

ثم وهي تضحك من جديد:

ـ جنس. .

ـ رجل؟

ـ امرأة. . حنان. . قسوة. . عبوس. . عقال. . شجرة. . ثوب. . صالح. . أبي. .

ـ امرأة. .

ـ رجل. . مرآة. . قهوة. . قماشة. . نار. . محماسة. . موزة. .

ـ أنثى. .

ـ بئر. . دلو. . دايانا. . صوفيا لورين. . منيرة. . مئذنة. .

ـ ذكر. .

ـ مئذنة. . مسلة. . فالح. . الشيخ سعد. . نخيل. . سعف. .

ـ شجرة؟. .

ـ نخلة. . سعف. . الظهر. . جن. .

ـ أرض؟. .

ـ سماء. . رمل. . فرج. . جبال. . وهاد. . حفر. . حصى. .

ـ ماء؟ . .

ـ عطش . . جنين . . طهارة . .

ـ تمرة؟ . .

ـ نواة . . قهوة . . رجل . . نهد . .

ـ قمح؟ . .

وترددت لطيفة قبل أن تجيب، وتصبب عرقها غزيراً قبل أن تقول:

ـ شعير . . أرض . . خبز . .

ـ كلا يا لطيفة . . ليس هذا هو ما فكرت فيه أولاً . . ماذا خطر ببالك أول مرة ودون تفكير؟

وصمتت لطيفة لبرهة قبل أن تقول:

ـ الحقيقة . . الحقيقة . . لا أستطيع . . أرجوك . .

ـ تذكري يا لطيفة أننا في عيادة، والسرية هي الأساس . .

ـ الحقيقة . . لا أدري لماذا كانت كلمة قضيب هي أول ما طاف بذهني حين قلت قمح . . هل هناك علاقة بين الاثنين يا دكتور؟

ـ أنت من يحدد . .

ـ كيف؟ . .

ـ ماذا يطوف في ذهنك حين أذكر النخيل والتمر؟ . .

وابتسمت لطيفة وهي تقول:

ـ أيام القرية لا أعادها الله . .

ـ ولماذا لا أعادها الله؟ . .

ـ هل قلت لا أعادها الله؟

ـ نعم . .

ولم تحاول الإنكار، فهذه فلتة لسان لا بد أن الدكتور سيحللها، رغم أنها لا تدري كيف أفلتت هذه الكلمة من فمها. فأيام القرية رغم الفقر كانت أياماً جميلة، ولا زالت تتذكر تلك الأيام بحنين ورومانسية، فكيف قالت لا أعادها الله؟ . .

ـ تذكري بعضاً من أيامك في القرية يا لطيفة. .

ـ من أين أبدأ يا دكتور؟

ـ من أية نقطة تشائين. .

ثم وهو يرجع إلى دفتر ملاحظاته:

ـ حين قلت شجرة، قلت نخلة، سعف، بعد الظهر، جن. . ماذا يدور في بالك حين أقول جن؟. .

وأخذت لطيفة تتحدث وتتحدث، قصص أم دحيم، ذكرياتها في القرية وفي الصالحية حين كان الجن والعزاب يتسللون من شقوق الجدران، والدكتور يستمع دون تدخل، فقد كانت تعيد ذات ما قالت من قبل. ثم انتبهت حواس الدكتور دفعة واحدة، وصوت لطيفة يأتي وكأنه صوت حلم غامض بعيد، وهي في حالة شبيهة بحالة ما بين اليقظة والمنام في قيلولة يوم حار:

ـ في يوم جمعة حارة، وبعد الصلاة مباشرة، كان أبي وأخوتي في قيلولة ما بعد الغداء، فخرجت

ألهو وأجمع بعض سعف النخل الجاف من بين النخيل، وكنت أنتظر أن يظهر فالح في أي لحظة كي نلعب سوياً كالعادة، بعيداً عن أعين الرقباء، ولكن الوقت يمر وفالح لا يأتي. وفجأة ظهر شخص لم يكن نائماً حين كان الكل نائماً. . كلا، لم يكن شخصاً. . كان رجلاً أعرفه. . كنت أحبه جداً، فقد كان زكي الرائحة، فدهن العود كان يفوح منه على الدوام، وكثيراً ما أتحفني وشقيقتي منيرة بقطع لذيذة من حلوى يأتي بها من جولاته في الحجاز وتجار «الديرة» في الرياض. اقترب مني هذا الرجل، وأتحفني بقطعة كبيرة من حلوى السمسم والتمر، ثم أجلسني في حضنه. كنت في غاية الحبور، وأخذت في أكل قطعة الحلوى بتمهل كي لا تنتهي بسرعة، وأنا أشم رائحة الرجل الزكية بلذة متناهية. ثم فجأة أخذ الرجل يتحسس أعضاءً حساسة في جسدي الصغير، فلم أشعر بأي قلق، فقد كان الرجل أشبه بملاك بالنسبة لي. بل على العكس من ذلك، بدأت أحس بمتعة غريبة تسري في جسدي. . متعة جديدة لم اعهدها من قبل. ثم مد الرجل يده إلى أعماقي، وسر أسراري، وأخذ يتحسسها، فشعرت بشيء من الألم، ممزوجاً بلذة طاغية، كما يمتزج

السكر والملح في كوب حليب ساخن، في ليلة من ليالي الشتاء الباردة، حتى أنه كاد يغمى علي، وفي الوقت ذاته شعرت بالرعب يجتاحني. نهضت من حضنه وحاولت الفرار، ولكنه أمسك بي في النهاية..

وصمتت لطيفة لفترة، ثم عادت للحديث بصوت كصوت ثمل في نهاية سهرة حمراء:

ـ كانت تلك الأيام جميلة، فالكل يحب الكل، وكانت قلوب الناس طيبة و..

ولم يدعها الدكتور، الذي كان في غاية الحماس لأن تكمل. ففي النهاية، ها هو مفتاح صغير قد يفتح أبواباً مغلقة كثيرة، فقاطعها بحزم وهو يقول:

ـ ثم ماذا؟.. ما الذي حدث بعد أن أمسك بك الشاب؟..

ـ لا شيء.. لا شيء.. أغمي عليّ ولا أدري ما حدث بعدها.

هناك حلقة مفقودة في الموضوع، وربما كانت هذه الحلقة هي مفتاح حالة لطيفة كلها.. هكذا كان الدكتور يفكر وهو يرى مقاومة لطيفة اللاشعورية لرواية القصة. لم يحاول أن يضغط عليها أكثر، خاصة أنه كان من الواضح أنها كانت في غاية الإجهاد، وشيء في داخلها يقاوم أن تبوح بما حدث بكل تفاصيله. لعلها فعلاً لا تدري بما حصل بعد أن أمسك بها الشاب، ولكن هناك شيء خفي لا بد من إظهاره، ولا يكون ذلك إلا بمحاولة نبش تلك الطبقات المتراكمة على بعضها بعضاً في لاشعورها. أنهى الدكتور الجلسة عند هذا الحد، ونامت لطيفة بعدها مباشرة، ولاحظت هيفاء عودة الأنين إليها بعد أن انقطع عنها لفترة طويلة.

في الجلسة التالية، كانت لطيفة في غاية الابتهاج وهي تلقي بنفسها على الأريكة دون أن يُطلب منها ذلك. ولكن قبل أن تقول أي شيء، بادرها الدكتور قائلاً:

ـ ها.. ثم ماذا؟.. ما الذي حدث بعد أن أمسك بك الشاب؟..

ـ أي شاب؟

ـ الشاب الذي أعطاك قطعة الحلوى بين النخيل.

كان الإحراج واضحاً على محيا لطيفة، وحبات من عرق خفيف أخذت تتجمع على جبهتها، فغطت وجهها بكفيها وهي تقول:

ـ قلت لك يا سليم إنني لا أدري. . فعلاً أنا لا أدري. . لم أفتح عيني إلا في البيت ووجه أمي يطل عليّ من فوق. .

ـ حاولي أن تتذكري. . فقط حاولي.

أزاحت كفيها عن عينيها وأخذت تنظر إلى السقف لفترة، ثم أغمضت عينيها وهي تحاول العودة إلى تلك اللحظة المرعبة في حياتها كما تسميها، وحاولت مخلصة استرجاع تلك اللحظة. شيء في داخلها كان يقاوم عودة تلك اللحظة، فكانت تردد وجسمها يرتعش: «لا أدري. . لا أدري. .»، ولكن الدكتور كان يحثها على العودة وهو يضغط برفق على جبينها المبلل بحبات عرق كبيرة كدانات براقة. وأخيراً، وبصوت كأنه قادم من أعماق التاريخ، نطقت لطيفة:

ـ لم أكن جادة في الهرب من الشاب حقيقة، إذ رغم الرعب الذي سيطر عليّ، فإنني لم أكن خائفة منه تماماً، كما أن تلك اللذة الغريبة الجديدة كانت تدعوني إليه. لم يجد الرجل صعوبة في الإمساك بي مرة ثانية، ومنحني قطعة حلوى أخرى، ثم أخذ يعبث بأعضائي مرة أخرى، فاستسلمت له وأنا في دوامة من الرعب واللذة في آن واحد. وعندما بدأ الرجل في تحسس أعضائي مرة أخرى، غبت عن الوعي، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا في المنزل ورأس أمي يطل عليّ، ولا أدري كيف وصلت إلى المنزل، ولا ماذا حدث أثناء غيابي عن الوعي. .

ـ حاولي يا لطيفة أن تتذكري ما حدث أثناء غيابك عن الوعي.

نهضت من على الأريكة وهي تصرخ، وقد تشنج وجهها كله:

ـ كيف يمكن ذلك يا سليم. . قلت لك إنني كنت غائبة عن الوعي. . ألا تفهم. .

ثم تضحك بصخب وهي تقول:

ـ متى تفهم. . متى يا سيدي تفهم.

ويتركها الدكتور حتى تهدأ، ثم تعود إلى الاسترخاء على الأريكة، ثم تقول:

ـ هل تحب نزار قباني يا سليم؟

ـ دعك من نزار الآن.. ولنعد إلى النخيل.. ربما لم تكوني غائبة عن الوعي تماماً في تلك اللحظات.. حاولي أن تتذكري.. حاولي على الأقل.

وعصرت لطيفة ذهنها وهي تحاول العودة إلى تلك اللحظات الحرجة من حياتها، وعادت بها الذاكرة إلى تلك اللحظة، وفجأة ظهر لها شيء لم تكن تتذكره على الإطلاق:

ـ أه.. لقد تذكرت شيئاً.

وتحفز الدكتور، وتحوَّل إلى رادار يحاول التقاط ما لا يمكن التقاطه، فيما سرحت لطيفة بعيداً وهي تقول:

ـ نعم يا سليم.. فأنا الآن أتذكر أنه وخلال فترة الغيبوبة، رأيت حلماً.. رأيت وكأنني روح محلقة هائمة منطلقة في كل مكان، وكنت ساعتها أشعر بقمة السعادة، ثم فجأة ينقض عليَّ عفريت قبيح المنظر، فأصرخ وقد شعرت أن كل ذرة في كياني كانت تتمزق لوحدها، وأثناء ذلك كان وجه ذاك الرجل يحتل كل الأفق، وكانت بسمته قد ملأت ما بين المشرق والمغرب..

ـ تذكري أكثر يا لطيفة..

وبأنفاس متهدجة، وقد تصبب كل وجهها عرقاً، قالت:

ـ كان الشعور باللذة أقوى من الشعور بالألم.. انتفى الرعب، وحلت سعادة غريبة محله.. كنت في داخل نفسي أريده أن يستمر فيما كان يفعل، ولكني كنت خائفة.. وعندما انتهى الشاب، أغمي عليّ، ولم أعد أذكر أي شيء..

وفجأة انتفضت لطيفة في رقدتها، وجلست منتصبة على الأريكة وهي تنظر إلى الدكتور وتقول:

ـ أكل هذا حدث؟.. لم أكن أدري بكل هذا قبل اليوم.

وعادت إلى الاسترخاء من جديد وابتسامة واسعة تحتل فمها المكتنز،

ولكن الدكتور سليم كان يريد أن يطرق الحديد وهو ساخن، فعاجلها بسؤال مباغت:

ـ وهل بدأت بممارسة العادة السرية بعد تلك الحادثة أم قبلها؟..

لم يكن الدكتور متأكداً بالفعل من أنها كانت تمارس العادة السرية، ولكن إحساس الخبرة جعله يلقي بهذا السؤال وكأنه يغامر بمستقبله المهني كله. انتفضت لطيفة واستوت جالسة وكل عضو من أعضائها يرتجف وهي تقول:

ـ تراك زودتها يا دكتور.. عن أي شيء تتحدث؟.. نحن لا نمارس مثل هذه العادات الشاذة، أم أنك تريد أن تطبق كل انحرافات صاحبك فرويد عليًّ؟

وتحركت تريد مغادرة الغرفة، وكاد الدكتور أن يتراجع عن سؤاله، ولكنه أمرها بحزم أن تعود، وهو يعلم أنه إذا رضخ لها هذه المرة فلن تعود الفرصة سانحة بعد ذلك، ما دام أن القضية مقامرة، فليقامر بآخر ورقة في جعبته. وبكل انكسار عادت لطيفة إلى الاسترخاء على الأريكة، وما زالت أطرافها ترتعش بشدة، ولكن سليم لا يعرف الرحمة:

ـ التحليل النفسي يا لطيفة يتيح للإنسان أن يرى ذاته كما هي، بغض النظر عما يمكن أن نحكم عليه في حياتنا الاجتماعية بالقبح أو الجمال، ما يجوز وما لا يجوز.. قد نحكم على الذئب بالوحشية لأنه يفترس الحمل، وقد نحكم على الخنزير بالقذارة لأنه يأكل الفضلات، وقد نحكم على النسر بالدناءة لأنه يأكل الجيف، ولكنهم في الحقيقة لا هذا ولا ذاك.. هو ذئب وهو خنزير وهو نسر وهذه هي طبيعته التي جُبل عليها.. هكذا خلقهم الله.. ونحن بشر، هكذا خلقنا الله، وعندما نتنكر لبشريتنا بأن نحاول أن نصبح ملائكة أو شياطين، فعندها نقع في الخطأ.. هل تعلمين أن العسل ليس إلا بصاق النحلة؟.. نحن هنا لا نحكم على الأشياء والكائنات يا لطيفة، ولكننا نريد أن نفهمها فقط.. الذئب بطبيعته يأكل اللحم، والشاة بطبيعتها تأكل العشب، والبعوضة بطبيعتها تمتص الدم.. نعم الحكم الأخلاقي شيء حضاري يختص به الإنسان دون سائر الكائنات، ولكنه لا يعبر بالضرورة عن أعماق نفسه المظلمة والمجهولة.. وإذا أردنا أن نكون أخلاقيين فعلاً، فيجب أن نعرف

أنفسنا وظلماتها أولاً.. المعرفة هي الخطوة الأولى للأخلاق، وبالأخلاق نتحكم بالمعرفة، ولكن لا بد من هذا لذاك، ومن ذاك لهذا.. والآن.. أيهما ألذ، اللحم أم العشب؟.. لسنا ندري، وليس مهماً أن ندري، فالمسألة نسبية.. المهم أن نفهم أن العشب ألذ للشاة، واللحم ألذ للذئب.. ها.. والآن.. متى بدأت.. لنقل بمداعبة نفسك؟..

ـ لم أفعل إطلاقاً.

ـ بل فعلت، أنا أعلم ذلك.. السؤال هو متى؟

ـ لا أتذكر..

وابتسم الدكتور حين أجابت بأنها لا تتذكر، فهذا اعتراف صريح، وهذه قفزة كبيرة للأمام في مسار الجلسات..

ـ بلْ تتذكرين..

قال الدكتور بحزم ولهجة آمرة، فيما انخرطت لطيفة في نحيب صامت، وتركها الدكتور حتى بكت ما طاب لها البكاء، ثم قالت باستسلام وانكسار واضحين، وقد غطت وجهها بكامل كفيها:

ـ بعد حادثة الثور والبقرة..

ـ نعم لقد أخبرتني عنها.. وماذا بعد الزواج؟

تحركت لطيفة قليلاً وكأنها تريد الاحتجاج، ولكنها ألقت بكل أسلحتها وهي تقول وزفرة طويلة تخرج من صدرها:

ـ مرة أو مرتين..

ـ فقط؟

ـ فقط.. إن لم تخني الذاكرة..

ـ وحين كنت تنامين مع صالح، هل كنت تتخيلين شخصاً أو أشخاصاً آخرين هم من يمارسون الجنس معك؟

ـ ها.. لا.. نعم..

ـ نعم أم لا.. أريد جواباً محدداً.

ـ أحياناً . .

ـ لماذا؟ .

ـ لم أكن أصل إلى الذروة إلا بتلك الطريقة . .

ـ وهل كانت تراودك أحلام معينة خلال . .خلال مداعبتك لنفسك؟

ـ لا أذكر . .

ـ حاولي .

ـ نعم . .نعم . .أول مرة مارست فيها تلك الوساخة .

ـ تحدثي وحسب يا لطيفة . . لا تصدري أحكاماً . .الفهم ولا شيء غير الفهم . .تذكري أن الذئب يأكل اللحم . .والبعوضة تمتص الدم . .والنحلة تمتص الرحيق وتبصق العسل . .والنسر يأكل الجيف . .هنا نريد أن ندرك ما جرى، وليس الحكم على ما جرى . .دعي الحكم على ذلك لمناسبات أخرى . .

ـ في الليلة التي . .التي داعبت فيها نفسي لأول مرة، رأيت وكأنني أقف على قمة جبل يطل على واد سحيق مليء بالأشجار اليابسة . وفجأة تندلع النيران في ذلك الوادي، وهناك كان يقف فالح وقد نبتت له قرون أشبه ما تكون بقرون الثور، وأمامه نار متأججة كان يصطلي بحرارتها، وهو يمد يديه ويدعوني لإلقاء نفسي في تلك النار، فيما كان والدي ووالدتي يقفان إلى جانبي، وهما يحاولان منعي من إلقاء نفسي في الوادي . ولكن فجأة تأتي أختي قماشة وهي مندفعة من بعيد، وتدفعني بقوة إلى الهاوية، فأسقط وأنا أصرخ، وقد اختلط صراخي بقهقهات قماشة، وصرخات اللوعة من أمي وأبي، ثم أصحو في الصباح وقد تحول فراشي كله إلى بقعة واسعة من الماء . لقد توقفت عن التبول في الفراش منذ أن كنت في الخامسة من عمري، ولكني عدت إليه في كل مرة كنت أمارس فيها تلك الوساخة . .وذات ليلة رأيت وكأنني كنت أمارس الجنس مع رجل لم أتبين وجهه، وكنت في غاية السعادة . وعندما وصلت إلى الارتواء الكامل، حاولت أن أتبين وجه شريكي، فرأيت وجه والدي، فيما كانت قماشة تقف بعيداً وهي تضحك وتحمل في يدها سيخاً متوهجاً، فأصحو من نومي وأنا أصرخ، وأتخيل أن الشيطان يرقد بجانبي، ثم أتبين أن أمي تحضنني وهي تبسمل وتحوقل بصوت عال، فيما شقيقتي منيرة

تجلس مقرفصة على فراشها وقد ارتعشت مفاصلها من الرعب، وامتلأت عيناها بالدموع. .

ثم وهي تبتلع ريقها، وصوتها بجفاف حبات رمل النفود في الصيف، تواصل قائلة:

ـ وأحياناً بعد الممارسة، كنت أنام وأرى في المنام جمعاً من المصلين يؤمهم والدي، وكان فالح يقف دائماً على يمين والدي، بينما يقف صالح على شماله، وهم يصلون على جنازة ملفوفة بعباءة سوداء مهترئة. كان وجه أبي يبدو وكأنه الشمس في رابعة النهار، وكان يرتدي عقالاً مثلثاً ومذهباً غريباً، وفي يده عصا أشبه ما تكون بعصا سليمان التي كان يتكئ عليها وهو يراقب الجن يعملون، والتي أكلتها العثة بعد حين. أتقدم من صفوف المصلين، وأقترب من الكفن الأسود، ونظرات والدي تلاحقني بغضب، ولكني لا أبالي، رغم انبهاري بضوء الشمس الذي يشع من وجهه، فكلي شوق لرؤية وجه الميت. أرفع الكفن عن الوجه، فإذا الميت هو أنا. وفجأة أفتح عيني، وأنظر إلى نفسي بغضب، فأشعر بالرعب يجتاحني، وأهرب ويهرب معي فالح، ونظرات والدي النارية المحرقة تلاحقنا وهو يهز رأسه مؤنباً. ولكني فجأة أجد نفسي وقد أخذت أفصل رأس فالح عن جسده بسيف لا أدري من أين جاء، وأنا أبكي بحرارة. . ثم فجأة أجد نفسي في مقبرة ليس فيها إلا قبر واحد، وكانت قماشة ترقد هناك، ويرقد بجانبها صالح وقد أمسكت قماشة بيده بقوة. تكرر هذا الحلم كثيراً، ولكن مع اختلاف في بعض التفصيلات. فذات ليلة كانت الميتة أختي قماشة، وليلة أخرى كانت شقيقتي منيرة، وإن كانت تبدو في سن أختي قماشة، بل وكأنها قماشة، ولكني كنت واثقة من أنها منيرة. .

كان الدكتور يصغي باهتمام وهو يدون بعض الملاحظات في دفتره بسرعة، محاولاً أن يحلل بسرعة لماذا دعت قماشة بـ «أختي»، بينما وصفت منيرة بـ «شقيقتي»، ثم يقول:

ـ هل كنت تحبين أختك قماشة يا لطيفة؟. .

ـ بالطبع. . بالطبع يا دكتور. . فهي أعز عندي من روحي. .

ثم بصوت متردد:

ـ وبالرغم من تفضيل الجميع لها، فهي الجميلة والعاقلة والكاملة، إلا أنني كنت أحبها بالرغم من كل شيء..

ثم تأخذ في شرح ظروف قماشة وحظها العاثر في الحياة رغم أنها تستأهل كل خير، وتستمر في الحديث حتى يقاطعها صوت الدكتور قادماً من بعيد كصوت سوط يئز من بعيد، معلناً عن أوقات الرعب، ومنذراً بالألم القادم:

ـ متى اكتشفت قماشة أنك تمارسين تلك الألعاب مع فالح؟..

وتحركت لطيفة وكأنها تحاول النهوض، ولكنها استرخت في النهاية وهي تقول:

ـ في المرة الثالثة..رأتنا ونحن نتحسس بعضنا بعضاً..

ـ وماذا فعلت؟

ـ ضربتني..نعم ضربتني بقسوة، وهددتني بكيي بمسمار ملتهب في أماكن حساسة مني وإبلاغ والدتي، فأخذت أبكي وأستعطفها كثيراً حتى صفحت عني ووعدتني بعدم إبلاغ أحد بالموضوع على أن لا أعود إليه ثانية، ولكني كنت أشعر أنها دائمة المراقبة لي، ولم أرتح فعلياً إلا بعد أن تزوجت وغادرت القرية نهائياً..

ـ وهل كانت تعرف بأنك كنت تعبثين بنفسك؟

ـ لا أدري..ولكني أعتقد ذلك..لقد كانت كثيرة الأسئلة، وكانت نظراتها تنم عن معرفتها لشيء عني، كما كانت تحاول إبعاد منيرة عن النوم بجانبي..

ـ هل كانت قماشة تتمنى صالحاً زوجاً لها؟

ونهضت لطيفة وأخذت تنظر إلى الدكتور وقد احتلت الدهشة كل وجهها، ثم عادت إلى الاسترخاء وهي تغمغم:

ـ كلا..كلا..هذا سحر..لا ريب أنه سحر.

ويبتسم الدكتور وهو يقول بكل هدوء:

ـ ليس في الأمر سحر ولا سر. .كان كل شيء واضحاً من حلمك الذي قصصته. .

ـ كيف؟. .

ـ هذا أمر يطول شرحه. .كل ما أستطيع أن أقوله الآن إنك لا تحبين شقيقتك قماشة، وتريدين لها الموت منذ أن رأتك تمارسين تلك اللعبة مع فالح. كما أنك كنت تعلمين أن قماشة كانت تحب صالح وترغب في الزواج منه، ولكنه اختارك أنت بعد أن زوجوها من ذلك الشخص، فاعتقدت أنها لا شك حانقة عليك. كما أنك بزواجك من صالح، وصلت إلى السعادة المبتغاة، بينما هي غرقت في التعاسة والشقاء من جراء زواجها، بينما هي من يستحق السعادة، فهي الفاضلة الكاملة، وأنت الخاطئة الناقصة. .أو على الأقل هذا هو ما يدور في عقلك، أو لنقل فيما وراء عقلك. كما أنك لا زلت تحبين فالحاً، ولكنك تشعرين بالذنب من هذا الإحساس، فيكبت في لاشعورك، وهنا نشأت العقدة التي دمرت حياتك كلها: تحبين شقيقتك ولا تحبينها، تحنين لفالح، ولكن صالح هو زوجك، وأشياء أخرى سوف أشرحها في حينها. .أعتقد يا لطيفة، أننا قد بدأنا في الوصول إلى العقدة، والحل في النهاية في يدك. .

ويبتسم الدكتور ابتسامة نصر وهو يقفل جهاز التسجيل، ويقفل دفتر الملاحظات، وملامح الرضا تحتل كافة زوايا وجهه المتغضن وهو يقول:

ـ الإنسان يا لطيفة مثل جبل جليد عائم في محيط، المغمور منه أكثر من الظاهر. .وحياة الفرد مثل سفينة تجوب ذاك المحيط، مهما بدت عظيمة وكاملة، إلا أنها من الممكن أن تغرق بالاصطدام بمثل تلك الجبال المغمورة. .قد نستطيع تجنب الاصطدام برأس الجبل عند رؤيته، ولكننا لا يمكن أن نتفادى المغمور منه إلا بأجهزة تفوق الرؤية المباشرة. .وما نفعله هنا هو شيء من ذلك النوع. .المهم. .أعتقد أننا اليوم قد حققنا شيئاً، وأمسكنا بطرف خيط لا ريب أن وراءه خيوطاً كثيرة. .

ثم وهو ينهض ويلقي بالدفتر على المكتب، ثم يتجه إلى النوافذ ويفتح ستائرها للنور:

ـ هذا يكفي اليوم يا لطيفة. . ولن يكون هناك جلسات للأيام الثلاثة القادمة. . بإمكانك الآن التمتع بجو نيسان الساحر، وأنا واثق من أن الشفاء قريب. . ثقي أن الشفاء قريب. .

وتنهض لطيفة وكأنها لتوها تنهض من نوم طويل عميق، فيما كانت هيفاء تدخل الغرفة لمرافقتها إلى الخارج.

ورغم دهشتها وانزعاجها مما تذكرته وذكرته، إلا أن شعوراً بالراحة والصفاء كان يتسلل إلى داخلها، وكأن جوفها كان مليئاً بغازات كريهة كانت تخجل من إطلاقها رغم الألم والإزعاج، ثم أطلقتها دفعة واحدة. ولأول مرة منذ أن دخلت لطيفة إلى المصح، لم يجبروها على بلع تلك الحبوب العديدة. كما أنها لأول مرة تشعر أنها تنام بعمق دون أحلام أو كوابيس مرعبة تحتل ذاكرتها عند الصباح. . أو ما بقي منها من أطياف هلامية لا معنى لها؟

*

وتكررت الجلسات، وأحداث كثيرة في حياة لطيفة أخذت تطفو إلى سطح الذاكرة، حتى أنها هي نفسها كانت تفاجأ تماماً بكل تلك الأحداث التي مرت عليها وكانت قابعة في أعماقها دون أن تدري أنها هناك. شيء أشبه ما يكون بصياد ذهب إلى بحيرة تبدو في غاية الصفاء والجمال والعذوبة من الخارج، ولكن سنارته كانت تأتي له من الأعماق بأشياء ما كان يتصور أنها هناك: حذاء قديم، سمكة ميتة، سكين صدئة، جرة مليئة بكل ما هو متعفن، وربما قمقم من قماقم سليمان. . بل هو قمقم صغير انفتح على دخان كثيف لم يلبث أن تجسد مارداً قوياً. . كل ذلك كان في جوفها دون أن تدري. أحداث أشبه ما تكون بأشياء مثل الخلايا التي تتكون منها أجسادنا، أو الدم الذي يجري في عروقنا، تعمل من تلقاء ذاتها دون أن نحس بفعلها إلا حين نصاب بمرض، فنكتشف تلك الملايين من الجراثيم والفيروسات التي ما كنا ندري بوجودها في كل خلية من خلايانا، حتى تأتي لحظة الانفجار. . لحظة المرض. وأحداث أخرى كانت تتذكرها، ولو على شكل أطياف باهتة من الماضي البعيد، وكانت تشمئز منها وتكرهها وتحاول التهرب من ذكراها، فإذا هي في أعماقها تحبها حقيقة، وكانت تلاحقها بالرغم من هربها منها، كما فهمت من الدكتور كزبرة خلال الجلسات.

كم أصبحت تحب هذه الجلسات وتتحرق شوقاً لموعدها، بعد أن كانت تكرهها أشد الكره، بل ولم تكن مقتنعة بفائدة مثل هذه الجلسات التي كانت تعتبرها مجرد ضياع للوقت والمال. فقد قرأت الكثير من كتب علم النفس، وكانت واثقة أن علم النفس والطب النفسي في النهاية مجرد كلام فارغ، أو هو مجموعة من المبالغات في نهاية الأمر، إذ كيف يمكن أن يؤثر ما حدث للفرد في طفولته المبكرة، بل وحتى في المرحلة الجنينية، على كل خبراته ومن ثم شخصيته حتى الممات دون أن يشعر مثلاً؟ وكيف يمكن أن تكون مجرد هفوة لسان عابرة، تعبيراً عن حالة كامنة في اللاشعور، أو طرف جبل جليدي ضخم يكتم الأنفاس بضخامته الخفية عن الأنظار؟ بل كيف يمكن أن يكون للطفل حياة جنسية وهو في المهد وحتى قبل البلوغ؟

وتبتسم وهي تتذكر دهشتها وسخريتها حين قرأت عن المراحل الفمية والشرجية والقضيبية، وعقد أوديب وقايين والكترا وديانا والخصاء ونحوها لأول مرة.. مبالغة في إثر مبالغة، والكل «عاوز ياكل عيش. . بل الكل يريد أن يأكل بقلاوة. . والصيت ولا الغنى»، كما كانت تردد ضاحكة أيام الصفاء، أو ما كانت تعتقد أنه أيام الصفاء، بعد أن أدركت أن الصفاء مثل تلك البحيرة، تقبع في أعماقها أحذية قديمة وأسماك ميتة وطحالب متعفنة، وأدركت بعد أيام بيروت أن هناك «صفيحة زبالة»، تكمن في داخل كل فرد منا، وهي المسؤول الحقيقي عن سلوكه وتصرفاته، وليس ما نعتقد أنه كذلك في الأماكن النظيفة. ما نلقيه في صفيحة الزبالة هذه، من أحذية قديمة، وقماقم صغيرة، هو الذي يحدد مسار حياتنا، وليس تلك الأماكن التي أزلنا الزبالة منها كما نعتقد. بل إن كل فرد منا في داخله صندوق أسود، مثل ذاك الذي يوجد في الطائرات، يسجل كل ما يجري ويُقال داخل كابينة الطائرة، وكافة المعلومات المتعلقة بالطائرة، ولكن لا يمكن أن نعرف ما بداخل ذلك الصندوق إلا بفتحه، ومعلوماته مهمة في حالة الكوارث لمعرفة أسبابها. كل منا بداخله هذا الصندوق الأسود، ومهمة الطبيب النفسي هي فتحه وتحليل معلوماته.

الأقنعة الممزقة

يا لعبث الأيام، ويا لغرابة السنين. عندما جاءت لأول مرة إلى المصح، كانت رافضة كل الرفض أن تتحدث إلى أي شخص لا تعرفه، بل ولأي شخص كان، وتبوح له بما يمكن أن يكون أسراراً شخصية، فلسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن هنته هانك: هكذا رُبيت، وهكذا كانت أمثلة قومها ومثاليتهم، وهكذا ستعيش. ورغم أن الدكتور كزبرة أكد لها أن كل ما تقوله لن يتجاوز حدود غرفة الفحص والتحليل التي سوف تجمعهما، إلا أنها كانت مصممة على الرفض: فأنت تملك سرك طالما احتفظت به، ولكنه يملكك إذا أفشيته، وهي لن تبوح بأي شيء من خصوصياتها، حتى لو كان لطبيب معالج. لقد كانت ترفض في الماضي أن يكشف عليها طبيب ذكر، رغم كل تحررها الذي اشتهرت به بين الجميع، عندما كانت تراجع المستشفى أيام الحمل، وحياتها الشخصية أكثر خصوصية من أعضائها التناسلية، بل هي ذات روحها، ولن تسمح لذكر أو أنثى باختراق روحها.

كما كانت رافضة بإصرار في البداية على أن تضطجع على أريكة أمام رجل لا تعرفه ولا يعرفها. كانت تعلم من خلال قراءاتها أن ذلك من أساليب العلاج النفسي، ولكنها غير قادرة على إجبار نفسها على الاضطجاع أمام رجل من الأهل، فكيف برجل غريب. نعم قد تكون مريضة، بل لتكن مريضة، وقد تكون على حافة الجنون، وهي مقرة بذلك في لحظات الصحو الخاطفة التي تمر بها مرور سحابة بيضاء في يوم صيف، ولكنها لن تفعل ما لا يجب فعله، وليذهب العلاج إلى الجحيم.

أحاديث طويلة دارت بينها وبين الدكتور كزبرة، وكانت خلالها تصر بعناد على أن تكون المرضة هيفاء ثالث ثلاثة في الغرفة، أو أن يكون الحديث في الحديقة وأمام كل المتنزهين من المرضى. ستة أشهر كاملة وهي ترفض دخول غرفة التحليل، وكانت خلالها تحاول إقناع الدكتور أنها تختلف اختلافاً كلياً عن كل ما عرف من مرضى، وأنها تنتمي إلى بلد محافظ، وقوم محافظين، وأن عاداتها وعادات قومها وتقاليدهم تختلف تماماً عن العادات والتقاليد التي هو معتاد عليها، أو حتى العالم كله، فلهم في بلدها خصوصيتهم التي ليست لغيرهم. لا يمكن لها أن تنفرد برجل في غرفة لوحدهما، ولا يمكن أن تبوح بما يخطر ببالها لرجل بعيد أو حتى قريب. كان الدكتور يعلم أنها تمارس أسلوباً من أساليب المقاومة التي عرفها لدى مرضى كثيرين رغم كل ما تقول، ولكنها ربما كانت أكثر مقاومة بحكم البيئة المحافظة التي أتت منها فعلاً. كان يعلم أن كل ما تقوله هو نوع من أنواع المقاومة مهما أطرت بمختلف أنواع المبررات، وإلا كانت تحفظت تماماً وهي تجلس معه في الحديقة أو في غرفتها مع هيفاء. على العكس من ذلك، كانت تجلس معه بكل راحة، وقد انتثر شعرها الأسود الطويل على كتفيها دون مبالاة،.وكانت تلبس فستاناً لا يكاد يغطي الركبتين إلا قليلاً. ربما كان ذلك بسبب حالتها النفسية، ولكن لا. فالتصرفات العفوية تكشف عن مكنونات النفس أكثر من مقولات اللسان، أو ما هو سائد في الشعور الواعي المباشر. وعانى الدكتور كزبرة كثيراً حتى استطاع أن يقنعها في النهاية أن تجلس أمامه على كرسي عادي في غرفة التحليل، مع قبول شرطها بأن تكون هيفاء ثالثهما، وأن تتحدث بأي حديث تشاء أو يخطر على بالها.

وفي أول جلسة لها في غرفة التحليل، كان الخوف والقلق واضحين على وجهها، وأدرك الطبيب أنها مازالت تقاوم بقوة، فقد كانت تجلس على الكرسي وقد عقدت ذراعيها على صدرها بقوة، وجمعت ساقيها إلى بعضهما بشدة، وزمت شفتيها بشكل واضح، وهي تنظر في كل اتجاه بلا هدف، وتتحدث عن شوقها وحبها لزوجها وأطفالها وبلدها: كان واضحاً أنها تتهرب من الموقف وتقاوم مقاومة شديدة، بحيث جعلت من نفسها صندوقاً مُحكم الإغلاق. وبعد الجلسة، كتب الدكتور في دفتر ملاحظاته: «هناك شيء غريب

في العلاقة بين لطيفة وزوجها ومجتمعها وأطفالها، فتكرارها لحبها وشوقها لهم يخفي وراءه شيئاً». وفي الجلسة الثانية، جلست بالوضعية نفسها، وبعد عدة دقائق انسلت هيفاء من الغرفة بإشارة من الدكتور، وحاولت لطيفة أن تتبعها حين اكتشفت غيابها، ولكن الدكتور كان صارماً هذه المرة، فأمرها بالبقاء حيث أن الأمر لن يستغرق إلا عدة دقائق. وخلال الفترة التالية، لجأت لطيفة إلى الصمت المطلق، وتقليب نظرها في أرجاء الغرفة، غير عابئة بما كان يتحدث به الطبيب وكأنها لا تسمعه أساساً. وفي الجلسة الثالثة لم تحضر هيفاء من الأساس، وبقيت لطيفة في الوضعية ذاتها التي اتخذتها في أول جلسة: الصمت والحذر.

بعد الجلسة العاشرة تقريباً، بدأت لطيفة تسترخي نسبياً في جلستها، حين أخذ الدكتور يناقشها في أهمية العلاج النفسي، وأنها مريضة وعليها مساعدته إن أرادت الشفاء والعودة إلى أطفالها، وإلا فإنها لن تشفى أبداً، وستبقى عمرها كله نزيلة المصحات والمستشفيات. عندها بدت لطيفة وكأنها قد أفاقت من حلم طويل، وأخذت تتحدث لأول مرة منذ أن دخلت غرفة التحليل النفسي. تحدثت كثيراً عن أطفالها، عن خالد وعن بدرية ومشاعل، وكان أكثر حديثها عن ابنها طارق. ولاحظ الطبيب أنها لم تأت على ذكر زوجها هذه المرة. وعندما حاول أن يوجه الحديث بحيث يمكن أن تعبر لطيفة عما يمكن أن يُنير له داخلها أكثر، حورت لطيفة الحديث وأخذت في الحديث عن علم النفس وكيف أنها قرأت الكثير فيه، وتعلم أنه يحاول أن يصل إلى أعماقها، ولكنها أخبرته أنها تعرف أعماقها جيداً، ولا حاجة لأحد أن يعرف ما بأعماقها، وما تعانيه ليس له علاقة بفرويد أو يونغ أو أدلر، وعقدهم التي عقدوا بها خلق الله. ضحك الدكتور من ملاحظتها، وأخذ يتحدث معها في علم النفس ونظرياته المختلفة، وهو يعلم أنه أمام حالة شديدة من مقاومة العلاج. وفي نهاية الجلسة، كتب: «لم تتحدث لطيفة عن زوجها هذه المرة أيضاً. تمارس عملية مقاومة شديدة».

وذات مرة، وفي إحدى هذه الجلسات، وكان قد مر أكثر من ستة أشهر على دخولها غرفة التحليل، كانت لطيفة تتحدث عن أطفالها وحياتها معهم، وقد شبكت ذراعيها حول صدرها كالعادة، أتت على ذكر زوجها لأول مرة

منذ دخولها المصح حين قالت:

ـ ذهبت ذات مرة إلى المطعم برفقة زوجي فالح، وكان الأولاد معنا، وهناك. .

وقبل أن تكمل جملتها، قال الدكتور وكأنه أمسك بها متلبسة:

ـ ظننت أن اسم زوجك هو صالح؟. .

ـ هذا هو ما قلته. .زوجي صالح. .

ـ كلا. .لقد قلت فالح. .من هو فالح هذا؟

ـ أنت تحاول خداعي يا دكتور. .لقد قلت صالح، لا فالح. .

ـ بل قلت فالح. .وكلامك مسجل، باستطاعتي إسماعك إياه إن أردت.

وأسقط في يد لطيفة، وعلمت أن هفوة اللسان هذه سوف يبني عليها الدكتور الشيء الكثير بحكم قراءتها لفرويد خاصة، ولكنها في الوقت نفسه كانت هي ذاتها مندهشة من ورود اسم فالح شقيق زوجها على لسانها بدلاً من صالح، وهي التي لم تفكر فيه على الإطلاق. صحيح أن فالحاً كان رفيقها في الطفولة، ولكنها لم تره إلا لماماً منذ أن غادرت القرية. فقد واصل تعليمه، وحصل على بعثة إلى أميركا، وتخرّج من الجامعة هناك، وهو يعمل الآن في شركة الزيت العربية المحدودة في منطقة الخفجي، ويسكن الكويت بعد أن تزوج فتاة أميركية لم يعجبها المقام في الخفجي، ولا تراه إلا في مناسبات نادرة. .إنها حتى لم تفكر فيه، ولم يكن يرد على ذهنها على الإطلاق، فما الذي جعل لسانها يزل باسمه وهي تتحدث عن صالح؟

في الجلسة التالية، جاءت لطيفة، واتجهت إلى الأريكة الجلدية مباشرة، وألقت بنفسها عليها بقوة، وشبكت ذراعيها على صدرها، فيما تدلت إحدى ساقيها إلى الخارج وهي تقول: «أنا رهن إشارتك يا دكتور». كان الدكتور يعلم أنها لا زالت تقاوم، فتدلي ساقها إلى الخارج ليس إلا مؤشراً على محاولتها الهرب من العلاج، وما استسلامها الظاهر، واتجاهها مباشرة إلى الأريكة، إلا محاولة لاشعورية منها لتغيير التكتيك، أما الإستراتيجية فبقيت ثابتة: المقاومة إلى أقصى مدى. .

ـ من هو فالح هذا؟

ـ شقيق زوجي.

ـ فقط؟

ـ وكنت ألعب معه ونحن أطفال في القرية.

ـ وماذا كنتما تلعبان؟

ـ ألعاب أطفال.

ـ مثل ماذا؟

ـ لا أذكر. .ألعاب أطفال وحسب.

ـ وهل كان صالح يلعب معكما؟

ـ صالح أكبر منا بخمس عشرة سنة على الأقل. .كان يعمل في كل مكان.

ـ هل كنت تحبين صالحاً أم فالحاً أكثر؟

ـ قلت لك إنني كنت طفلة، فكيف أعرف معنى الحب؟

ـ لم أكن أتكلم على الحب بالمعنى الذي فهمته. .ما أعنيه هو الحب الفطري. . الحب التلقائي.

ـ كنت لا أرى صالحاً إلا في الأعياد، ورغم ذلك كنت أحبه أكثر.

ـ لماذا؟

ـ بس!

ـ بس! . .يعني ماذا؟

ـ بس يعني بس. .أي بدون سبب.

ـ أراهن أنك أنت نفسك غير مقتنعة بما تقولين.

ـ أنا لا أحب المراهنات. .فهي حرام.

ـ حرام؟!

ـ نعم حرام. .

ثم وهي تتحرك قليلاً باتجاهه:

ـ على فكرة يا دكتور.. هل أنت مسيحي أم مسلم؟

وابتسم الدكتور وهو يسجل في مفكرته «المقاومة مستمرة، تحاول أن تحرف الموضوع»، ويقول:

ـ وهل يهم ذلك؟..

ـ يعني.. أقصد نعم.. أعني يعني.. انس الموضوع.

وعاد الدكتور لكتابة شيء في المفكرة ثم يقول:

ـ المهم.. من كان يلعب معكما أنت وفالح؟

ـ لا أحد!

ـ إطلاقاً.

ـ إطلاقاً.. فلا أحد كان يعلم أننا نلعب سوياً.

ـ لماذا؟

ـ نحن مجتمع محافظ، لا يجوز للفتاة فيه أن تلعب مع الصبيان

ـ ورغم ذلك لعبت مع فالح!

ـ نعم..

ـ لماذا؟

ـ بس.

ـ بس..

ـ نعم بس.

ثم وهي تضحك:

ـ أو هيك كما تقولون..

ـ وماذا بشأن والديك.. هل كانا يعلمان؟

ـ شقيقتي قماشة كانت تعلم.

ـ سألتك عن والديك.

ـ كلا، لم يكونا يعلمان. . ولكن قماشة كانت تعلم.

وفي نهاية الجلسة، كتب الدكتور في الدفتر الكلمات التالية: «فالح، قماشة، فتش عن المفتاح».

بعد عدة جلسات من هذا النوع، بدأت لطيفة تحس بالارتياح لمجرد الحديث، وكأنها كانت تعاني من حموضة شديدة في المعدة لا راحة منها إلا باستفراغ تلك العصارات المخاطية اللزجة. ربما كانت هذه العصارات مفيدة لهضم الطعام، ولكنها تصبح مصدراً للألم والغثيان حين تزيد عن حدها وتتحول إلى غول ينهش المعدة نهشاً. بل كان الأمر أشبه ما يكون بدمامل غير مرئية كان الطبيب يكتشفها الواحدة تلو الآخرى، ثم لا يلبث أن يفقأها فيخرج صديد وفير كان يسمم الدم والجسد. وفوجئ الدكتور كزبرة ذات يوم بلطيفة وهي تلقي بنفسها على الأريكة الجلدية دون أن تتدلى ساقها إلى الخارج، وتبدأ في الحديث دون أن يطلب منها ذلك، وسجل في دفتره: «تطور مهم: بدأت لطيفة تعترف بمرضها، وتعي خطورة حالتها». ولكنها رغم ذلك بقيت تقاوم الحديث عن فالح وألعابهما الصبيانية، وكانت تتوتر كلما عرج الدكتور على علاقتها بفالح. كان الدكتور واثقاً أن هناك شيئاً غير طبيعي في العلاقة بين لطيفة وفالح من ناحية، وبينها وبين أختها قماشة من ناحية أخرى، ولديه بعض الأفكار عما يمكن أن تكونه تلك العلاقة، ولكنه لا يريد أن يضغط على مريضته، فهو يريدها أن تتحدث هي بنفسها عن تلك النقطة المظلمة في طفولتها، إذا كان الشفاء هو المطلوب.

ومرت الأيام دون أن يضغط عليها الدكتور، أو يحاول أن يفتح سيرتها مع فالح. ولكن ذات يوم، وفي إحدى تلك الجلسات، كانت لطيفة تتحدث عن طفولتها وتلك الشقاوات التي كانت تمارسها في خفية عن الأهل وهي تضحك، ثم ما لبثت أن قالت:

ـ وذات يوم، كنت ألعب أنا وفالح كالعادة بعد الظهر، وامسكني من مكان حساس في جسدي، ثم. .

ـ ثم ماذا يا لطيفة؟. . أكملي.

ـ لا أذكر. . لا أذكر. .

ثم نهضت من على الأريكة وقد تبلل وجهها بعرق كثيف، وهي تقول:

ـ أرجوك يا دكتور. . لم أعد أحتمل، لنتوقف عند هذا الحد.

أطبق الدكتور دفتره وهو يبتسم. . فقد اقترب من تلك النقطة المظلمة في حياة لطيفة، ولا ريب أنها ستتذكر لاحقاً. وفي جلسة اليوم التالي، وما أن استقرت لطيفة على الأريكة، عاجلها الدكتور بسؤال مباغت:

ـ ثم ماذا يا لطيفة؟. . أمسك بك فالح من مكان حساس في جسدك، ثم ماذا؟

وتأففت لطيفة، وهمت بالنهوض، ولكن الدكتور أمرها بالبقاء بحزم وهو يقول:

ـ أنت تعلمين يا لطيفة إن ما يقال داخل هذه الغرفة لا يمكن أن يغادرها، وإذا أردت الشفاء فعليك التعاون معي، وإلا فسوف أعلن اليأس، وأنت الجانية على نفسك. .

وتوقف الدكتور عند هذا الحد وهو ينظر إلى لطيفة ويلعب بقلم الرصاص الذي أمامه، فيما كانت لطيفة صامتة تنظر إلى السقف وقد ابتلت بدموعها. لقد كان الدكتور يعلم أصبحت متعلقة بهذه الجلسات، وأنها بدأت تُحس بالراحة من مجرد إخراج ما بداخلها، فكان تهديده بمثابة تهديد طفل بحرمانه من لعبته المفضلة، أو مخاصمته وعدم التحدث معه. فالمريض النفسي أشبه ما يكون بطفل صغير في مشاعره وأحاسيسه، بل إننا جميعاً أطفال بوجه من الوجوه في أعماقنا، ولكننا نخنق الطفل في داخلنا لأسباب اجتماعية بحتة لا عُلاقة لها بالفطرة أو بالنمو والنضج. وبعد عدة دقائق، عادت لطيفة إلى الاسترخاء التام، وكان صوت نشيجها مسموعاً وهي تقول:

ـ ولكني فعلاً لا أذكر شيئاً يا سليم. . صدقني، أنا لا أذكر شيئاً.

ـ حاولي يا لطيفة. . حاولي بصدق وإخلاص، وستعجبين أنت نفسك مما ستتذكرين.

وأغمضت لطيفة عينيها، وحاولت أن تعود إلى تلك اللحظة البعيدة في

الماضي. ومرت الدقائق بطيئة وقد غرقت الغرفة في صمت متحفز، حتى جاء صوت لطيفة وكأنه قادم من الماضي نفسه وهي تقول:

- نعم.. إني أرى المنظر.. كنا نلعب كالعادة، وفجأة امسكني فالح من صدري. لم يكن لديَّ نهدان بعد، ولكنني كنت أعلم أن مثل هذا الفعل لا يجوز، فزجرت فالحاً الذي كان خجلاً وأراد العودة إلى المنزل، ولكني لحقت به وأنا أضحك، وأقنعته بالعودة إلى اللعب. وفي اليوم التالي، وبينما كنا نلعب، امسكني فالح من المنطقة نفسها، ولكني هذه المرة لم أفعل شيئاً.. تجرأ هذه المرة وطلب مني أن أريه أعضائي التناسلية، ويريني هو أعضاءه التناسلية. ترددت طويلاً، وكان قلبي يخفق بعنف، والخوف يجثم على صدري، ولكني كنت في غاية الإثارة وأنا بصدد رؤية شيء لم أره من قبل.. شيء خاص بالرجال، وهو ما يجعلهم رجالاً.. وافقت.. ورأيت.. وشعرت بالإحباط.. مجرد نتوء لحمي زائد.. أهذا هو ما يجعل من الولد ولداً؟ وددت لو أنزع ذلك النتوء اللحمي من جسد فالح وألقيه بعيداً، ويصبح فالح فتاة مثلي.. أو.. أو..

- أو ماذا يا لطيفة؟

وبعد تردد، وبصوت متلعثم:

- أو انتزعه وألصقه في جسدي، فيصبح هو البنت، وأنا الولد..

ثم وهي تضحك:

- مجرد قطعة لحم زائدة!.. هذا هو الفرق بين الرجل والمرأة.. يا له من فرق!

وضحكت لطيفة وهي تغطي فمها بطرف كفها، ثم تواصل:

- وبعد ذلك بعدة أيام، طلبت أنا من فالح أن أمسك ذلك النتوء وأتحسسه، فلم يمانع، بشرط أن يتحسس هو أعضائي، فلم أمانع.. وبينما نحن نتحسس بعضنا بعضاً، إذ بقماشة تفاجئنا..

وتنتفض لطيفة بقوة عند وصولها إلى هذا الحد، وتنهض وهي تصرخ: «قماشة شافتنا.. قماشة شافتنا..»، ثم تنتبه لنفسها، وتنظر حولها فترى

الدكتور سليم وهو يبتسم ويمد لها يده بمنديل ورقي لتجفيف عرقها، وهو يقول:

ـ يكفي هذا.. اليوم.

تنشف لطيفة عرقها، ثم تبتسم بإعياء ابتسامة باهتة وهي تقول:

ـ لم أكن أدري أن كل هذا حدث.. لا أذكر شيئاً من ذلك.. ولكني تذكرت.. لا أدري كيف تذكرت.

ـ لأنك تريدين الشفاء يا لطيفة، وإرادة الشفاء هي الخطوة الأولى والأهم في العلاج..

تهز لطيفة رأسها عدة مرات وهي تقول:

ـ كيف كانت كل هذه الذكريات والأحداث في داخلي دون أن أشعر.. كيف؟ كيف؟

ـ سؤال أخير قبل أن ترتاحي.. هل كان ما حدث بينك وبين فالح قبل حادثة النخيل أم بعد؟

وزوت لطيفة ما بين عينيها، وأغمضتهما قليلاً لبرهة ثم قالت:

ـ لا أذكر بالضبط.

ـ حاولي.. هذه نقطة مهمة.

ـ أعتقد أنها كانت قبل.. نعم قبل، فقد جاءتني الدورة الشهرية بعد حادثة النخيل بأشهر معدودة، فيما كانت هذه الحادثة قبل ذلك بسنوات..

وألقت بالمنديل في سلة المهملات وهي تحاول الابتسام:

ـ لقد صدق سقراط.. فعلاً اعرف نفسك.

وتتناول منديلاً جديداً، وتتمخط بقوة، ثم تمسح أنفها المحمر وهي تقول:

ـ عندما قرأت هذه العبارة لسقراط استسخفته كثيراً.. أهذه كل فلسفة هذا الرجل الذي يعد نبي الفلسفة؟.. ولكني اليوم أدركت كم هو صائب

وحكيم. . اعرف نفسك. . نعم، فهذه النفس ليست مجرد جبل من جليد عائم في محيط، ولكنها جب عميق مظلم لا نرى إلا فوهته الظاهرة، وفي القاع المظلم تكمن أشياء لا تخطر لنا على بال. . أشياء لا تخطر لنا على بال. . أليس كذلك يا سليم؟

وكان رد الدكتور هو ابتسامة واسعة احتلت كامل وجهه الوردي، وهو يهز رأسه موافقاً. .

*

وانهارت مقاومة لطيفة إلى حد كبير، وأصبحت تحاول فعلاً أن تكتشف كل تلك الأمور الغارقة هناك في أعماقها، أو لنقل المطمورة في أعماقها، رغم بقاء بعض جيوب المقاومة اللاشعورية، بحيث أن الدكتور كزبرة لم يكن قادراً على متابعة كل تلك التفاصيل التي أخذت تخرج من أعماقها، وخاصة أن لطيفة كانت تتحدث بلهجتها المحلية التي كان من الصعب عليه فهم كثير من مفرداتها، وتنتمي إلى بيئة تختلف عن بيئته بحيث كان من الصعب عليه وضع تفاصيل معينة في إطارها التحليلي السليم. ولكنه كان يستعين بجهاز التسجيل، ويسأل لطيفة عن كل ما لا يدركه تمام الإدراك. وأخذت لطيفة تتحسن بسرعة عجيبة، ولم تعد جلساتها مع الدكتور كزبرة تنحصر في الغرفة، إذ كثيراً ما كانا يتنزهان في حديقة المستشفى ويتحدثان كثيراً، بل إنها هي التي أصبحت تتحدث دون توقف، والدكتور يستمع ويبتسم، ثم لا يلبث أن يسرع إلى مكتبه بعد ذلك ويسجل كل ما قالته. وفي هذه النزهات كان يشرح لها ما استغلق على ذهنها من أمور اللاشعور، وخاصة تفسير تلك الأحلام الغريبة التي كانت تراها.

وبعد فترة أخذ الدكتور كزبرة يصطحبها في نزهات بين الأحراش وفي الجبل كجزء من العلاج، وكعلامة من علامات الشفاء في الوقت ذاته. مانعت في بداية الأمر القيام بمثل هذه النزهات، فقد كانت تشعر برهبة غريبة، وخوف طاغ، بل هي فوبيا حقيقية، عندما ترى الأشجار أو تسير بينها، رغم أنها كانت تعشق الأشجار. . لقد كان منظر الأشجار يرعبها، ولكنه كان يثيرها بشكل غريب. ولم تفهم هذا التلازم بين الرعب والإثارة حين رؤية

الأشجار، إلا بعد فترة طويلة من التحليل، ومئات من الجلسات والأحاديث مع سليم.

فمن خلال جلسات العلاج الطويلة تلك، أدركت لطيفة مصدر خوفها وقلقها من رؤية الأشجار، ولكنها لم تكن غير قادرة على التغلب على هذا الخوف بذاتها. وكان الدكتور كزبرة مدركاً لأبعاد هذا الخوف عندها منذ اللحظة التي علم فيها بحكايتها مع ذاك الرجل بين النخيل في طفولتها المتأخرة، وكان يحاول من خلال نزهاته وإياها في الأحراش أن يعالجها سلوكياً وفق طريقة «التحصين المتزايد» القائمة على نظريات بافلوف. ففي المرة الأولى تركها لعدة دقائق وحدها في الأحراش، بعد أن اطمئن إلى تمتعها النسبي بالجو من حولها، وعندما عاد إليها كانت تكاد تموت خوفاً. وفي المرة الثانية تركها لمدة أطول، وكان خوفها أقل، وهكذا.. حتى زال خوفها من الأشجار نهائياً، بل وأصبحت في النهاية هي التي تطلب مثل تلك النزهات بين الأحراش. لقد زال خوفها من الأشجار تماماً، ولكن الإثارة باقية. كم كانت تود أن ترى بيروت، وبالفعل طلبت من الدكتور أن يصطحبها إلى هناك، ولكنه بيَّن لها أن ذلك خطر جداً في ظل حرب أهلية مستعرة، لا تفرق بين مذنب وبريء.. مسكين سليم.. لم يكن يدرك ساعتها أنه هو نفسه سيكون واحداً من ضحايا تلك الحرب، بل، ويا للعبث، في وقت اعتقد الجميع فيه أنها قد انتهت.

وخلال هذه النزهات بدأ ينتابها إحساس غريب تجاه سليم.. بدأت تقارن بينه وبين زوجها صالح، وكانت المقارنة دائماً تنتهي لصالح سليم. ورغم أنه لم يكن وسيماً على الإطلاق، إلا أنه أخذ يبدو في غاية الجمال وهي تنظر إليه في خلال نزهات الجبل.. بل إنه حتى صلعته الكبيرة كانت تبدو لها في غاية الجمال عندما تنعكس عليها شمس الأصيل وهي تغرق في بحر بيروت، هناك تحت الجبل. كانت تشعر بوخز شديد في قلبها عندما تقارن بينه وبين زوجها، فتشعر بمقت شديد لصالح، وحب جارف لا تستطيع صده لسليم، ولكنها غير قادرة على منع نفسها من التفكير والمقارنة رغم الألم. وتخطر على بالها في تلك اللحظات تلك الدعوات التي كان يرددها والدها قبيل الفجر وبعيد

الغروب، وهو يردد بحرارة: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»، وتتذكر ما تعلمته صغيرة من حديث الرسول الكريم من أن القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبه كيف شاء، وأنى شاء. قلبها ليس ملكها وإن كان جزءاً منها، وهي لا تستطيع منع نفسها من هذا الإحساس الجارف الذي تجده يحتل كل كيانها تجاه سليم. لم يعد بالنسبة لها طبيباً معالجاً، بقدر ما أصبح صديقاً، بل وحبيباً لا يمكنها الاستغناء عنه، بل ولا العيش بدونه. لا تتصور كيف يمكن أن تعود إلى الرياض وتعيش بدون سليم.. وعندما تخطر هذه الفكرة على بالها، كانت ترتعد خوفاً من مجيء ذلك اليوم، وتتمنى أن لا تشفى أبداً إن كان الثمن هو مغادرة بيروت وفراق سليم.

*

كان صالح يزورها مرتين في الشهر خلال السنة الأولى من دخولها المصح، ثم أصبح يزورها مرة في الشهر خلال السنة الثانية، ثم لم يعد يزورها بعد ذلك إلا ثلاث مرات في السنة. وفي كل مرة كان يأتي معه أحد أبنائهما، عدا طارق الذي لم تره منذ أن دخلت المصح. وخلال زيارات صالح الأخيرة لها، علمت بخطبة بدرية من رجل أعمال شاب، ثم مشاعل من أستاذ جامعي معروف، كما علمت بطلاقه من جواهر، وأنه رُزق منها بفتاة أسماها لطيفة على اسمها بالضبط، حيث أن كلاهما تصبح لطيفة صالح الأثلة. ولكن الأهم أنها علمت بولادة حفيد لها. فقد أنجبت إيمان ابناً لخالد أسموه عُبيدة، بناءً على رغبة والده، الذي أصبح يُعرف باسم «أبو عبيدة»، رغم أنهم كانوا يدعونه بـ «أبي الوليد» منذ أن أنهى الدراسة الثانوية. كم كانت تتمنى لو أنه أبقى على هذا الاسم، فهو في رأيها أحلى وأجمل من عبيدة ألف مرة. ثم شعرت بالأسى عندما علمت بطلاقه السريع، وعودته إلى الاختفاء من جديد إلى حيث لا أحد يدري. قيل إنه عاد إلى أفغانستان، وقيل بل هو في البوسنة والهرسك، ولكن لا أحد يدري. أما عبيدة ابنه فهو في حضانة أمه، في بيت جده لأمه الشيخ منصور الصماني.

والحقيقة أنه طوال فترة إقامتها في المصح، لم تكن راغبة أو مكترثة بزيارة أحد من أهل بيتها. فخلال السنوات الثلاث الأولى من وجودها في المصح، لم

تكن تعرف من زارها ومن لم يزرها، فقد كانت في حالة من الذهول تجعلها في عزلة عن عالم الأحياء، أو ما اتفق على تسميته بعالم الأحياء. عالمها كله كان مركزاً في غرفتها، وفي غرفة التحليل، وقليلاً ما كانت تتنزه في حديقة المصح، أو تتناول الطعام مع بقية النزيلات في بهو الطعام. وفي غرفتها، كانت لا تبرح تلك النافذة الواسعة المطلة على وادي الصنوبر الممتد إلى ما دون البحر بقليل، وهي تنظر بعيداً إلى لا شيء، وعالم مختلف يدور في رأسها، لا علاقة له بالعالم الذي ينتمي إليه جسدها. محاولات كثيرة قام بها الدكتور كزبرة، والممرضة هيفاء لإخراجها من عزلتها تلك، ولكنها كانت ترفض كل محاولة، وتلجأ إلى الانكماش على ذاتها والبكاء كلما أحست أن هنالك محاولة على إرغامها على الخروج. وعندما تعود بها الذاكرة إلى تلك السنوات الثلاث القاسية، كانت تحس بأنها صفحة بيضاء لا تتذكر منها شيئاً، وإن كانت تلك السنوات رغم انتفائها من الذاكرة، هي التي أعادت إليها ذاكرتها الحقيقية، وهي التي أعادت المعنى إلى حياتها.

وخلال السنتين الأخيرتين، عندما خرجت من عزلتها، كانت زيارة صالح، أو أي من أهل بيتها، تشعرها بالذنب والألم. فقد كانت خلال تلك الفترة تحس بعشق جارف يستولي عليها تجاه الدكتور سليم كزبرة. وعندما تقابل صالحاً، أو أي فرد من عائلتها، كانت تشعر بمشاعر متناقضة تجعلها تعود إلى الإحساس بأنها ليست هي. لذلك كانت تحاول أن تجعل تلك الزيارات قصيرة ما أمكن، وبشتى المبررات، التي لم تكن كاذبة على أية حال. ففعلاً عندما كانت تقابل صالحاً ومن قد يكون معه من أولادها خلال تلك الفترة، كانت تشعر بحالة من الإرهاق وانحطاط عام في القوى، بحيث لا تكون قادرة حتى على الوقوف، وهي التي كانت قبيل مجيئهم في غاية النشاط. كما أن عقلها يتوقف عن العمل تماماً، فتحس أنها في حالة برزخية لا تدري كنهها، أو في حالة انعدام وزن كتلك التي يمر بها رواد الفضاء في رحلاتهم. وفي ختام أي زيارة، كانت تشعر بانعدام الهواء من حولها، وتتنفس بصعوبة واضحة، وتشعر كأن صدرها أصبح ضيقاً حرجاً كأنما تصعد في السماء. وتبقى في هذه الحالة عدة أيام بعد مغادرة زوارها، ثم لا تلبث أن تسترد عافيتها فجأة ودون مقدمات. ولم يزرها خلال فترة وجودها في

المصح أي من أشقائها، ولم يأتِ ذكرهم في زيارات صالح، ولم تكن هي مهتمة كثيراً بذلك.

وامتلأت غرفتها بالكتب والأشرطة الموسيقية المختلفة خلال هاتين السنتين، وخاصة الموسيقى الكلاسيكية، العربية منها والغربية. فقد أوضح لها الدكتور كزبرة أهمية الموسيقى الهادئة في إراحة الأعصاب وإعادة التوازن إلى النفس المتعبة. لم تستسغ بداية تلك المقطوعات المملة لموزارت وبيتهوفن وشوبار وشوبان وباخ وشتراوس وهايدن وتشايكوفسكي وغيرهم، كما كانت تشعر بشيء من النفور تجاهها، وهي التي نشأت على أن الموسيقى كلها رجس من عمل الشيطان، غير أنها بعد فترة أدمنتها، وأصبحت غير قادرة على النوم دون أن يكون هناك صوت من الموسيقى يلف أرجاء المكان. وكانت تستعين بهيفاء لانتقاء المقطوعات الموسيقية لكبار أهل الموسيقى. كما أنها بدأت تخرج للنزهة في الحديقة، ومشاركة بقية النزلاء طعامهم في البهو الكبير.

*

لم تكن حقيقة راغبة في تناول الطعام مع أحد، ولكنها اكتشفت من خلال النزلاء عالماً مختلفاً. كانت قبل ذلك تتصور مصحات ومستشفيات أمراض النفس عبارة عن «عصفورية» أو «خانكة»، أو «سراية مجانين»، تغص بأناس فقدوا عقولهم، ولا يفعلون شيئاً سوى القفز والصراخ والقهقهة، وكل تلك الحركات الغريبة التي برعت أفلام اسماعيل ياسين في تصويرها. ولكنها اكتشفت في «الأجنحة المتكسرة» رواية مأسوية في كل شخصية قابلتها وتحدثت معها، حين يكون الحديث متاحاً، وهو قلما يكون.. لم تكن الشخصيات التي عاشرتها في المصح تقفز و«تنطط»، أو تقوم بحركات خارجة على المألوف، بقدر ما كانت تصرفاتها تبعث على الأسى، في الوقت الذي تثير الضحك عند البعض.

فريمونا أسعد، التي كان من الصعب تخمين عمرها، كان من الواضح أنها نابغة بكل ما في الكلمة من معنى. فعلى بيانو البهو، كانت تعزف أفضل الألحان، بمهارة تفوق مهارة المحترفين، ولكنها صامتة على الدوام، تقضي كل وقتها على كرسي بجانب نافذة البهو الكبيرة وهي تنظر بعينين ميتتين إلى لا

شيء، ولا تتوقف عن العبث بذاك الصليب الضخم الذي يحتل حيزاً كبيراً من صدرها، ولا يفارقها لا ليلاً ولا نهاراً. حاولت أن تتقرب منها وتحادثها، ولكنها لا تتلقى منها جواباً سوى بسمة بلهاء تتدلى على جانب فمها، وتعود إلى النظر إلى لا شيء، أو تمشي بتثاقل إلى حيث البيانو، فتملأ الجو بسحر فينا، عندما كانت فينا ساحرة.

وفريال كمبلان، امرأة شابة في أواخر العقد الثالث من عمرها. كان جمالها صارخاً، ليس في أي قطعة من جسدها أي نقص يمكن أن يُلاحظ أو يُنتقد. منذ أن تصحو فريال من نومها، وحتى تعود إلى نومها، وهي تمشي ذهاباً وإياباً، سواء في بهو المصح أو حديقته، وهي تحدث نفسها بصوت غير مسموع، تقطعه بضحكة تحاول إخفاءها بكفها، ثم تعود إلى الحديث مع نفسها من جديد. وفي حالات صحو مفاجئة ونادرة وسريعة، كانت فريال تتحدث عن أفضل الأعمال الروائية في العالم، وتحللها وتنتقدها كما لو كانت ناقدة أكاديمية محترفة، ولكنها لا تلبث أن تعود إلى الحديث مع نفسها، وتغرق في عالم تتوق منيرة لأن تعرف ما يدور فيه.

أما فوزية شاميلا، فقد كانت في حدود العقد الرابع من عمرها، كما خمنت لطيفة. ليست بجمال فريال أو ريمونا، بل كانت في الحقيقة إلى الدمامة أقرب. ولكن كان فيها جاذبية خاصة، رغم افتقادها لملامح الجمال. كانت فوزية تطيل الجلوس إلى مائدة الطعام، ولا تفعل شيئاً إلا أن تلعق ملعقة البلاستيك وهي تبتسم طوال الوقت. وعندما يغادر الجميع المائدة، كانت فوزية ترقص رقصاً هادئاً أخاذاً، على أنغام موسيقى لا يسمعها إلا هي، فتتحرك حركات رشيقة متناسقة لا يقدر عليها إلا «بالرينا» متمرسة، وهي تحتضن شخصاً لا يراه غيرها، وبسمة صافية لا تغادر فاها. وفي حالات نادرة، كانت فوزية تتعرى تماماً من ملابسها، وتلقي بنفسها على أي شخص يتصادف وجوده أثناء ذلك، ولا تتوقف حتى تمسك بها الممرضات، وتقيد إلى سريرها وهي تضحك، ولا تهدأ إلا بعد صدمة كهربائية.

حاولت لطيفة أن تعرف القصة التي تقف وراء كل واحدة من هؤلاء، ولكنها لم تكن قادرة على التواصل مع أي منهن. وحاولت أن تعرف عن

طريق الدكتور كزبرة، ولكنه كان صارماً في مثل هذه المسألة، فتلك من أسرار المهنة، ولا يمكن له أن يبوح بأسرار مريضاته، أو أي مريض أو مريضة أخرى في المصح، وهو الذي أدى يمين «أبقراط» حال تخرجه من الكلية. كل ما عرفته كان عن طريق هيفاء، ولم يكن يسمن أو يغني من جوع.

فريمونا أسعد تبلغ من العمر ستاً وثلاثين عاماً، ولها في المصح ما يقرب من اثني عشر عاماً. جاء بها أخوها إلى المصح، ومن ساعتها لم يزرها أحد، وتكاليف علاجها تأتي من أخيها، وهو من أثرياء وزعامات «المتن» الكبيرة. يمكن القول إنها شخصية هستيرية بشكل عام، وإن انتابتها لحظات توحي بكونها سيكوباتية. «سمعت أن أخاها اغتصبها، وبعد ذلك أصبحت في هذه الحالة»، قالت هيفاء وهي لا تؤكد الخبر.

أما فريال كمبلان، ففي حدود التاسعة والعشرين من العمر، ولها حوالى الثلاث سنوات في المصح. وهي من ضيعة مشهورة في الشوف، وأبوها من رجال الدين المؤثرين هناك، والمعروفين في سائر لبنان، فهو عقل كبير. تحمل شهادة الماجستير في الأدب الإنجليزي من جامعة لندن، وكانت محاضرة في الجامعة اللبنانية. كان بإمكانها أن تبقى في لندن وتعيش هناك، ولكنها فضلت العودة رغم ظروف الحرب. المهم.. قالت هيفاء.. لم تمكث فريال في الجامعة إلا سنة وبعض السنة، ثم حدث حادث كان حديث لبنان كله لفترة طويلة. فقد نشأت علاقة غرامية بينها وبين تلميذ من تلاميذها يصغرها سناً، ثم لم يلبثا أن تزوجا زواجاً مدنياً في قبرص، فقد كان يخالفها ديناً، فهو من الروم الأرثوذكس، وهي درزية. ثارت ثائرة الأهل، وحاولوا التفريق بين الزوجين بأية طريقة ممكنة، ولكن كان كل منهما متشبثاً بالآخر. وفي ظروف غامضة، اختفى زوج فريال، ثم وجدت جثته بعد أيام، أو ما تبقى منها، ملقاة في أحد الأحراش في منطقة عكار، وقد قطع عضوه التناسلي وحُشي في فمه.

كانت أصابع الاتهام تتجه نحو أخوة فريال، ولكن لم يكن هناك دليل. وبنفوذ العائلة القوي، أخرجها اخوتها من الجامعة، وحبسوها في منزل العائلة في الضيعة. ومنذ ذلك الوقت، بدأت في الحديث مع نفسها، حتى تفاقمت الحالة إلى أن أصبحت تعيش عالمها الخاص، فلم يجد أهلها بداً من الإتيان بها

إلى المصح. ولا يزورها إلا أبوها وأمها في المناسبات. ولكن فريال كما ترين غير واعية بشيء من حولها. أما فوزية شاميلا، فصدقيني لا أعرف عنها شيئاً يستحق الذكر، قالت هيفاء، فهي هنا منذ ما يقارب الخمسة عشر عاماً، أي عندما كانت في حدود السادسة عشرة من عمرها، ولا يزورها في المناسبات إلا أختاها، واحدة أكبر منها بسنتين، والأخرى أصغر منها بسنة واحدة، وهما من يدفع تكاليف علاجها هنا. لم تكن هذه المعلومات كافية لتشفي غليل لطيفة، ولكن لم يكن هناك سبيل للوصول إلى أكثر من ذلك.

تـابو

ـ هيفاء..

قالت لطيفة وهي تمتص سيجارة بعصبية، وأصابعها ترتعش بشكل واضح، فيما نظرت إليها هيفاء مستحثة إياها على الحديث بعينيها، وهي ترمق رعشة يديها وتبتسم. ولكن لطيفة تصمت، وأصابعها لا زالت ترتعش. وبعد لأي، وبتردد ظاهر:

ـ هيفاء..أود أن أعترف لك بشيء..فهل تحفظين السر؟

ضحكت هيفاء وهي تقول:

ـ نحن في مكان فضفضة الأسرار يا عزيزتي..ثم..سرك في بير..أو كما نقول: هون بحشنا، وهون دفنا..هيا..اعترفي، فستجدينني أفضل من خوري ضيعتنا..

وضحكتا معاً، فيما كانت لطيفة تستعد لإخراج ما في داخلها، وقد تحولت هيفاء إلى أذن كبيرة باتجاه واحد:

ـ هيفاء..أنا..أنا..

ـ أنت ماذا؟..هيا..ابصقيها وخلصينا.

ـ أنا..أنا أحب سليم..أعني الدكتور سليم كزبرة.

قالت لطيفة هذه الجملة وهي تسرع بخطى متعثرة باتجاه مبنى المصح، فيما وقفت هيفاء لبرهة، ثم لحقتها بعجلة وأوقفتها، وركزت عينيها بعيني لطيفة وهي تقول:

ـ تعنين الدكتور سليم تبعنا؟ . . كزبرتنا؟

وهزت لطيفة رأسها على استحياء، وقد تحول وجهها إلى كتلة من دم أحمر قان، فيما أطلقت هيفاء ضحكة من ضحكاتها الماجنة وهي تقول:

ـ وما لقيتي غير كزبرة لتحبيه؟ . . خلاص . . انتهى الرجال من العالم؟!

وعادت الاثنتان إلى السير من جديد وقد ران صمت لم تغب عنه محاولات هيفاء كتم ضحكتها، فيما كانت لطيفة تشعر بغضب شديد، وأسف أشد لإطلاع هيفاء على سرها الجديد . .

ـ أرجو المعذرة يا لطيفة، لم أقصد الإساءة . . ولكن ليس هناك ما يلفت النظر في الدكتور سليم . . فهو يقترب من الستين . . أصلع . . نحيف لدرجة الهزال . . ومناخيره أد الكوز، كما يقول المصريون . .

ثم وهي تبتسم، وتحاول كتم ضحكة أخرى:

ـ إنه أشبه ما يكون بالمهاتما غاندي . . وإن كان أفتح منه لوناً . .

ـ كنت أظنك أعمق من ذلك يا هيفاء . . أنت تنظرين إلى المظهر، ولا تقيمين وزناً للمخبر.

ـ هناك من يجمع المظهر والمخبر معاً . . فلماذا سليم بالذات؟

ـ له روح لم أجدها لدى غيره . . والحقيقة أنني لم أعرف الكثيرين على أية حال . .

ـ أنت حرة على أية حال . . وسرك في بير على أية حال.

لم تكن هيفاء جادة في حديثها السابق مع لطيفة، فهي تعلم أن ما باحت به من سر ليس سراً ولا يحزنون، فكثيراً ما تقع المريضة العصابية في حب طبيبها، فهو الوحيد الذي وجدت فيه صدراً حنوناً، أو اعتقدت ذلك، والوحيد الذي يستمع لها دون أن يجبرها على التوقف أو الإحساس بالحرج. إنه حب من نوع خاص، فالحب أنواع وليس نوعاً واحداً، رغم انضواء الجميع تحت مسمى واحد.

وأحست لطيفة بالندم على الإفصاح عن مشاعرها أمام امرأة لا تعرفها تمام المعرفة. وحتى لو كانت تعرفها تمام المعرفة، فليس من الجائز أن تفصح عن

مثل هذه المشاعر وهي الزوج والأم. ولكنها في الوقت نفسه أحست براحة غريبة تجتاحها منذ أن أخرجت هذا السر من أعماقها رغم الحرج، فالسر عبء على النفس مهما كان نوعه، ولولا الراحة التي يشعر بها مفشي السر، لما باح أحد بسر أبداً. مشاعر من الحرج والخجل والندم والراحة تجتاحها دفعة واحدة، فيما كانت تشعر أن عيني هيفاء تعريانها حتى من مجرد ورقة توت رقيقة..

ـ لِم لم تتزوجي حتى الآن يا هيفاء، رغم أنك بادية الجمال حتى وأنت لا تستخدمين المكياج ككل من أراهن هنا من ممرضات؟..

ثم وهي تضحك:

ـ إن شعرك الأشقر وحده، وهاتين العينين الزرقاوين كفيلتان بقتل أعتى الرجال.

كانت لطيفة تحاول أن تغيِّر مجرى الحديث، واختراق ذلك الصمت الذي تشعر معه أنها عارية تمام العري أمام عينين لا ترحمان..

ـ وشو بدي بالزواج وتعبه.. هيك أحلى.. هيك أريح.

قالت هيفاء وهي تضحك بحبور وقد ابتهجت بإطراء جمالها، ثم بشيء من الغضب الذي كان واضحاً أنه مصطنع:

ـ ثم هل أن مهمتنا هي مجرد إغواء الرجال؟.. كلا، فأنا إنسان قبل أن أكون أنثى.. وفق مقاييس الرجال للأنثى.

وبدرت من لطيفة ابتسامة باهتة وهي تنفث دخان سيجارتها في الهواء، ونسيم أيار يهب من أعالي الجبل محملاً برائحة صنوبر تخدر الحواس، وتدغدغ العواطف، فيما كانت رائحة البحر تأتي من أسفل الوادي، مختلطة بنسيم الجبل لتكونا رائحة أشبه ما تكون بكوكتيل من فواكه الجنة نفسها، وهما تقفان على تلك الحافة المطلة على أعماق الوادي في حديقة المصح، فيما كانت زرقة البحر تبدو من بعيد وكأنها الحد الفاصل بين الحلم والواقع، وقد انعكست على صفحته أشعة شمس يحترق جوفها، وينصهر كيانها، من أجل منح الجمال لكائنات لا تدري كم تعاني الشمس من أجل خلق هذا الجمال.. فالجمال والألم صفحتان متقابلتان ومتكاملتان في كتاب واحد هو كتاب الوجود.

أشعلت لطيفة سيجارتين، وأعطت واحدة لهيفاء، وفي ذهنها سؤال يدور، ولكنها غير قادرة على الإفصاح عنه. التقطت هيفاء الخبيرة نظرات لطيفة، فابتسمت وهي تقول مشجعة:

ـ هناك شيء يدور في رأسك يا لطيفة.. فضفضي..

ثم وهي تضحك:

ـ فنحن في نزل الفضفضة.. أليس كذلك؟

وابتسمت لطيفة، وبقيت مترددة لفترة، ثم استجمعت شجاعتها وهي تقول بتأتأة واضحة:

ـ ولكن أرجو المعذرة.. ألا تخشين العنوسة؟.. ألا تخشين أن يفوتك القطار كما يقولون؟

وامتصت هيفاء سيجارتها بتوتر واضح من خلال يدها المرتجفة، وقالت وهي ترقب سحب الدخان تتشتت في الهواء:

ـ عنوسة؟!.. ماذا يعني ذلك؟.. ولماذا يقال للمرأة التي لم تتزوج عانساً، بينما لا يقال الشيء ذاته عن الرجل؟..

حقاً لماذا؟.. كان هذا هو أول سؤال طاف بخاطر منيرة لم تحر له جواباً مُقنعاً، ولم يخطر لها على بال من قبل. فطوال حياتها كانت تستخدم هذه الكلمة على أنها شيء طبيعي، وكلمة معتادة، فلم يخطر ببالها لماذا تضبح المرأة عانساً ولا يكون الرجل كذلك، بل يقال إنه أعزب طوال حياته، فيما هي عانس إن لم تتزوج، وبكر قبل الزواج، وثيب بعده.. كلمات كثيرة تصف حال المرأة في مختلف مراحل حياتها، والمحدد لصفتها في هذه المرحلة أو تلك هو طبيعة علاقتها بالرجل، بينما يبقى الرجل رجلاً طوال حياته، دون أن تؤثر علاقته بالمرأة بصفته في هذه المرحلة أو تلك..

ـ أنا أقول لك لماذا؟

جاء صوت هيفاء فأعاد لطيفة إلى أسر المكان وإلى سجن الزمان..

ـ الناس.. المجتمع.. هو الذي يحدد ما يكون هذا وما تكون تلك، كيف تكون الأنثى امرأة وكيف يكون الذكر رجلاً، أما الطبيعة فإنها تخلق الجميع

متساوين. . ذكراً وأنثى. . والمجتمع يحولهما إلى رجل وامرأة. .

ـ الحقيقة أنني لم أفكر بهذا الأمر من قبل. . فقد ظهرنا إلى هذه الدنيا، ووجدنا الأمور هكذا، وتصورنا أنها كذلك منذ الأزل وإلى الأبد. .

ـ هذا ليس صحيحاً. . هنا يكمن الخطأ. . على رأي شيخنا عبدالله العلايلي.

قالت ذلك وهي تضحك كاشفة عن أسنان هي أبشع ما فيها. .

ـ فقد مرت على الإنسان فترات كانت فيها المرأة هي سيدة المجتمع، وكان الإله في تلك المجتمعات هو الأنثى. . بل حتى بعد الانقلاب ومجيء السيادة الذكورية، بقيت الآلهة الأقوى من النساء. . فنحن إلى اليوم نقول «أمنا الأرض»، والأرض حتى في اللغة العربية مؤنث وليست مذكراً، كما أن الشمس في هذه اللغة، وعلى خلاف لغات أخرى عديدة، هي مؤنث. . ألا يعني لك ذلك شيئاً؟ . . القضية يا صديقتي قضية مجتمع وثقافة، وليس قضية طبيعة يا لطيفة. .

بدت لطيفة مضطربة من هذا النقاش، فهو يزلزل قناعات عاشت عليها طوال عمرها، وأموراً ما كان من الممكن التفكير فيها، بل ولا يجوز الاقتراب منها. نعم لقد قرأت في الماضي عن مثل هذه الأمور، ولكن تلك القراءات ما كانت تنفذ إلى روحها كما تنفذ كلمات هيفاء في هذه اللحظة. . لقد كانت تقرأ ولكنها لم تكن تفكر، واليوم هي لا تقرأ فعلاً، ولكنها دائمة التفكير. . لماذا؟ . . لا تدري، ولكنها تحس أنها على استعداد لسماع أي شيء، والاقتناع بأي شيء في هذه اللحظة.

ـ وأين الدين في كل ذلك يا هيفاء؟

قالت لطيفة وهي تحس بخوف دفين يجتاحها. .

ـ ماذا تعنين؟

ـ أعني أن الله خلق آدم وحواء، وحدد لكل منهما دوره في هذه الحياة. .

ـ وهل تؤمنين بذلك يا لطيفة؟

وصعقت لطيفة:

ـ وهل هناك شك في ذلك يا سيدة أبو العريف؟!..

قالت لطيفة وقد أصبح كل وجهها علامة استفهام كبيرة، فيما اتسعت عيناها الواسعتان حتى أصبحتا هما الاتساع ذاته، فيما كانت هيفاء تبتسم بسمة النصر وهي تقول:

ـ هل رأيت؟..لقد أسميتني السيدة أبو العريف، وليس السيدة أم العريف رغم أنني أنثى..مجرد كلامنا العادي يعبر عن لب المشكلة..

ـ يبدو أن طول الإقامة في مصح نفسي جعلك محللة نفسانية يا هيفاء..

قالت لطيفة ذلك وهي تتصنع الضحك، فيما كانت هيفاء تنظر إلى البعيد وهي تقول:

ـ من عاشر القوم..

ثم وهي تنتبه لنفسها:

ـ أرجو المعذرة..لم أقصد الإساءة..

ـ ولماذا تفترضين الإساءة؟..كلامك العادي يعبر عنك يا هيفاء.

وابتسمت هيفاء بمرارة وهي تقول:

ـ معك حق..فما أنا في النهاية إلا غزية إن غزت..نحن أسرى العادة والتقليد، حتى وإن ناقض ذلك الطبيعة ذاتها..حتى من أطلقوا عليه اسم «عميد الأدب العربي»، الدكتور طه حسين كان أسير التقليد هنا بالرغم من عقلانيته المدعاة..

وتشعل هيفاء سيجارة أخرى تمتصها حتى منتصفها، وتقول:

ـ أراد أن يُذكر كل شيء، حتى وإن كان المعني أنثى..استخدم اللغة كوسيلة إقناع، ولكن الحقيقة هي أن حس الذكورة كامن في أعماقه، وثقافة الأزهر التقليدية هي من قاده في النهاية، رغم السوربون والزواج من فرنسية..كلها قشور يا سيدتي، أما الجوهر فهو كامن لا يتغير..

قالت هيفاء ذلك وهي تمتص آخر نفس من السيجارة، ثم تلقيها على الأرض، وتسحقها بعنف غريب قبل أن تقول:

ـ المهم. . حقيقة أنا أعتقد أن آدم وحواء مجرد أسطورة ليس إلا. . أسطورة مثلها مثل أسطورة عشتار وتموز وأدونيس وإنانا. . بل إنني أعتقد أن الله ذاته مجرد أسطورة قديمة تحولت إلى ما هي عليه الآن. .

لم تكن لطيفة تعرف من هو تموز أو أدونيس، ولا من هي إنانا أو عشتار أو غيرهم، ولكنها أحست بالرعب يجتاح كل مفاصلها، وقلبها يخفق بشدة، ويكاد يغمى عليها من هول ما تقوله هذه المرضة، بل وكادت أن تصفع هذه المتغطرسة. . آدم وحواء مجرد أسطورة؟!. . الله مجرد أسطورة؟. . كلا. . إنها تخرف. . لا ريب أنها تخرف. . هي مجرد مدعية للمعرفة ولكنها لا تعرف ما هي المعرفة الحقة. أحست بالغثيان والازدراء والقرف من هذه التي تقف أمامها وما تقول. نسيت أنها في مصح وأنها تعالج من مرض عصابي أو حتى ذهاني، بل ونسيت كل شيء متعلق بها ولم يبق في ذهنها إلا شيء واحد: أن توقف هذه المتفلسفة المتفذلكة الجاهلة عند حدها. . الله أسطورة؟. . يا لها من غبية لا تريد أن تفهم. . لقد قال أحد العلماء إن قليلاً من الثقافة يؤدي إلى الإلحاد، ولكن الكثير منها يعود بك إلى الإيمان. . حاولت أن تكون في غاية الهدوء وهي تقول:

ـ ألا تعتقدين أنك تبالغين يا هيفاء؟. . الله أسطورة؟. . آدم وحواء أسطورة؟. . لم يبق إلا أن تقولي إن الأنبياء مجرد أدعياء. .

ـ ولم لا؟. . إذا كان الرب أسطورة، فلم لا يكون الأنبياء كذلك؟. .

قالت هيفاء بكل برود، فيما كانت لطيفة تكاد تحترق، وهي تحاول منع يدها من صفع هذه الصفيقة الجاهلة المتعالية. .

ـ ليس مهماً أن نعرف الحقيقة، ولكن المهم هو عدم الخوف من طرح أسئلة تقودنا إلى الحقيقة. . لذة الحقيقة أنها لا تفصح عن نفسها مباشرة ودون تعب. .

أحست لطيفة أنها في حالة من دوار لا تستطيع له منعاً، وشعرت أن كل شيء كان منظماً في داخلها قد أخذ يسيح على بعضه، فلم تعد الألوان واضحة، ولم تعد الحدود مرتبة، وتحول كل شيء في داخلها إلى لوحة سيريالية كل شيء فيها ممكن، رغم أنها تعبر عن اللاإمكان ذاته. . أرادت أن

تحول الحديث بأي شكل كان، فهي لا تريد مواصلة الحديث في شيء يزلزل أشياء كثيرة في داخلها، وهي بحاجة إلى الاستقرار أكثر من حاجتها إلى الزلازل والبراكين، وخاصة عندما تنفث هذه البراكين حممها في كل مكان، كما تفعل هذه الهيفاء الآن. وشعرت بكره عميق يجتاحها تجاه هيفاء، وودت لو أنها قادرة على تركها وحسب، ولكنها في الوقت نفسه تشعر بلذة لمجرد الحديث.

وشعرت هيفاء من جانبها بأنها قد تجاوزت حدودها. فهي ممرضة أولاً وأخيراً، في مصح للأمراض النفسية، ومهمتها هي محاولة المساعدة في العلاج وليس إثارة ما قد ينتكس بالمريض إلى ما لا تحمد عقباه. كانت تعلم أنها قد تطرد من المصح لو علم الطبيب بطبيعة مناقشتها مع لطيفة، فمهمتها ليس إقناع المريض بما تؤمن به، ولكن الاستفادة مما يؤمن به المريض من أجل الشفاء. كانت تعلم كل ذلك، ولكنها لا تدري ما الذي دعاها إلى مثل هذا الحديث مع لطيفة

ـ ولكن ماذا بشأن. . أقصد ماذا. . يعني. .

كانت لطيفة تريد تحويل مجرى الحديث بأي شكل كان. .

ـ قوليها وخلصينا. . ماذا بشأن الجنس؟. . كيف أعيش دون رجل. . أليس كذلك؟

وفوجئت لطيفة برد هيفاء، وانتابها خجل فتاة عذراء في ليلة دخلتها، فلم تحر جواباً، وإن كانت بسمتها الخجول قد أفصحت عن كل ما يعتمل في صدرها. .

ـ لديّ صديق. . صادقت الكثيرين، ولكن راغب هو آخر الأصدقاء. . صار لنا الآن عشر سنوات مع بعضنا بعضاً.

ـ ولماذا لم تتزوجا؟

ـ ولماذا نتزوج؟. .

ثم وهي تنفث دخان سيجارتها في هواء الجبل:

ـ ثم ما هو الزواج؟. . إنه رضىً وقبول من الطرفين. . ذكر وأنثى يريدان

بعضهما بعضاً. .ألم يتزوج آدم وحواء بهذه الطريقة؟

ـ ولكن الله كان شاهد زواجهما.

ـ وهل من الممكن أن يكون الله شاهداً في كل وقت؟

ـ نعم. .ليس من الضروري أن يكون الله شاهداً بذاته كما في زواج آدم وحواء، ولكن من الممكن أن يكون شاهداً من خلال دينه.

ـ وما هو دين الله؟

ـ الإسلام طبعاً! . .وهل هناك شيء غيره؟

قالت لطيفة بحدة، وهي تنظر إلى هيفاء بكل عينيها، وعلى اتساعهما الكامل. .

ـ هل يعني ذلك أن بقية الخلق أبناء حرام لأنهم ليسوا من المسلمين؟. .

ـ بالطبع لا. .ولكن. .أقصد. .يعني. .

ولم تستطع لطيفة أن تجد رداً مناسباً في تلك اللحظة، فقالت دون تفكير:

ـ وعلى أية حال، ظننتك تقولين إن آدم وحواء أسطورة؟. .

ـ هما كذلك. .ولكن في كل أسطورة يكمن معنى من المعاني. .الأسطورة ليست مجرد حكاية خرافية، بل هي تبرير لقناعة من القناعات. .قد لا تكون القصة حقيقية، ولكن المعاني التي ترمي إليها حقيقية. .هذا جزء من الأسطورة. .ثم إنني أردت أن أسايرك في منطقك في حكاية آدم وحواء.

ـ تسايرينني! . .وهل أنا مجنونة؟

وابتسمت هيفاء وهي تنظر حولها وتقول:

ـ ربما كنت كذلك. .أليس هذا هو بيت المجانين؟. .ثم إذا كان الجنون كما أراه فيك. .فلا أقول إلا اللهم احشرني في زمرة المجانين. .ليت كل المجانين من أمثالك يا لطيفة.

قالت هيفاء ذلك وهي تبتسم بحنان واضح، ثم تقول:

ـ ما أردت قوله هو أنه حتى في الأساطير التي وضعها المجتمع الذكوري

لمصلحته، فإن الحقيقة لا تلبث أن تطل برأسها. . المهم. . هل كان هناك أي نوع من الطقوس في التقاء آدم بحواء؟. .

وعادت الحيرة من جديد. .

ـ نعم. . لا. . لا أدري، ولكن. .

ـ بلا لكن بلا بطيخ. . هناك فرق بين الزواج وبين ترتيبات الزواج ومؤسسة الزواج. . الزواج واحد في كل مكان وكل زمان: ذكر وأنثى يرغبان في بعضهما بعضاً، ويعلنان ذلك على الملأ، أما الترتيبات فهي اجتماعية محضة. .

وأشعلت لطيفة سيجارة أخذت تمتصها بهدوء وهي تنظر إلى هيفاء بعين باردة ونفس لا تدري ماذا تريد، فيما كانت هيفاء تشعر بالندم على مواصلة حديث يفترض أن لا تتحدث فيه، وغابت المرأتان في صمت كانت تشكله حلقات دخان زرقاء لا يلبث أن يبددها الهواء، فتختفي وكأنها لم تكن، مثل حلم بددته شمس الصباح.

نسمات السحر

ـ أنت لا تحبين أهلك ولا أطفالك، ولا زوجك، ولا مجتمعك.

ثم بعد تردد:

ـ ولا بلدك..

ثم مستدركاً:

ـ كما أنك لا تكرهينهم في الوقت ذاته، وهنا يكمن لب المشكلة..

قال الدكتور سليم وهو يجلس على مكتبه، وجلست لطيفة على الكرسي المقابل، في الجلسة الأخيرة لها في غرفة التحليل:

ـ بل أنت لا تحبين ولا حتى نفسك لأنك لا تحبينهم. .ومع ذلك تحبينهم، ولكنك تكرهين نفسك. .لديك يا لطيفة شعور مكبوت بالذنب، وأنت تعاقبين نفسك دون أن تشعري. .لم تكوني تريدين الزواج، ولكنك تزوّجتِ. . لم تريدي أطفالاً ومسؤوليات، ولكنك أنجبتِ. .غير قادرة على التأقلم مع مجتمعك، وغير قادرة على التأقلم مع مجتمعات تختلف عن مجتمعك، وفي الوقت نفسه أنت لا تستطيعين البعد عن مجتمعك أو الحياة فيه.. وهنا تكمن عقدتك يا لطيفة. .تشعرين أنك شاذة في مجتمع يطالبك بالكمال. . . كنت تحبين أخا زوجك، ولكنك تزوجت ممن أرادته أختك زوجاً لها، فكنت تشعرين بالسرور انتقاماً من أختك التي اكتشفت ممارساتك الجنسية الأولية، ولكنك كنت تشعرين بالأسى لمصير أختك، وحرمانها ممن كانت تريد، وأخذ الشعوران يتصارعان في داخلك وأنت لا تشعرين، حتى جاءت

اللحظة التي انفجر فيها الصراع، كما ينفجر دمل مهمل، وانتشر الصديد في الداخل والخارج. كما أنك كنت طوال الوقت تحملين احتقاراً مكبوتاً في داخلك لذاتك. احتقاراً مصدره ممارستك للعادة السرية، وألاعيب الطفولة مع فالح، ومراقبتك للحيوانات وهي تجامع بعضها. كما أنك تكرهين ذاتك دون أن تشعري، فتعاقبين هذه الذات بقسوة. . كره مصدره عدم حبك لأمك وأختك وزوجك. نعم أنت تحبينهم، أو تشعرين أنك يجب أن تحبينهم، ولكنك لا تحبينهم في الوقت نفسه. . كل شيء حولك يطالبك بالكمال، وكل شيء حولك يوحي بالكمال، رغم علمك بأن هذا الكمال يخفي الكثير من النقص، ولكنك تلومين نفسك أولاً وآخراً. . ولأجل ذلك تنامى احتقار الذات وكره النفس في داخلك، وكنت تكبتينه بشدة حتى تحول إلى عقدة. ولذلك أيضاً كنت تكرهين أختك قماشة، فهي تبدو كاملة في عينك، ومعاملة أهلك المميزة لها كانت تؤكد هذا الانطباع. وكنت تحاولين دفع شقيقتك الصغيرة إلى أن تفعل ما تفعلين، كي تثبتي أنك لست شاذة. والحقيقة أن الخلل ليس فيك يا لطيفة. . المجتمع يريد منك أن تكوني ملاكاً، رغم أنه يعلم أن ذلك مستحيل، ولكنه يفعل ذلك ظاهراً. . كنت طوال الوقت تحاولين المواءمة بين المتناقضات، ولكن الفشل المحتوم هو الذي أدى في النهاية إلى الحالة التي أنت فيها. . عفواً. . التي كنت فيها. . بل أستطيع القول إنك أردت عمداً ومن دون شعور أن تمرضي نفسياً وجسدياً للتخلص من حس المسؤولية ووطأة التناقضات التي فرضتها الحياة عليك دون أن تكوني مذنبة كما تعتقدين في أعماقك. .

ويبتسم الطبيب، ويعبث بقلم الرصاص للحظات، ثم ينظر إلى لطيفة ويقول:

ـ هناك قصة طريفة أعتقد أنها وردت في كتاب «عقلاء المجانين» للنيسابوري، ربما أوجزت ما أريد قوله. يُقال إنه كان هنالك مجنون تجتمع عليه الناس ويعبثون به. وذات مرة اجتمعوا عليه كالعادة، فقال لهم: ترون ما أنتم فيه من حيرتكم وغفلتكم شيئاً ما هو إلا محنة العبودية، ووطأة الشريعة في الدنيا، والحبس والحساب والسؤال والعذاب في الآخرة، وإنما الراحة ما أنا فيه، لا حرج في الدنيا، ولا حساب في الآخرة. .

وصمت الدكتور سليم لفترة، وعاد للعب بقلمه وهو يبتسم وينظر إلى لطيفة، ثم قال:

ـ هذا هو بالضبط ما عنيته من الرغبة اللاشعورية في الهرب من المسؤولية، وهو ما ينقلب إحساساً مفرطاً بالمسؤولية على المستوى الشعوري. فهذا «المجنون»، كما كانوا يصنفون مرضى النفس في الماضي، يوجز بحديثه الشعوري ما يمكن أن يملأ كتباً ومجلدات عديدة عن حالة الفرد المعاصر عموماً، ورغباته اللاشعورية. . وقد كنت يا لطيفة تريدين لا شعورياً أن تكوني كذاك المجنون. . لا حرج في الدنيا، ولا حساب في الآخرة. . انتفاء المسؤولية.

ثم وهو يلقي القلم جانباً:

ـ فالمجتمع الذي عشته في الطفولة غير المجتمع الذي عشته في سن النضج، غير المجتمع الذي عشته بين هاتين المرحلتين. . التغيرات السريعة والجذرية التي مر بها بلدك غيرت في سلم القيم لديكم، ولم تغير في الوقت نفسه. . تناقض، أليس كذلك؟ . . نعم هو تناقض انعكس على حياتك النفسية، وربما الحياة النفسية لآخرين، ولكن هذا التناقض انفجر بهذا الشكل لديك نتيجة عوامل أخرى خاصة بك. .

ثم وهو ينظر إليها بعينين باردتين:

ـ أنا أعلم أنك ربما كنت مستاءة مما أقول، أو ربما لا تصدقينه وتقولين هذه مجرد مبالغات طبيب يريد أن يثبت أنه نجح فيما فشل فيه الآخرون. . ولكن. . ولكن صدقيني إن شفاءك بيدك أنت ولا أحد غيرك. . شفاءك يعتمد على أن تنظفي صفيحة الزبالة لديك من كل ذاك الركام من الزبالة الذي تجمع فيها وتعفن حتى أدى إلى تعفن ذاتك. . إن شفاءك يعتمد على أن تتصالحي مع ذاتك ومع مجتمعك أيضاً. . نحن لم نصنع هذا العالم الذي وجدنا فيه، بل خرجنا إلى الوجود ووجدناه بشكله الذي فرض نفسه علينا. . نعم قد نحاول تغييره وفق مرئياتنا، ويجب أن نحاول تغييره وفق مرئياتنا، فهذا هومعنى الحياة، ولكن إذا فشلنا يجب أن لا نلقي اللوم الكامل على ذواتنا فنصبح من المرضى غير شاعرين. . نحاول! نعم. ولكن علينا التأقلم مع محيطنا مهما كان

شكله بقدر الإمكان، وإلا فإن مرض النفس هو النهاية.. غاضبة؟.. ربما.. بل ليكن.. ولكن عليك تنظيف صفيحة الزبالة.عليك تنظيف صفيحة الزبالة في داخلك..

لم تكن لطيفة مستاءة في الحقيقة، رغم أنها مستاءة.فقد كان كلام الدكتور يجد مكاناً واسعاً في روحها قبل أن تستقبله أذنيها، وكلمات أحمد رامي بصوت أم كلثوم تدندن في ذهنها بالرغم منها وهي تشدو: «غلبت أصالح في روحي، عشان ماترضى عليك. من بعد سهدي ونوحي، ولوعتي بين إيديك. صعبان علي اللي قاسيته، في الحب من طول الهجران. ما اعرفش إيه اللي جنيته، من بعد ما رضيت بالحرمان»..

ـ وشيء آخر يا لطيفة..

قال الدكتور وهو يلملم أوراقه، ويغلق دفتر ملاحظاته:

ـ أنت تعانين من حالة حصر شديدة..

لم تفقه لطيفة ماذا يعني الدكتور:

ـ لم أفهم يا سليم.. حصر؟.. ماذا يعني ذلك؟

ثم وهي تضحك:

ـ حصر بول يعني؟..

وابتسم الطبيب وهو يقول:

ـ الحصر يا لطيفة هو نوع من الخوف من شيء ما، وكل إنسان يعاني من شيء من الحصر. ولكن إذا بلغ الخوف والقلق من شيء ما، أو حالة ما، نقطة معينة، فإنه يتحول إلى مرض عصابي، يؤدي بدوره إلى عوارض أمراض عضوية قد لا تكون موجودة. من خلال جلساتنا العديدة، لاحظت أنك تخافين من المستقبل بشكل هوسي، كما أن لديك قلق مخيف من الماضي..

وتوقف الدكتور للحظة نظر خلالها إلى عينيها مباشرة نظرة خاطفة، فيما كانت حبات العرق تتجمع على جبينها، ثم واصل تحليله:

ـ تخافين الماضي وفاقته وعوّزه، ولا تصدقين في أعماقك ما أنت فيه من ثراء وحالة اجتماعية ما كانت لتخطر على بالك ولا في الأحلام، فينتابك

القلق من أنّ ما يجري لا يمكن أن يكون صحيحاً، أو هو صحيح، ولكنه لا يلبث أن يزول في أي لحظة. كل التربية التي تلقيتها في صغرك تركز أن الزوال هو القاعدة، فلا يثق أحد بالأيام. قد يكون ذلك صحيحاً، وهو شعور طبيعي نجده لدى كل شخص في هذا العالم على اختلاف ثقافاته، ولكن المبالغة في الشعور بالقلق تؤدي إلى الحصر. وفي النهاية تحاولين أن تقمعي هذه الفكرة، ثم تكبتينها إلى أعماق اللاشعور، وتتحول إلى عقدة.. إلى حصر مرضي هو سبب ما كنت تعانين منه من غثيان وخفقان وكل تلك الأعراض التي تعرفينها..

ويعبث الطبيب بقلمه لفترة وهو ينظر إليها، وقد علت فمه بسمة محيرة، ثم يقول:

ـ وهناك شيء آخر، طالما أننا نتحدث عن الماضي..

مسحت لطيفة حبات العرق المتجمعة على جبينها، ثم تمخطت في المنديل، وقد لفها البرود تماماً، فيما صوت الطبيب يأتيها من بعيد:

ـ أنت مرعوبة من شقيقتك قماشة، ومن ابن عمك فالح.. فهما شاهدان حيان على ممارستك الجنسية المبكرة.. تكرهينهما في أعماقك، وتودين لهما الاختفاء بأي شكل كان كي تتخلصي من شهود الماضي، فتشعرين بالذنب على إحساسك هذا، وتحاولين التعويض بأن ترغمي نفسك على حب صالح وأولادك والتفاني في خدمتهم..

ـ ولكني أحب زوجي وأطفالي فعلاً يا سليم..

ـ أنا لم أقل أنك لا تحبين زوجك وأطفالك، ولكني أقول إنك تبالغين في إظهار ذلك الحب لأسباب لا علاقة لها بالحب.. أما بالنسبة لقماشة وفالح، فأنت تعتقدين أنك نسيت الماضي وشهوده، ولكنه ساكن هناك في أعماقك لا يريد تركك، وإن كنت لا تشعرين به.. ونرجع ونقول عليك تنظيف صفيحة الزبالة لديك، بدل أن تراكمي القاذورات فوق بعضها فتتعفن وتتعفن معها روحك.. مصارحة النفس بالحقائق الخفية، دون إحساس هوسي بالذنب، هو الخطوة الأولى للتنظيف.. قد تكون العملية متعبة ومؤلمة، ولكن ترك الأوساخ تتراكم هو أشد إيلاماً في النهاية.. وأنت أدرى الناس بذلك.

ثم وهو يستعد لإنهاء الجلسة:

ـ على فكرة.. هل تعلمين لماذا تكرهين رائحة دهن العود؟

وفتحت لطيفة عينيها على اتساعهما، وتحول وجهها إلى ترقب كامل، فيما تورد وجه الدكتور وهو يبتسم ويقول:

ـ لقد كانت رائحته تبعث الخوف في أعماقك اللاواعية.. أنا لا أتحدث عن حادثة النخيل ومشاعرك الواعية نحوها.. كلا.. رائحة دهن العود تبعث الخوف الدفين في نفسك من أن يعود ذلك الشخص إلى الظهور من جديد.. خوفاً من أن يعيد ما فعل في الماضي، وخوفاً من أن يظهر شاهد جديد على ماض تريدين له الموت.. تخافين أن يعيد ما فعله بالماضي، وهو خوف مركب. تشعرين بالرعب من العملية نفسها، وتخافين من نفسك لأنك استمتعت بالعملية.. ظهور هذا الشخص من جديد قد يضعك في حالة امتحان لا تريدين التعرض لها.. ورائحة دهن العود تعيد كل هذه المخاوف إلى نفسك..

ثم وهو يقف استعداداً للانصراف، يقدم سيجارة للطيفة، ويشعل واحدة لنفسه، يأخذ منها نفساً عميقاً، ويقول، وقد خرجت الكلمات من فيه مختلطة بالدخان:

ـ يجب أن تجعلي لحياتك معنى يا لطيفة..

أعادها صوت الطبيب إلى المكان والزمان من جديد.

ـ يجب أن يكون لديك هدف وغاية في هذه الحياة، وإلا أصبحت حياتك خاوية، والحياة الخاوية هي اللامعنى.. وعندما يضيع المعنى، تنتكس النفس وتمرض، أو تصبح مهيأة للمرض على الأقل.

ثم بعد لحظات من الصمت:

ـ كانت حياتك خاوية يا لطيفة رغم كل مظاهر الامتلاء.. املئيها بغاية أو هدف، مهما بدا سخيفاً في نظرك، وعند ذاك.. وعند ذاك فقط، تعودين إلى الحياة التي انسحبت منها..

وغادر الغرفة، فيما بقيت لطيفة تنظر إلى أرجاء الغرفة التي شهدت من حياتها خلال السنوات القليلة الماضية، أكثر مما شهدتها حياتها السابقة كلها.

*

خمس سنوات كاملة، وربما زادت قليلاً قضتها لطيفة في مصح الأجنحة المتكسرة للأمراض العصابية والذهانية، لا تذكر منها اليوم إلا لحظات خاطفة بالكاد تنطبع في الذاكرة. جلسات طويلة، وأحاديث أطول، وأناس كثيرون عرفتهم هناك، ولكنها لا تذكر اليوم من كل ذلك إلا وجه الدكتور سليم كزبرة، ووجه الممرضة هيفاء عصفور، كما أنها لا يمكن أن تنسى تلك الكميات الكبيرة من الحبوب التي كانت تجبر على ابتلاعها صباحاً ومساءً، ولا تلبث بعدها أن تشعر بنشاط غريب، أو تغيب في نوم عميق، تتخلله كوابيس مزعجة: حيوانات تتعارك، وأموات يصرخون، وأحياء يقعون من علٍ، ونسوة ينحن. وفي كل تلك الأحلام تجد نفسها واقعة مع الواقعين، أو حية بين أموات غير قادرة على توضيح أنها بينهم بالخطأ، أو نائحة مع النائحات. وفي كل جلسة صباحية، كان الدكتور سليم كزبرة حريصاً على أن تقص عليه أحلامها مهما كانت سخيفة، وكم كان يعذبها من أجل أن تتذكر تلك التفاصيل الدقيقة في الحلم، ولكن الغريب أنها تبدأ بتذكر التفاصيل رغم أنها كانت جازمة بأنها لا تتذكر الحلم كله جملة وتفصيلاً. واليوم لم يبقَ في ذاكرتها من بيروت إلا تلك اللحظات التي تبدو اليوم خاطفة، وتلك التي كانت تتريض فيها كل عصر يوم مع سليم أو هيفاء في حديقة المصح وخارجه، وأصوات انفجارات متفرقة كانت تقتحم أذنيها من بعيد.

خلال تلك النزهات تعلمت التدخين، ودخنت أول سيجارة في حياتها وهي التي كانت لا تسمي الدخان إلا بالمخيس. أعطتها هيفاء أول سيجارة في حياتها، وكانت سيجارة مارلبورو أحمر، فهي تذكر ذلك جيداً، ولكنها لم تستطبها ولم تدخن بعدها أي سيجارة أخرى إلا بعد عدة أسابيع، ثم أخذت في التدخين اليومي. كانت تحس براحة عجيبة وهي ترى سحب الدخان تصدر كثيفة من صدرها ومن ثم تتلاشى في الهواء من حولها، فتحس أن أشياء كثيرة خرجت من صدرها مع الدخان، وتلاشت في الفضاء المحيط،

ويغمرها إحساس ضاف بالراحة والسكينة. نصحها الدكتور سليم بعدم الاستسلام لهّذه العادة الضارة والقبيحة، رغم أنه هو ذاته من المدخنين الشرهين، ولكنها شرحت له تلك البهجة والراحة التي تشعر بها وهي ترى سحب الدخان تتشتت في الهواء، فلم يجد بداً من تركها على راحتها. كما حاولت هيفاء في إحدى نزهاتهم خارج المصح أن تعلمها شرب العرق وأكل الكبة النية، ولكنها لم تستسغ العرق، فقد كان يُشعرها بالغثيان، ولا اللحمة النية، فقد كانت تحس أن معدتها تريد مغادرة جوفها من اللقمة الأولى، ولكنها استمرأت السجائر وأدمنتها.

وفي المصح نفسه، لا تغيب عنها صورة «المعتوهة»، أو ريمونا أسعد، من بين كل النزلاء. كان جميع من في المصح، من مرضى وممرضات، يدعونها بالمعتوهة، فقد كانت كل قسمات وجهها، وكل حركات جسدها تؤكد أنها قد أصبحت معتوهة بالفعل، في آخر أيام لطيفة في المصح. لعابها يسيل بغزارة من فمها، وشعرها الأسود الفاحم كان منفوشاً على الدوام، وبسمة بلهاء تحتل وجهها طوال الوقت. لم تكن ريمونا عدوانية، ولا تصبح شخصية سيكوباتية إلا في حالات نادرة لا تتذكر منها لطيفة إلا حالة واحدة، عندما استهزأت بها إحدى الممرضات الجديدات، في حديث مع ممرضة أخرى تسمعه ريمونا، وقالت إنه مَن الحرام أن تكون مثل هذه المعتوهة محسوبة على جنس النساء، فتحولت ريمونا فعلاً إلى كلب مسعور ساعتها، ولم تهدأ إلا بعد جلسة كهربائية غابت بعدها في نوم عميق، وطُردت الممرضة الجاهلة من المصح. أما في معظم الأحوال، فقد كانت ريمونا تجلس كعادتها بالساعات أمام النافذة المطلة على وادي الصنوبر في الأسفل، وتنظر طويلاً إلى الأفق البعيد، وهي تعبث بلا توقف بذلك الصليب الذهبي، حتى تنتحر الشمس في مشوارها اليومي، ويبدأ الظلام في إسدال أرديته السوداء، فتنهض بآلية، ولا أحد يدري ماذا كان يدور في رأسها خلال تلك الساعات الطويلة. أما في الليل، وبعد تناول طعام العشاء مع بقية النزيلات، فقد كانت «المعتوهة» تجلس إلى البيانو الأسود الضخم في الصالة، وتأخذ في عزف أروع سيمفونيات موزارت وهايدن وتشايكوفسكي؛ ولكنها حقيقة تنطلق في عالم الملائكة حين تعزف لسترافنسكي وروسيني، وخاصة أوبرا «سميراميس» لروسيني، و«قصة جندي»

لسترافنسكي. ويأخذها حماس غريب، وتغيب عن كل الوجود حين تعزف «زواج فيغارو» لموتسارت. بالاضافة إلى مقطوعات لسيد درويش، وخاصة «طلعت يا محلا نورها»، و«زوروني كل سنة مرة حرام»، ومحمد عبدالوهاب، ومحاولات رائعة لنقل موسيقى صالح عبدالحي، وخاصة «ليه يا بنفسج»، وزكريا أحمد إلى البيانو. ثم إذا أحست بالتعب من العزف، نهضت وهي تجر قدميها إلى غرفتها بصمت، وقد ابتلت عينيها بدموع غزيرة، واللعاب لا زال يسيل من طرف فمها بغزارة أيضاً. تتذكر لطيفة كل ذلك، وتأسف لأنها لم تحاول أن تتقرب بشكل أكبر في أيامها الأخيرة في المصح من «المعتوهة» لتعرف حقيقة قصتها.

الكتاب الرابع:

أرواح هائمة

الهجير

وأخذت الشمس ترسل خيوطها البرتقالية من بعيد، وهي تبدأ رحلتها اليومية المعتادة في هذا المكان من العالم، فأطفأت لطيفة سيجارتها الألف ربما، فيما كان عواء لوسي طالبة الطعام يأتي من الحديقة الخلفية مؤذناً بأن نهاراً جديداً قد ولد. وعما قليل ستنهض جوسي وماريان وروز. وعندما تتوهج أشعة الشمس وتتحول إلى لون الذهب، سوف تهبط هدى وندى درجات السلم بتؤدة وحذر، وهما تمسكان بيدي بعضهما بعضاً، وكأنهما تخشيان الفراق. ومن بعدهما لطيفة الصغيرة وعبيدة مباشرة إلى حيث التلفزيون، وأفلام الكرتون الصباحية، وستبدأ المعركة الصباحية المعتادة أيام الخميس والجمعة بين عبيدة وعمته لطيفة الصغيرة حول المحطة التي يجب أن يشاهدها الجميع.

ورغم أن البيت مليء بأجهزة التلفاز والفيديو وكل أنواع المحطات الفضائية، إلا أن النزاع يبقى دائماً على جهاز صالة الجلوس، وتبقى هدى وندى في انتظار صمت المدافع وهدوء العاصفة، غير مكترثتين بمن فاز بالمعركة. أما طارق وصالح، فالوقت ما زال مبكراً لإيقاظهما، وما زال مبكراً على صلاة الجمعة، ثم تبدأ ترتيبات يوم الجمعة.

فبعد الصلاة مباشرة، سوف يتجمع كافة أفراد الأسرة على الغداء، ثم السمر إلى ما بعد العصر. سبحان الله كم نما طارق وشب خلال الفترة منذ عادت من بيروت. فرغم أنه في حدود السادسة عشرة من العمر، ولكن من يراه لا يشك في أنه قد تجاوز العشرين. كل شيء فيه يعجبها، «والقرد في

عين أمه غزال على أية حال»، كما تردد بينها وبين نفسها مبتسمة، وهي ترمقه بحب وإعجاب، وهي تذكر الله وتهلل، فلا يحسد المال إلا أصحابه، كما يقولون، إلا أنها تخاف عليه من اندفاعه، وهذه العصبية التي تجعله يغضب من أي شيء وكل شيء، حتى أنها شكت في أنه مصاب بمرض السكر، لا سمح الله. ولا يشفع لطارق كل هذا الطيش، إلا أنه متفوق في دراسته رغم كل شيء. ما زال متعلقاً بها بشكل غريب، وهذه هي المشكلة. فهو لا يريدها أن تمنح حنانها ومحبتها لأحد غيره، حتى أنه يغار من شقيقتيه الصغيرتين، ومن ابن أخيه عبيدة، الذي يكاد يكون نسخة عنه شكلاً وسلوكاً. ورغم أنها تحاول إرضاءه بكل الوسائل، إلا أن إرضاءه صعب للغاية. تزفر بيأس وهي تحدث نفسها: «لا زال مراهقاً. . وسوف يهدأ قليلاً عندما يكبر. . الله يسوي اللي فيه الخير. . الله يسوي اللي فيه الخير. . »، أخذت تحدث نفسها وهي تنهض استعداداً ليوم طويل، ولكنه من المتع النادرة التي بقيت لها هذه الأيام. .

كم تحب يوم الجمعة هذا، بعد أن كانت تمقته بشكل غريب، فقد كان يوماً مملاً ليس كغيره من أيام، فقد كان قلق غريب، واكتئاب شنيع، وصداع غريب يصيبها كلما نهضت من النوم في ذلك اليوم، ولم تكن تدري لذلك سبباً، حتى اكتشفت السبب في بيروت، أو ما قال لها الدكتور أنه السبب. أما اليوم، فإنه وإن كانت تشعر بشيء من الاكتئاب في أيام الجمعة، إلا أنه لا يقارن باكتئاب تلك الأيام. ففي هذا اليوم تأتي بدرية وزوجها وطفليها أيمن ومأمون، ومشاعل وزوجها وابنتها الجميلة لطيفة. . وتبتسم باقتضاب وهي تحدث نفسها: «ربما أتى يوم تحول فيه نصف البلد إلى لطيفة. . فها نحن أسرة واحدة لديها ثلاث لطيفات. . »، وتشعر بسعادة وهي ترى حرص أولادها على اسمها. كم تتمنى لو كان خالد موجوداً، فهي تذوب شوقاً لرؤيته، فمنذ أن غادرت إلى بيروت لم تره إلا مرة واحدة وسريعة، فلم يزرها في المصح إلا مرة واحدة، ولم تكن بحالة تسمح لها برؤيته جيداً والتملي بطلعته التي كانت تراها أبهى طلعة أشرقت عليها الشمس وظهر عليها القمر. . سامحك الله يا خالد. . أليس لأمك عليك حق؟. . الله أعلم أين هو الآن، فآخر خبر عنه قال إنه في البوسنة والهرسك بعد أن انتقل إليها مع بعض رفاقه في أفغانستان بعد انتصار المجاهدين هناك، ولكنهم لا يدرون فعلاً أين هو، وهل هو حي أم

ميت. كم تمنت وهي تشاهد الأخبار أن يُقبض عليه في أي مكان، فذاك أفضل من أن تسمع خبر وفاته، أو يأتيهم أحدهم وهو يحمل الخبر الذي لا تريد سماعه، ففي السجن هو حي على الأقل، ويبقى الأمل في أن يعود.

حتى الرسائل لم يعد يبعث بها، فآخر رسالة وصلت منه كانت بعد عودتها من بيروت بعدة أشهر، يبلغهم فيها أنه بخير وعافية ولا شيء غير ذلك، ثم انقطعت أخباره تماماً. لم تكن تتصور أن يتحول خالد هذا التحول الغريب، ويذهب للقتال في كل مكان وهو الهادئ منذ طفولته. نعم لقد أصبح شديد التدين في آخر الأيام التي جمعتهما قبل السفر إلى بيروت، ولكنه لم يكن ميالاً إلى العنف في أي يوم من الأيام. لو أن طارقاً هو الذي فعل ما فعله خالد لما استغربت. فطارق ذو شخصية عنيفة منذ الصغر، ولكن هاهو العنيف يصبح حملاً وديعاً مقارنة بأخيه المقاتل، ويتحول الهادئ المسالم إلى ذئب لا يقر له قرار. .عجيبة هي الدنيا. .بل عجيب هو الإنسان، يعتقد أنه يعرف نفسه تمام المعرفة، فإذا هو أجهل الناس بها. .وطاف جبل الجليد في ذهنها، وترحمت كثيراً على الدكتور سليم كزبرة، وقررت أن تهاتف هيفاء عندما يجن الليل، وتهدأ الحركة في البيت. .

*

ـ هل من أخبار عن خالد يا عم؟ . .

كان ذلك الدكتور أحمد الشتلة، زوج مشاعل، وقد تحلق الجميع حول مائدة غير بعيد عن بركة السباحة المغلقة في الحديقة الخلفية للمنزل، وكانت مشاعل هي المسؤولة عن الشواء ذلك اليوم، فقد كانت تريد تجربة وصفة جديدة للشواء قرأتها في أحد الكتب، ووعدتهم بتذوق ألذ شواء يمكن أن يوجد، والجميع يضعون أيديهم على قلوبهم خشية أن تقدم لهم فحماً تسميه لحماً، فهي لا تنأى تترك الشواء في الخارج لتعود إلى حيث الدفء في غرفة المسبح، وهي تفرك يديها وتتأفف من هذا البرد الذي لم يشهدوا له مثيلاً من قبل. حاولوا إقناعها بنقل الشواء إلى الداخل، في المشواة الغازية، ولكنها أبت إلا الشي على الفحم وفي الخارج.

ـ علمي علمك يا ولدي. . ولكن قيل لي إنه الآن في البوسنة والهرسك. .

قال صالح ذلك وهو ينظر إلى عبيدة الذي يسبح في البركة وقد تعلق برقبة طارق وهما يتعاركان ويصرخان بصوت عال، فيما كانت لطيفة تحذرهما من اللعب العنيف، واللطيفتان، لطيفة بنت صالح ولطيفة بنت أحمد، تضحكان بحبور وهما تتابعان «مغامرات» طارق وعبيدة، والتوأم، هدى وندى، متعلقتان بأختهما لطيفة الصغيرة، وكأنهما يخشيان أن يحدث لها شيء غير متوقع..

ـ غريب أمر خالد..

جاء صوت علي النبقة، زوج ابنته بدرية..

ـ شاب مثقف ومتعلم وثري مثله يلقي بكل هذا وراء ظهره، ويذهب إلى حيث لا أحد يعلم؟..يترك النعيم ويلقي بنفسه في الجحيم!..ومن أجل ماذا؟..لا شيء في النهاية، فأميركا ستفرض نفسها وما تريد في النهاية، شئنا أم أبينا..

ويرتشف بعضاً من الليمونادة المثلجة أمامه ثم يواصل:

ـ بل حتى أولئك الذين يقاتل خالد من أجلهم، سواء في أفغانستان أو البوسنة والهرسك، سوف يتعاونون مع أميركا بعد أن ينتهي كل شيء، وربما هم من المتعاونين مع أميركا منذ البداية، ويكون خالد وصحبه أول الخاسرين.. ألم تسمعوا عن الغزل الإيراني الأميركي الأخير؟..فللسياسة سراديبها المظلمة، وطرقها الخفية التي لا يعرفها كل أحد..وإلا وش رأيك يا دكتور أحمد؟..

ثم وهو يضحك، كاشفاً عن أسنان لوثها التبغ:

ـ نتحدث في السياسة ومعنا دكتور فيها..فهل يُفتى ومالك في المدينة؟..

لم يكن صالح مستعداً ولا راغباً في أي نقاش سياسي مهما كان نوعه، فكل حديث في السياسة كان يفتح جراحاً في داخله هو في غنى عنها، فاكتفى بهزة من رأسه وابتسامة كسلى، فيما جاء صوت أحمد وهو يقول ضاحكاً، وينظر بطرف عينه إلى أبي خالد:

ـ أرجوك يا علي..بلا سياسة اليوم، فنحن نأتي هنا كي نسترخي بعض

الشيء، ونستمتع بصحبة وسوالف العم أبو خالد، وليس كي تتوتر أعصابنا..

ـ يا سلام.. وهل لم يبق إلا السياسة كي تتوتر أعصابنا؟.. كل شيء حولنا يجعلك كوتر عود مشدود على آخره، وأنت لا تذكر إلا السياسة..

ـ المهم.. لنتحدث في أي شيء آخر إلا السياسة.. أرجوك يا أبو أيمن..

كان صالح يراقب نسيبيه وهو يبتسم.. كم يحب الدكتور أحمد زوج ابنته مشاعل. إنه لا يكره علياً، ولكنه يجده ثقيل الظل نوعاً ما، ولا يدري كيف تتحمله بدرية، ولكن مرآة الحب عمياء كما يقولون. فهو ابن حمود النبقة، رجل الأعمال المعروف، والذي جمعته به عدة صفقات تجارية كانت مربحة جداً. ومنذ أن قابل علي بدرية في لندن خلال إجازة صيف كان صالح قد خصصها لطارق والبنات خلال غياب أمهم في بيروت، كان واضحاً أن كل منهما وقع في نفس الآخر موقعاً طيباً. وعندما تقدم لخطبتها، كان راضياً كل الرضى عن تلك «الصفقة».

فمن ناحية فإن بدرية تميل إليه. ومن ناحية أخرى، فإن ذلك سيوطد أواصر علاقة العمل مع حمود النبقة بأواصر النسب. كما أنه تفاءل بزواج أول البنات، فقد يكون ذلك بشارة خير بعودة السعادة إلى بيت غادرته منذ أن استقر فيه الشيطان. أما مشاعل، فقد تعرفت إلى زوجها من خلال العمل في الصحافة. فقد كان الدكتور أحمد الشتلة كاتباً مرموقاً في صحيفة «أخبار الوادي» رغم أنه طرق باب الكتابة الصحفية متأخراً. كما أن أخبار بحوثه في المؤتمرات التي تعقد في الخارج كانت مثار فخر الجميع به وإعجابهم. غير أن الذي أشعل اسم الدكتور أحمد الشتلة في سماء الشهرة، هو كتابته لرواية حازت على إعجاب الكثيرين، وانتشرت بشكل كبير، وأصبح له العديد من المعجبين، وكان من بينهم مشاعل نفسها.

اتصلت به تلفونياً مبدية إعجابها بما يكتب، ثم تطورت الأمور إلى مكالمات طويلة في آخر الليل، ثم مقابلات متفرقة في أماكن مختلفة من الرياض. كان الدكتور أحمد فتى لعوباً رغم ثقافته وشهرته، وحاول أن يقيم علاقة جنسية عابرة مع مشاعل قبل الزواج كما فعل مع غيرها من معجبات، ولكنه لم يستطع أن ينل منها أكثر من قبلة سريعة عابرة، ثم اكتشف أنها مختلفة

عما عرف من فتيات فأحبها، بل وتعلق بها، وبدأ يتعرف على تلك الشخصية التي كان يعميه عنها حرصه على إقامة علاقة جنسية عابرة سبق أن فعلها مع أخريات كثيرات قبلها. ورغم أن صالحاً لم يرتح كثيراً لأحمد عندما تقدم منه خاطباً مشاعل، فقد كان من أسرة متواضعة لا تصل في مستواها الاجتماعي إلى مستوى أسرة الأثلة أو النبقة، إلا أنه تحول إلى واحد في معزة أبنائه أنفسهم بعد أن تعرف إليه تمام المعرفة. كما بدا واضحاً أن لطيفة تشاطر زوجها الرأي في زوجي ابنتيها، فقد كان أحمد في غاية اللطف والكياسة فيما يتعلق بطريقة التعامل مع الناس، وخاصة النساء، فيما كانت الفظاظة التقليدية تغلب على طابع علي، رغم أنه ينتمي إلى أسرة بورجوازية معروفة قبل الطفرة، وليست من تلك الأسر التجارية الجديدة التي جاءت مع الطفرة ولم تستطع اكتساب أخلاقيات البرجوازية التقليدية وتقاليدها.

ـ أرجوكم.. تحدثوا في أي شيء إلا بما يذكرني بخالد سامحه الله.. فلم أعد قوية كما السابق، ولا أستطيع تحمل ما كنت أحتمله..

قالت لطيفة بعد أن انضمت إلى مجلس الرجال، وعينها على بركة السباحة، فيما التصقت ابنتاها بها ما أن جلست، وهما تنظران إليها بحب عميق.

ـ المعذرة يا أم خالد..

جاء صوت الدكتور أحمد رقيقاً كعادته، وكأنه يُلقي شعراً غزلياً:

ـ فهذا هو طبع العرب.. لا يحبون الحديث إلا في السياسة، وكل منهم مُنظر زمانه الأوحد.. حتى لو كان لا يفقه شيئاً فيها..

قال ذلك وهو يبتسم وينظر بطرف عينه إلى عديله، الذي ابتسم بدوره وهو يقول:

ـ أعلم من تقصد بكلامك هذا.. ولكن هين.. دواك عندي يا دكتور الحكي والخرطي، وأستاذ الخرابيط..

فضج الجميع بالضحك، فيما نهضت مشاعل لتتفقد شواءها، بينما شبكت بدرية ذراعيها حول عنق أمها، وقد ألصقت رأسها برأسها وكأنها تخشى أن يفصلهما أحد عن بعضهما..

نـار ورمضاء

وجاء الخبر الذي كان الجميع يخشى سماعه، ويتوقعونه في الوقت ذاته، وإن كانوا يتمنون في أعماقهم أن تخيب توقعاتهم. سمعوا في الأخبار أن بضعة مقاتلين عرب قد قتلوا في معركة في البوسنة والهرسك، وكان من ضمن هؤلاء المقاتل الشرس المعروف باسم «أبو عبيدة». كان هناك إحساس طاغ بأن أبي عبيدة هذا ما هو إلا ولدهم الهادئ خالد، ولكنهم كانوا يتمنون أنه قد يكون «أبو عبيدة» آخر، فالأسماء الحركية تتشابه. ولكن بعد عدة أيام من الترقب والتوجس، طرق الباب شاب في حدود الخامسة والعشرين من العمر، وسيم الوجه أبيضه، سمح المحيا، وكان واضحاً أنه حليق شعر الرأس تماماً برغم الغترة البيضاء التي كان يرتديها، بلحية طويلة شديدة السواد مهذبة بعناية، وشاربان محفوفانِ بعناية، وثوب أبيض قصير إلى ما دون الكعبين طولاً، ورائحة دهن العود تتضوع مع كل حركة يتحركها، ما إن رآه صالح حتى انقبض صدره، رغم سماحة وجه الشاب وتلك الابتسامة الواسعة التي كانت تحتل محياه كله، وأدرك أن ما سمعوه في الأخبار صحيح تماماً، وأن أبا عبيدة هو ابنه خالد..

قاد صالح الشاب إلى المجلس، وقلبه ينتفض بين قدميه، وحرارة غريبة كالغليان تحرق داخله، وهو يحاول السيطرة على ارتعاش يديه، فيمسك الشمال باليمين تارة، واليمين بالشمال تارة أخرى، وقدماه بالكاد قادرتان على نقله من الباب الخارجي حتى مجلس الرجال..

ـ يا عم أبو خالد..

قال الشاب وهو يقطع صمت اللحظات الطويلة، وتلك الأسئلة عن الحال والصحة..

ـ يسرني أن أبشرك بأن أخانا المجاهد خالد الأثلة، القائد الشجاع «أبو عبيدة» قد استُشهد دفاعاً عن حياة المسلمين وأعراضهم وكرامتهم وحقوقهم على أرض المسلمين في البوسنة، في وجه قوى الكفر والإلحاد والظلم والبغي الصربية..هنيئاً له الدرجة العالية في جنة الخلد إن شاء الله، إلى جانب الأنبياء والشهداء والصديقين، وهنيئاً لكم بشهادته..

كان الشاب يتحدث، وهو يصف بإسهاب وفخر المعركة التي استشهد فيها الأخ أبو عبيدة، وكيف أنه أباد عدداً من أعداء الله قبل أن تصيبه رصاصة غادرة لم تمهله طويلاً، فانتقل إلى النعيم المقيم، فيما كانت كل غيوم الدنيا تتجمع في صدر صالح وهو يسمع ولا يسمع، وفي ذهنه تتربع لطيفة..كيف سيخبرها مثل هذا الخبر؟..هل ستتحمل الخبر وهي التي عانت ما عانت؟..هل وهل وهل لا تنتهي. ونهض الشاب مستأذناً بالانصرف، فيما كانت الخادمة تأتي بالشاي، ولكنه اعتذر برقة عن تناوله وهو يمد يده إلى صالح برسالة تبين خط خالد على مظروفها، فيما كان الشاب يقول:

ـ لقد أوصاني الشهيد أبو عبيدة أن أسلمك هذه الرسالة في حالة استشهاده، وهاأنا ذا أنفذ أمره الأخير..صبرنا الله حتى نلتقي به في جنة الخلد إن شاء الله، وأعاننا على السير في طريقه..

وقبل أن ينصرف الشاب، قال صالح بصوت انتزعه انتزاعاً من داخله:

ـ إذا سمحت يا أخ..

وتذكر أنه لا يعرف اسم الشاب، فسأله عن اسمه، فابتسم الشاب وهو يقول:

ـ ليس مهماً اسمي..وعلى أية حال يمكنك أن تدعوني بأبي صُهيب..

ـ يا أخ أبو صُهيب، كيف يمكن لنا أن نستلم جثمان الشهيد؟

ابتسم أبو صهيب بوقار وهو يقول:

ـ جثمانه الكريم سيبقى حيث قاتل واستشهد، ليبقى شاهداً على أن

مصير المسلمين واحد مهما اختلفت أراضيهم وجنسياتهم. . الإسلام يجمعنا، وما عداه يفرقنا. . هو الدين وهو الوطن وهو الأهل والعشيرة. . .

ـ ولكن أمه وأخوته. . لا بد أن يروه للمرة الأخيرة. . كما يجب أن يُدفن في أرض آبائه وأجداده. . فهو ابن ناس، وليس ممن لا جذور لهم ولا شأن. .

ابتسم أبو صهيب وهو يقول:

ـ ليعملوا بعمله، ويسيروا على دربه الطاهر، وهم ملاقوه في الجنة إن شاء الله. . فقد أصبح الإسلام جذوره، وكل المسلمين آباءه وأجداده وأهله. . وليس هناك مسلم لا شأن له يا عم أبو خالد. . فلا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى. إن أفضلكم عند الله أتقاكم. . السلام عليكم ورحمة الله.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وانهار صالح على مقعده في مجلس الرجال، وقد تحول إلى كتلة من الحزن الخالص. . لقد مات خالد. . ومرت في ذهنه صور عديدة: صورته يوم بُشر بخالد قبل بضع وثلاثين سنة، صورته وهو يجلس إلى جانب خالد مبتسماً يوم تخرجه من الجامعة، وجه خالد وإيمان ليلة زفافهما، صور عديدة لمناقشاتهما عندما كان يعود إلى البيت متأخراً من سهرات أصحابه وكان واضح السكر. والحقيقة أن صالح لم يكن يأبه لحكاية السكر هذه كثيراً، رغم القلق بالطبع، ولكنه كان يخشى أن يسقط بكره في بؤرة المخدرات الشنيعة. فشرب الخمر مقدور عليه، والإقلاع عن الخمر ميسور إذا توفرت الإرادة، أما المخدرات فهي الضياع بعينه. وعندما تحول خالد إلى التدين، كانت نصائحه له بعدم المغالاة في الدين عندما أطلق لحيته أول مرة.

لم يستطع صالح أن يمنع دمعة خرجت من عينه بالرغم منه، ثم أجهش بالبكاء لأول مرة في حياته. لم يبك في أي يوم من أيام حياته، رغم كل الآلام التي عاناها، ورغم تلك الأيام السود التي مرت عليه، ولكنه اليوم يبكي. . لقد جعله خالد يبكي. . ومسح دموعه بطرف شماغه، وهو يستغفر الله ويسترجع، ثم ينهض لا يدري إلى أين يذهب. . لطيفة. . لا بد من أن

تعلم لطيفة بالأمر. . ولكن كيف يكون ذلك؟. . ولكنها يجب أن تعلم بالأمر. ولأول مرة يشعر بلطيفة فعلاً. . كان يعتقد ويتصرف على أنها جزء من حياته، ولكنه لم يفكر يوماً بأهمية أو قيمة ذلك الجزء. حتى عندما كانت تعاني، وعندما ذهبت إلى بيروت، كان لا يفكر فيها كثيراً حتى وهو يفكر فيها. أما اليوم، فهو يحس بوجودها طاغياً على كيانه، وبقدر حزنه على خالد، كان قلقه من مواجهة لطيفة. . وتحسس جيب ثوبه حيث الرسالة، وقرر أن لا يقرأها إلا مع لطيفة.

*

لم يتوقع صالح أن تكون لطيفة بهذا الهدوء وهي تتلقى خبر وفاة بكرها الذي لم تره منذ سنوات. كانت تجلس في الحديقة، ليس بعيداً عن بركة السباحة تقرأ كتاباً، فيما كان عبيدة وعمته الصغيرة لطيفة يلعبان غير بعيد عنها، وفي الداخل كانت هدى وندى تتابعان مغامرات توم وجيري. أما طارق، فمنذ أن أصبح لديه سيارة، فإنه لا يمكث في البيت إلا أقل الوقت، رغم امتعاض لطيفة، ولكن عزاءها أنه كان مبرزاً في دراسته، وخاصة في المواد العلمية والرياضية، فيما كانت علاماته في المواد الأدبية بالكاد تجعله ينجح.

تقدم منها صالح وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وجلس بجانبها بهدوء، وأخرج علبة سجائره وأشعل واحدة، ولأول مرة يمد يده بالعلبة إلى لطيفة. كان يعلم بطبيعة الحال أنها تدخن، ولكنه كان دوماً يبدي لها امتعاضه من منظرها وهي تدخن. رأى كثيرات من النساء يدخن من مختلف الأجناس والجنسيات، ولكنه غير قادر على تصور امرأة نجدية تدخن، فكيف باستساغة الأمر. بل إن تدخين المرأة ارتبط في ذهنه بالمومسات، فهو لم يقابل في حياته من المدخنات إلا المومسات، وهو لم يتعامل غالباً إلا مع المومسات في الخارج. وبعد أن أصبح ثرياً معروفاً، ورجل أعمال يشار له بالبنان، قابل نساءً في أوروبا وأميركا يدخّن، ولكن الانطباع الأول بقي عالقاً في الذهن لا يريد أن يريم. فرغم الاحترام الذي كان يبديه لأية امرأة أوروبية أو أميركية يتعامل معها، إلا أن الجميع كانوا في نظره من المومسات بهذا الشكل أو ذاك،

ولم يستطع التخلص من هذه النظرة حتى وهو مقتنع بخطئها. وأدركت لطيفة أن في الأمر شيئاً حين مد لها صالح علبة السجائر. خفق قلبها بشدة، وألقت الكتاب جانباً، وأشعلت السيجارة وقد تحولت إلى كتلة من القلق، والخبر الذي كان الجميع يتوقعونه يحتل كل ذهنها، ولكنها كانت تحاول أن تمني النفس بغير ذلك. ساد الصمت لبرهة خالتها دهراً، وقد تركزت عيناها على صالح، الذي كانت عيناه واضحة البلل. ثم فجأة جاء صوته متهدجاً من بعيد:

ـ أنت تعلمين يا أم خالد أن الموت علينا حق.. و..

وقبل أن يكمل، قاطعته لطيفة قائلة:

ـ لقد مات خالد.. أليس كذلك؟..

وهز صالح رأسه وهو يغالب دموعه، فيما وجدت لطيفة نفسها في حال من انعدام الوزن فعلاً.. فقد مادت الأرض من تحتها بقوة.. واختفى المكان وكأنه قد غاب في ثقب أسود بعيد، وتلاشى الزمان والمكان، كما كان الحال قبل خلق السماوات والأرض، حين كان كل شيء غماماً في غمام، وطيف الرب يحوم فوق الماء، وبدت الدنيا وكأنما لا أول لها ولا آخر. واختفت الذات وكأنما لا لطيفة ولا صالح ولا طيف من بشر.. لم تعد تدرك أين هي، وفي أي زمن، ومن هي. استمر هذا الوضع لفترة لا تدري مداها، قبل أن تنظر إلى صالح بكل هدوء لم تتخيل أنها قادرة عليه، وتقول:

ـ متى؟.. كيف؟.. أين؟..

وأخبرها صالح بكامل القصة، وكانت دموعها تجري مدراراً وهو يقص عليها قصة استشهاده كاملة كما رواها له ذلك الشاب المجهول. كان صالح خلال كل ذلك يغالب دموعه، ولكنه كان يحاول أن يبدو متماسكاً، قوياً أمام امرأته التي تحولت إلى دمعة مجسدة. وبعد أن أنهى صالح قصته، مسح أنفه بطرف شماغه، وقد استعد تماماً لانهيار لطيفة القادم لا محالة. ولكن لطيفة أخذت تبكي بصمت لفترة، ثم نظرت إلى صالح وهي تقول:

ـ رحمه الله.. رحمه الله.. ورحمك الله يا صالح.

لم يكن يتوقع مثل ردة الفعل هذه، فنظر إلى زوجه بعينيه المحمرتين،

والمليئتين بدموع محبوسة، وهو في غاية الدهشة. . أهذه هي لطيفة التي كانت دموعها تكاد تخرج من مجرد رؤية شاة مذبوحة، أو هرة في الشارع مدهوسة؟ . .

ـ فليرحمنا الله جميعاً يا صالح، الأحياء أحق من الأموات بالرحمة. . فالأموات قد ذهبوا إلى رب رحيم كريم، أما نحن. . أما نحن، فأعاننا الله على دنيا لا ترحم. . وأناس قست قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

وأحس صالح بالراحة لكلامها، وود لو كان قادراً على مجاراتها في الكلام والقدرة على التعبير عن المشاعر، ولكنه رجل، والرجل يجب أن يكون متماسكاً لا يعبر عن مكنونات نفسه. . هذه هي الحقيقة، وهذه هي الثوابت. . هكذا رُبي، وهكذا عاش، وهكذا سيبقى. . وهذا هو ما يجب أن يكون.

ـ أنت منافق يا صالح. .

قالت لطيفة بصوت خافت رقيق منساب من بين دموعها، وكأنها تخاطب نفسها أكثر مما تخاطب الجالس إلى جانبها، فيما أُخذ صالح من المفاجأة، ولكن لطيفة لا تريد أن تترك له منفذاً، وتواصل الحديث وكأنها تتحدث إلى نفسها من جديد، أو إلى شخص بعيد لا وجود له إلا في مخيلتها:

ـ كلكم منافقون أيها الرجال. .

ثم تبتسم وهي تمسح دموعها في الوقت ذاته وتقول:

ـ أنا أعلم كيف تفكر، وبماذا تفكر. . كلكم رجال؟! . . ماذا يعني ذلك؟ . . ماذا يعني أن تكون رجلاً؟ . . صدفة بيولوجية. . مجرد سباق بين حيوانات منوية لا تعرف طريقها.

تنشج قليلاً، وتتمخط في محرمة ورقية، ثم تقول:

ـ عيناك مليئتان بالدموع، ومع ذلك لا تريد أن تتركها تخرج. . أهذه هي الرجولة يا صالح؟ . . يموت ابنك الحبيب كما يموت المسيح على الصليب، وكما يموت الحسين في كربلاء، فترفض أن تترك العنان لمشاعرك وأحاسيسك ودموعك. . أهذه هي الرجولة؟ . . طز فيك يا صالح. . بل طز في الرجولة كلها إن كانت كذلك، وأحمد ربي الرحمن الرحيم على أنه جعلني من الإناث.

ماذا تقول هذه الحرمة.. هل عاد إليها جنونها من جديد بفعل الحزن والمأساة؟.. مسيح وصليب؟.. الحسين وكربلاء؟.. أو قد أخرجها الحزن عن الدين؟.. يموت بكرها، فتتحدث عن الصلب والصليب وأحاديث الكفر والكفار، والرافضة وأوهامهم؟.. أخذ صالح يحدث نفسه بذلك فيما كانت لطيفة تواصل البكاء ومسح دموعها المنهمرة بصمت. ولكنه في داخله يحس بأنها على حق، وإن مانعته نفسه من الاعتراف بذلك، فكيف يعترف لامرأة بأنها على حقّ!.. ولكن الحزن يحتل كل جزيء من جسده الهزيل، والدموع تملأ كل حيز متاح في عينيه، فتصور خالداً وقد عُلق على الصليب، أو الحسين وقد اجتزت رأسه في كربلاء، وقد تحول إلى خالد ذاته... حاول تمالك نفسه، والسيطرة على مشاعره، ولكنه وجد نفسه وقد انخرط في بكاء شديد، وأخذ ينشج كما ينشج طفل مُعاقب.. أخذ يبكي لكل تلك الأوقات التي كان يجب أن يبكي فيها ولكنه لم يبكِ. لم يكن يعلم أن عينيه كانتا تستوعبان كل تلك الدموع، وهو الذي كان يعتقد أن عيون النساء فقط هي التي تفرز الدمع، بالرغم من كل ما قالوا وما يقولون. كان يشعر ببعض الحرج ويد لطيفة اللطيفة تربت على ظهره الذي أخذ في الاحدوداب، ولكنه كان يشعر بالراحة وهو يحس بكفها تمر بحنان على ظهره.

ـ لقد ترك لنا رسالة..

قال صالح وكأنه تذكر شيئاً أنسته إياه الدموع، أو كأنه يهرب من حرج الدموع.

ـ اعطانيها ذاك الشاب، فقررت أن نقرأها سوياً..

ورنت كلمة «قررت» في ذهن لطيفة بشكل أثار نفورها، وشيء من اشمئزاز لم يدم طويلاً، ولكنها لم تتوقف عندها كثيراً، واحتل خالد كل مخيلتها، فقالت بتلقائية:

ـ أين هي؟.. اقرأها..

ومسح صالح عينيه وأنفه بطرف شماغه وهو يخرج الرسالة من جيبه، ويفض الظرف، ويبسطها أمامه ويقرأ بتلعثم. تختطفها لطيفة منه وتأخذ في القراءة وقد تحولت كلها إلى دمعة بطعم الملح.

النفير

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الذي لا يذل من والاه، ولا يفلح من عاداه. الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرسول الهادي الأمين، والنبي الأمي الكريم، سيدنا محمد بن عبدالله، ذي الجبين الأزهر، والوجه الأنور، وعلى آله وصحبه الكرام الميامين، والغر المحجلين، وبعد:

والدي العزيز. . والدتي العزيزة،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

«ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين»، صدق الله العظيم الذي أرجو أن أكون من المشمولين بكلماته. تستلمون هذه الرسالة وأنا بين يدي الديان العظيم، خالق السماوات والأرض، وفاطر الأكوان، وجابل الإنسان، وفالق الحب والنوى، جل وعلا، وتقدست أسماؤه وصفاته. لا أدري حقيقة إن كانت أمي قد عادت من ذلك المستشفى البغيض في بيروت أم لا، ولكني كتبت هذه الرسالة على افتراض أنها قد خرجت من محنتها، وشملها الرحمن برحمته التي شملت كل شيء. .فإن لم يكن الأمر كذلك، فأرجوك يا والدي العزيز أن تخرجها من ذاك المستنقع الذي يسمونه مصح أو مستشفى، وهو في الحقيقة ممرض. فما تعاني

منه الوالدة هو نقص في الإيمان والعياذ بالله، وما أن تعود إلى ربها حق العودة، وتتوب إليه توبة نصوحا، حتى تعود إلى ما كانت عليه وأفضل: «ومن يتقِ الله يجعل له مخرجاً».

ولعلكم جميعاً تستغربون لماذا ألقي بنفسي إلى التهلكة التي نهى عنها الله، كما تعتقدون، وأنا ابن عائلة الأثلة المعروفة، وابن الشيخ صالح الثري المعروف، والمستقبل مضمون بالنسبة لي، ولا شيء ينقصني. ولكن السؤال الذي كان يلح علي دائماً هو: عن أي مستقبل نتحدث، وعن أي نقص نتكلم؟.. حياة الإنسان في هذه الدنيا محدودة مهما بلغ أجلها، كما أن أصحاب الدخل المحدود فقراء مهما بلغت دخولهم. كم يعيش الإنسان في هذه الدنيا يا ترى؟.. سنة، عشرة، مائة، ألف؟.. الله وحده أعلم بالآجال، ولكنه سيموت في يوم من الأيام، فلا خالد إلا الخالد ذاته «ولا يبقى إلا وجه ربك ذي الجلال والإكرام». وعندما يعيش في هذه الدنيا، فماذا يحتاج؟.. لقمة تقيم الأود، وقطعة من قماش تستر العورة، ومكان يقي حر الصيف وقر الشتاء، وزوج يأوي إليه، وما عدا ذلك فهو من الإضافات.. لا فرق بين قصر أمير أو كوخ فقير، ولا بين كسرة خبز يابسة يلتذ بها أعرابي أشعث أغبر في خيمة ضائعة في الصحراء، أو قطعة كعك مغموسة بالعسل لفتح شهية ساكن قصر منيف في الرياض، ولا بين ثوب من حرير يجرجر أذياله فلان بن فلان، أو آخر من الصوف لا يُدرى ما اسم صاحبه ولا من أين جاء.. والنهاية مثل البداية.. من التراب وإلى التراب نعود: «منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، وإلينا ترجعون». فالبداية والنهاية واحدة، ندخل الدنيا عراة ونخرج منها عراة، ولكننا نحن من يصنع الفروق بين البداية والنهاية. خرجنا إلى الدنيا عراة، وندفن عراة، ونبعث عراة، ولكننا نتباهى فيما لا يجوز فيه التباهي.

فكرت في كل ذلك، فوجدت أن كل الحياة تصبح بلا معنى إذا فُقد الإيمان بهدف سام يُضحى بالحياة ذاتها من أجله. ليس الثراء، وليست الشهرة، وليست السلطة، وليس الجاه أهدافاً سامية في هذه الحياة، بقدر ما هي مجرد أقنعة تخفي الهدف الحقيقي، الهدف السامي الذي ما خُلقنا إلا لأجله. هذا الهدف هو تحقيق إرادة الله على أرضه، وتطبيق شرعه في دنياه،

والدفاع عن دينه، ولا أجل من الجهاد في سبيل الله من أجل تحقيق ذلك.
وقبل أن أكتشف هذه الحقيقة التي كانت تقف أمامنا طوال الوقت ولكننا كنا عُمي البصر والبصيرة عنها، كنت ضائعاً لا أدري من أنا وإلى أين أسير، رغم أنني كنت أعتقد أنني كنت أسير على الطريق الصحيح، ولكن ذلك كان مجرد وهم وسراب. وظننت اللذة في أشياء كثيرة، منها ما حرم ربي ومنها ما لم يُحرم، ولكني اكتشفت أن اللذة الخالصة والحقيقية تكمن في تسليم الأمر لله، والانقياد لأوامره ونواهيه، والدفاع عن دينه وكلمته في كل مكان. لذة وراحة لو عرفتها من قبل، لقاتلت من أجلها، فكيف اليوم وأنا أمسكها بيدي، وكل ذلك بفضل العزيز الحكيم الذي ما كنت لأهتدي لولا أن هداني، ولبقيت في بحور الضلال دون هاد أو دليل، فالحمد لله على كل ذلك كثيراً.

لقد غمرتني هذه اللذة النقية بحيث أني نسيت كل شيء عداها، حتى أمي وأبي رغم ما لهما من حقوق أمر بها الرب سبحانه، رغم امتعاضي من بعض أمور تخالف إرادة الله تمارسها يا والدي العزيز، وأرجو أن تكون قد تركتها خلال فترة غيابي، أو تتركها حين تعلم بوفاتي وتعلم أنه ليس في النهاية إلا وجه الكريم. أما أنت يا والدتي العزيزة، إن كنت تقرأين كلماتي، فإنني لم أحب في حياتي شخصاً مثل حبي لك. فقد كنت مثال المرأة الكاملة، والأم الصالحة، ولكني ما زلت غير قادر على استيعاب ما فعلته في لحظة جنون لا شك فيها، وإلا كيف تخالفين أمر الله وتحاولين قتل نفسك، وأنت المؤمنة التي تعرف الله خير المعرفة! كل ما أقوله هو الحمد لله أن محاولتك لم تنجح، وإلا كنت الآن في نيران السعير، ولكني أرجو من القدير أن يصفح عنك ويغفر لك زلتك، التي ارتكبتها وأنت مرفوع عنك القلم، إنه غفور رحيم. وإذا كان لا يحمد على مكروه سوى الله سبحانه وتعالى، فإن ذلك ينطبق على تلك الحادثة التي فتحت بصري وبصيرتي.

في الواقع يا أمي أن الحقيقة كاملة انجلت أمامي بعد محاولتك الانتحار، إذ بعدها بعدة أيام رأيت فيما يرى النائم وكأنني ضائع في الصحراء لا أدري أين أنا ولا إلى أين أذهب، وكنت في غاية العطش. وفجأة إذ بي أرى شيخاً وقوراً يرتدي عباءة من وبر أدهم، جالساً في خيمة من خيش خشن، وكانت ملامح وجهه تبعث الراحة في نفسه. أردت أن أسأله أين نحن وفي أي اتجاه

يمكن السير، فإذا به ينظر إليّ مبتسماً ونور غريب يشع من وجهه ثم يقول قبل أن أتكلم: «أنت ظمآن، أليس كذلك؟..»، وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة، مد يده إليّ بطاسة فضية ممتلئة بحليب أبيض في غاية النقاء. شربت حتى ارتويت، ثم نهض الشيخ وهو يمسك بالطاسة ذاتها وقد امتلأت هذه المرة بماء في غاية النقاء، أخذ يصب منه على رأسي وهو يتلو قوله تعالى: «ألم يئن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون»، فنهضت من النوم بشعور غريب من الراحة وصفاء النفس لم أعهده من قبل، وتلك الآية ترن في رأسي كما رنين أجراس النصارى في يوم صمتت أصواته، ووجه ذاك الشيخ يحتل كل ذهني. ورغم أني عرفت طريق ربي قبل ذلك الحلم، بفضل الله ثم بفضلك يا أمي، إلا أن شيئاً من الحيرة كان ينتابني بين الفينة والأخرى، حتى كُشفت لي الحقيقة كاملة، ومُنحت الهداية غير منقوصة، بعد ذلك الحلم المبارك.

لن أوصيكم بولدي عبيدة، فهو ابنكم قبل أن يكون ابني، وأرجو أن تنشؤوه على مبادئ الدين الحنيف، والأخلاق الحميدة. وأرجو أن تعتذروا لأم عبيدة عما سببته لها من ألم، إذ يشهد الله تعالى على أني لم أجد في تلك الفاضلة إلا كل خير، وكانت خير زوج طوال فترة زواجنا القصير، ولا ينقصها شيء من أخلاق وجمال، ولكن كانت النفس تأباها لسبب لا أدريه. وعلى أية حال ما شاء الله فعل، والخيرة فيما اختاره صاحب الأمر من قبل ومن بعد. كما أود أن أخبركم أنني تزوجت فتاة صالحة من المجاهدين في سبيل الله في أفغانستان اسمها عائشة ظاهر مسعود صفندهاري، من بلدة قندهار، أنجبت لي، والمنة لله، ولداً أسميته محمداً، على اسم سيد الخلق أجمعين، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وتركتها حاملاً في شهرها السابع، ولا ريب أنها قد وضعت الآن، ولكنني لا أعلم ماذا وضعت. أوصيتها إن كان المولود ذكراً فلتسمه شرحبيل أو عمر، وإن كان أنثى فلتسمها فاطمة أو زينب. ابحثوا عنهم يا أبي، ولا تدعوهم من بعدي، وأنا أعلم أنكم لن تدعوهم، فليس لهم بعد الله إلا أنتم، واخوتنا من المجاهدين هناك. أرجو أن لا تبكوني، فسنلتقي في الحياة الباقية إن شاء الله، وإن كنتم تحبونني

فعلاً، أرجو أن تعملوا في دنياكم ما يجعلكم من أهل جنة الرحمن في الآخرة كي نجتمع في النعيم المقيم إلى أبد الآبدين. أحبكم كثيراً، ولكن حبي لله ورسوله أكبر، وهو من أسأله أن يجمعنا فيَّ الآخرة كما افترقنا في الدنيا، وفرقنا متاع الغرور: «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون». هذا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الطامع في غفران ربه
ابنكم: أبو عبيدة، خالد بن صالح الأثلة

*

لا تدري لطيفة كيف تصف مشاعرها وأحاسيسها بعد قراءة الرسالة. أحست بشيء يموت داخلها، ولكنها لا تدري كنهه. لم تشعر بالحزن يستولي عليها، ولكنها أحست بشيء أكبر من الحزن يغلف فؤادها، وهي غير قادرة على وصفه بتلك الكلمات العاجزة. أحست بشعور بالذنب يغلف روحها، فحاولت أن تجبر نفسها على الحزن، ولكنها لم تستطع، فالمشاعر لا تأتي بالإرادة. كانت الدموع تجري بلا توقف على وجنتيها، ولكنها لا تشعر بالحزن كما اعتادت أن تشعر به في السابق. . هل ماتت روحها يا ترى، فلم تعد تكترث حتى بوفاة أول من منحها صفة الأمومة؟. . لا تدري. . ولكنها تريد أن تحزن. نعم إن الألم والأسى يستوليان على مشاعرها، وشيء كنصل حاد يذهب ويجيء في روحها، وهي ترى الدماء تفور من روحها المحتضرة، كما فوران الدم من شاة مذبوحة لتوها، ولكنها لا تشعر بالحزن. . ما هو الحزن يا ترى؟. . خطرت لها هذه الخاطرة وهي تتمخط بصمت بمنديلها الحريري، ثم أبعدت هذه الفكرة سريعاً عن ذهنها، والإحساس بالذنب يكاد يقتلها. . تعلم لتوها أن بكرها قد مات، وهي تحاول أن تفلسف الحزن بدل أن تحسه!؟. . لا شكَّ أن روحها قد ماتت، وإلا فلماذا لا تحزن؟. . لماذا لا تحزن؟. . ألا مرحباً أيها الحزن. . ولكن. . أين هو الحزن؟. . أين هو الحزن؟

ولم يستطع صالح أن يمسك نفسه بعد قراءة الرسالة، فانخرط في نشيج

لم يفلح في منعه رغم المحاولة، وهو لا يفتأ يسترجع ويحوقل، وكأنه وجدها فرصة لإخراج كل تلك الدموع التي كانت تصارع للخروج من داخله طوال السنوات الطويلة الماضية. وأخذت صور حياته تمر أمامه بسرعة عجيبة.. أيام الظهران، والكويت، والرياض، وصورة خالد وهو يخرج للحياة لأول مرة على يد خالته أم محمد في قريتهم، وتلك الفرحة التي لا توصف حين بشروه في الرياض بأنه قد أصبح أباً، وبأن أول مولود له ذكر يبهج الخاطر، وها هو خاله عبدالرحمن يؤذن في أذنه، والشيخ سعد يلده بالتمر، ووالدة لطيفة تحمله وهي تهدهده بين يديها، ولطيفة سعيدة بين أهلها وهي عائدة لهم وقد أصبحت أماً لفتى لم تلد النساء مثله. ويبتسم بأسى وهو يتذكر ضحكة خالته أم لطيفة وهي تقول مازحة: «والله وصرتي أم يا لطوف!.. من كان يتصور أن عفريتة القرية يمكن أن تكون أماً.. يتربى في عزك وعز أبوه إن شاء الله.. منه المال ومنك العيال إن شاء الله»، ويبرق الاعتزاز في عيني لطيفة الراقدة على فراشها.

كم يتذكر كيف نفخ أوداجه في تلك الأيام، فقد كانت الأمور مقبلة، وكل شيء يوحي بالنجاح والثراء، وهاهو خالد يطل على الدنيا فيمنحه الإحساس بأن الأيام دائمة الابتسام، والمال والبنين قادمين لا محالة. كل الصور أخذت تتوارد على مخيلته بشكل سريع ومتتابع: فهاهو خالد يدخل المدرسة لأول مرة في حياته، وهاهو ينهي الدراسة الثانوية ويدخل كلية الهندسة، وهاهما معاً يوم التخرج من الجامعة. تمر الصور سريعاً وتختصر سنوات كنا نظنها طويلة في حينها، فإذا هي مجرد جزء من الثانية في عُرف الزمن. فهاهو خالد يولد لتوه، وهاهو يعود من حيث أتى في غفلة من الزمن، أو غفلة منا، لا أحد يدري. كم كان يشعر بالسعادة والزهو وهو يرى بكره يشب أمامه، وكل شيء في حياته يسير وفق تخطيطه وما كان يصبو إليه من آمال. ولكنه اليوم يحس بكل هموم الدنيا قد تآمرت عليه، وبوده لو كان بمقدوره أن يعطي ثروته كلها، بل وحياته كلها، في مقابل أن يكون خالد حياً. ولكن هيهات.. نعم هيهات.. فقد تعود الأشياء إذا ذهبت، ولكن الأحبة إذا ذهبوا لا يعودون؟..

عزاؤه أن خالداً الآن حي يرزق عند رب رحيم، في مقام الأنبياء

والصديقين، فهنيئاً له هذا المقام الرفيع، وهنيئاً له هذا النعيم المقيم. ولكنه رغم هذه القناعة، لا يستطيع إلا أن يشعر بالألم يستولي على كل ذرة في روحه، وكل زاوية من جسده الفاني. لا يستطيع إلا أن يتخيل خالداً في كل مكان، ولا يستطيع إلا أن يشعر بالحزن يكاد يقتله. يشعر بشيء من الذنب على هذا الحزن الشديد، فقد يكون نوعاً من عدم التسليم بقضاء الله وقدره.. فالله أعطى، والله أخذ، والله عليه العوض.. يسترجع كثيراً، ولكن الحزن مقيم لا يريم، فيعاوده الإحساس بالذنب من جديد. ويشعر بشيء من الراحة حين يتذكر حزن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على ابنه إبراهيم.. فالعين تدمع، والقلب يجزع، وإننا لمحزونون على فراقك يا خالد، ولكننا لا نقول ما يغضب الرب.. أخذ يكرر هذا القول تأسياً برسول الله، ثم يسترجع عدة مرات، ولا يجد إلا الصبر ملاذاً وهو يتلو بقلب مفطور: «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون.. إنا لله وإنا إليه راجعون..»، ثم يغادر إلى حيث المسجد القريب، لعله يجد شيئاً من راحة نفس ضائعة هناك.

الزمن الضائع

وتغير صالح كثيراً بعد وفاة خالد. . ترك التدخين، وهو الذي كان لا يصبر عن السيجارة ساعة واحدة، بل إنه كان في الماضي يترك الصيام أحياناً في رمضان من أجل السيجارة، رغم أنه كان لا يترك فرضاً أو نفلاً من صلاة إلا أداه في ذلك الشهر، مبرراً ذلك بقول الحق: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت»، و«اتقوا الله ما استطعتم»، أو يردد حين تلومه لطيفة على تهاونه ذاك بالقول: «إن الله غفور رحيم»، فترد عليه لطيفة: «وهو شديد العقاب أيضاً. . فلا تأمن مكر الله. . لا تنسى ذلك؟ . .»، ولكنه «يطنش» وهو ينظر إلى الدخان الأزرق المنتشر في أرجاء الغرفة. ولا تجد لطيفة بداً من «التطنيش أيضاً،» وهي لذلك من الكارهين، حيال تهاون زوجها في واجب من أهم الواجبات الدينية، بل وركن من أركان الإسلام الخمسة، فتدعو له بالهداية وهي تقول موجهة الحديث إليه: «المهم. . أرجو أن لا يطلع أحد من أولادك على تهاونك هذا. . أنت أبوهم وقدوتهم، فاستتر ما استطعت إلى ذلك سبيلاً»، ثم لا تلبث لطيفة أن تأتيه بالطعام والشراب في غرفته البعيدة عن غرف الأولاد، وهي تستغفر الله كثيراً. فطالما أنه غير صائم، فلا يجب أن يبقى الدخان هو غذاؤه الوحيد، وليغفر لنا الله جميعاً. ويحاول صالح أن يعوض عن هذا التهاون في واجباته الدينية بإطعام المساكين، والتصدق على المحتاجين.

وترك صالح الشراب، وهو الذي كان يقول عنه إنه السبب وراء عقد أربح الصفقات التجارية في حياته. بل إن المال كله، وهو الذي كان سر

حياته، لم يعد مهماً بالنسبة له، فقد أخذ ينفق إنفاق من يريد أن يبدد ثروته كلها، وكأنها هم يجثم على صدره: تبرعات سخية في الداخل والخارج، كان حريصاً على أن تكون باسم «فاعل خير»، ومبرات خيرية، وبناء مساجد ومدارس لتحفيظ القرآن وغيرها. حاولت لطيفة ومشاعل أن تقنعاه بأن ينفق جزءاً مما ينفقه في بناء مدارس ومستشفيات يستفيد منها الناس في حياتهم الدنيا، وله الأجر في الآخرة، ولكنه كان عنيداً في هذا الشأن، ولا يريد أن يخرج في وجوه إنفاقه عما تحدث به السلف الصالح. وكان يردد دائماً حديثاً عن الرسول يقول فيه إن من أراد أن يكون له قصراً في الجنة، فليبنِ مسجداً في الدنيا، ولأجل هذا فهو يريد أن يبني قصوراً في كل ركن من أركان الجنة.

حاولت مشاعل أن تفهمه أن القضية ليست قضية مساجد أو نحوها، ولكنها قضية ما يحتاجه الناس. فعندما قال الرسول الكريم ذلك، كان يستحث الناس على بناء المساجد في وقت كان الناس فيه حديثي عهد بالإسلام من ناحية، وقليلي الموارد من ناحية أخرى، فمن يبني مسجداً آنذاك كان كمن يؤكد نصر الإسلام وإيمانه الخالص به من حيث أنه ينفق مما هو نادر لبناء المسجد. أما اليوم، فالمساجد في كل مكان، والكل مسلمون، فلماذا لا نحقق لهم غير ذلك من الحاجات. كانت مشاعل تحاول إقناع والدها بذلك، ولكنه كان مُصراً على حرفية ما قال رسول الله، وهو غير مستعد لسماع غير ذلك. بل إنه أوصى بثلث ثروته كلها لأعمال الخير، وكاد ذات يوم أن يتنازل عن نصف ثروته لأعمال الخير، لولا تدخل نسيبه علي النبقة. فقد أقنع علي زوجه بدرية وطارقاً أن ما يفعله الوالد هو «السفه» بعينه، ويجب أن يوقف عند حده بالحجر عليه وفق حكم قضائي مؤكد، وإلا فإن الثروة، التي هي لهم قبل أن تكون له، في طريقها إلى الزوال. «لقد أكل الحزن قلبه»، كان علي يقول، «ولكن كلنا محزونون، ولم يكن خالد أول ولا آخر الموتى.. ولكن ليس كل من فقد حبيباً فقد عقله..».

كانت بدرية وطارق مقتنعين بما كان يقوله علي، ولكن أحمد ومشاعل، وقبلهما لطيفة، لم يكونوا راضين، رغم عدم الاقتناع بما يقوم به صالح، بما يريد أن يفعله علي من رفع قضية حجر على صالح. إذ طالما أن ذلك هو ما

يريحه فليكن، فالثروة ثروته وهو من كوّنها. كما أن مال العالم كله لا يساوي التشهير بصالح وعائلته، وجعلهم مضغة على كل لسان، كما كانت لطيفة تقول. ولكن تحمس طارق للأمر، بصفته الوريث الأساس، كان يعطي الدافع لعلي وبدرية في رفع قضية على الوالد رعاية لمصالح القُصر، فكان أن أجل صالح التنازل عن نصف ثروته إلى بعد حين، والاكتفاء بالوصية وهو لذلك من الكارهين، ولم يرد أن يجتمع عليه هم الحزن وألم الفضيحة، فضيحة عائلة عاش طول عمره لتكوينها والحفاظ على سمعتها. وشعر صالح بمقت شديد لعلي وابنته بدرية حاول أن يخفيه ولكنه لم يفلح.

*

ولم يمكث صالح طويلاً بعد وفاة خالد، إذ مات بعد سنة ونيف من رحيله. لم يعانِ في موته، بل إن الكثيرين لاحظوا أنه خلال الشهرين الأخيرين من حياته قد أخذ يعود إلى سابق عهده من الانشغال بالعمل والعودة إلى تجمعات الأصحاب، ولكنه بقي مقاطعاً للخمر والتدخين رغم كل الاغراءات والمغريات. وكان آخر عمل خيري قام به هو إنشاء «مبرة خالد بن صالح الأثلة لرعاية الأيتام والمشردين»، التي أصبحت أشهر مبرة خيرية في كافة أرجاء البلاد فيما بعد، بعد أن يئس من العثور على زوج ابنه الأفغانية وأطفال خالد منها. كان بوده أن يسميها مبرة الشهيد خالد، ولكنه لم يستطع أن يحصل على فتوى تجيز له استخدام كلمة الشهيد. حز ذلك في نفسه كثيراً، فكيف يكون هناك شك ولو بسيط، في كون ابنه من الشهداء. ولكن نفسه هدأت في النهاية، وهو يرجو أن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله تعالى.

حاول خلال السنة التي عاشها بعد وفاة خالد أن يجد «أم محمد»، كما كان يدعو زوج ابنه الأفغانية، بكل ما استطاع من وسائل متاحة، واستخدم كل ما تمنحه الثروة من سلطة ونفوذ في محاولة العثور عليهم، ولكنه لم يوفق، وكأن الأرض انشقت وبلعتهم. وكان كله خشية من أن تكون الحرب الأهلية بين مجاهدي الأمس قد ابتلعتهم في أتونها. وصفح عن بدرية وزوجها بعد وقت غير طويل من تراجعه عن التنازل عن نصف ثروته لأعمال الخير، وإن كان في النفس بقايا من عتب لا يمكن أن تزول، بعد أن جاءته بدرية منتحبة

وهي تطلب الصفح والغفران، ولم يستطع إلا أن يسامحها والدموع تتصارع للخروج من عينيه. . وكيف لا يصفح عنها وهي ابنته البكر، والتي كانت أقرب إلى قلبه، وشقيقة الشهيد خالد؟ . .

ولكنه حتى وفاته، لم يرضخ للضغوط التي كانت تُمارس عليه من أجل عودة العلاقات إلى سابق عهدها بينه وبين علي، فكان يغادر المنزل ما أن يعلم أن نسيبه موجود فيه، ولا يستقبله في عيد أو أية مناسبة أخرى. ولم يشعر بالغضب من طارق، فهو ما زال فتى غر، ولم يبقَ له من يحمل اسمه من أبنائه بعد مماته إلا هو. أنبّه على السير في مخططات «عديم الأصل والأخلاق»، كما أصبح يدعو علياً، وانتهت المسألة عند ذاك الحد. واكتشف في مشاعل وزوجها أحمد أنفساً سامية تختلف عن تلك «الأنفس الشيطانية المتعفنة»، كما كان يصف علي وأبيه، التي اكتشفها في آخر سنة من حياته، فكان لا يطيق البعد عن أحمد ومشاعل وابنتهما، بالقدر الذي كان يضيق به صدره كلما رأى بدرية، أو جرى ذكر اسم علي النبقة أو والده في حديث عارض.

*

وذات يوم جمعة، تأخر صالح في النهوض من النوم حتى اقترب موعد الصلاة، وهو الذي اعتاد منذ زمن طويل أن يستيقظ قبل موعد الصلاة بساعتين على الأقل، مهما امتد به السهر وساعاته. شعرت لطيفة ببعض القلق يتسرب إلى نفسها من جراء ذلك، ولكنها استعاذت بالرحمن الرحيم من همزات الوسواس الخناس، وصعدت لإيقاظه. لم يكن هناك ما يوحي بأي شيء سيء، فقد كان صالح نائماً وبسمة مطمئنة ترتسم على فمه الواسع. نظرت إليه لطيفة وهي تبتسم بحب صاف استولى على فؤادها منذ وفاة خالد، ثم اتجهت إلى النافذة وأخذت تفتح الستائر وهي تقول بحنان: «أبو خالد. . أبو خالد. . لم يبق على موعد الصلاة إلا أقل من ساعة، بالكاد يمكنك الاستحمام وتناول القهوة والشاي. . »، ثم وهي تتصنع الضحك: «وربما لقمة سريعة، رغم أنها ليست من عاداتك. . هيا. . بلا كسل، انهض يا كسول. . »، ثم بنبرة فيها مزيج من الدلال والوعيد في الوقت ذاته: «أم تريدني أن أنسل إلى جانبك حتى تنهض بالرغم منك؟». . ولكن صالح لا يرد ولا يتحرك، وهو الذي كان مجرد مرور خطوات بجانبه يوقظه، مهما كانت نوعية سهرته.

أخذ قلب لطيفة يدق بسرعة وعنف، وخوف شديد لا تدري مصدره يستولي عليها. وطاف الموت الذي عرف طريق بيتهم في خاطرها، فأخذت تحدث نفسها: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. اللهم أخزك يا شيطان.. اللهم أخزك يا شيطان.. ليس هناك إلا كل خير وعافية إن شاء الله.. لقد تركته هذا الصباح وهو في أحسن حال وعافية، وكان شخيره المعتاد يملأ الغرفة بالحياة، وكان في غاية الصحة والسعادة في سهرة البارحة»، ولكن الخوف استولى عليها تماماً. تقدمت نحو السرير بوجل، وكل ذرة في جسدها ترتعش، ووضعت يدها الباردة على يد صالح، فإذا هي أبرد من الثلج ذاته.

كاد قلبها يتوقف، وأحست بنفسها وقد تحولت إلى قطعة خشب لا روح فيها، وأخذت تنظر إلى صالح وتلك البسمة الراضية التي كانت تحتل كل فمه. وبدون أن تعي، أخذت تصرخ وتشد شعرها القصير، وقد فقدت الإحساس بكل ما حولها.. كلا.. لا تكاد تصدق.. مات صالح؟.. مستحيل.. إنه لا يموت.. لا يمكن أن يموت.. لا يمكن أن تتصور أنه يموت.. نعم إنه يموت، ولكنه لا يموت.. طاف كل ذلك بذهن لطيفة وهي لا تزال تصرخ دون شعور، وقد تحول وجهها الذي فرت منه الدماء، إلى بركة من ماء مالح. وما هي إلا لحظات، وكان طارق والفتيات الصغيرات والخادمات قد تجمعوا في غرفة نوم الوالدين.. وتأكد الخبر اليقين.. لقد مات صالح.. جلطة دماغية مفاجئة لم تمهله طويلاً.

ومع موت صالح، مات جزء كبير من لطيفة نفسها.. بل إنها أحست أن لطيفة غريبة لا تعرفها قد حلت محل لطيفة التي كانت تعتقد أنها تعرفها.. لطيفة لا علاقة لها بتلك التي عاشت في القرية، ولا تلك التي عاشت في الرياض، ولا تلك التي لبثت في بيروت دهراً، وعادت إلى الرياض لطيفة ليست لطيفة.. مات صالح، وماتت معه أشياء كثيرة، ولم تعد لطيفة تعرف من هي، ولا من أين أتت، ولا إلى أين تمضي.. أحست أنها قد تحولت إلى شيء هلامي، لا شكل له ولا لون..

عودة سيزيف

بعد وفاة صالح، وجدت لطيفة نفسها في حال من وحدة شنيعة، رغم إحاطة الجميع بها، ومحاولتهم إبعادها عن جو المأساة الذي يبدو أنه لا يريد أن يفارق العائلة. لقد بسطت لهم الحياة يداً من جانب، ولكنها قبضت أخرى من جانب آخر. . ويا ليتها لم تبسط ولم تقبض. وجدت نفسها في حال من الضياع، فلم تعد الحياة هي الحياة بعد صالح. حقيقة أنها لم تكن تحبه ذاك الحب الذي كانت تقرأه أو تراه على الشاشة أو تتمناه في سنوات الزواج الأولى، ولم يكن مطابقاً على الإطلاق لمواصفات الحبيب الشاب على الحصان الأبيض، ولكنها أدركت أنها كانت تعبده حباً دون أن تشعر، ولكن ما الفائدة بعد أن مات. أحست كثيراً بالذنب يحتويها من كل جانب، وبأنها لم تمنح صالحاً الحب والحنان اللذين كان يستحقهما، ولكنها هذه المرة لم تحاول قمع إحساسها بالذنب، بل تركت لنفسها العنان في السماح لكل ما يختلج في ذاتها أن يخرج بحرية، ولتتألم قليلاً أو كثيراً، ولكن يجب أن لا تلجأ إلى آليات القمع والكبت، كي لا يتحول الشعور إلى اللاشعور وتتكون في النهاية عقدة تنغص عليها بقية حياتها، كما بين لها الدكتور سليم كزبرة رحمه الله. . هذا إن كان بقي هناك مجال للتنغيص. . حدثت نفسها بذلك وهي تبتسم بأسى، والحزن الذي تمنته عندما مات خالد، لا يريد أن يتركها.

ولكن بالفعل كان مجرد الشعور بأنها لم تمنح صالحاً الحب الكافي، والاعتراف بذلك، كافيان لأن يمنحاها إحساساً بالسكينة رغم الحزن. وتبسمت وهي تتذكر قول هيفاء عصفور في إحدى نزهاتهما معاً من أنها لا

تؤمن بدين معين، ولكنها عندما تشعر بالتوتر بين فينة وأخرى، كانت تذهب إلى الخوري وتعترف أمامه بكل ما فعلت، ومن بعدها تشعر بالراحة لمجرد «الفضفضة» التي قامت بها؛ فتخرج من الكنيسة وهي أكثر قدرة على مواجهة تحديات الحياة.

تحول كل شيء إلى خواء في خواء في حياة لطيفة بعد موت صالح. . كم تمنت لو أنه يعود إلى الحياة، حتى لو تضاعفت كل تلك الصفات السيئة التي كانت تراها فيه، وكانت تمقته أحياناً لأجلها، كي تمنحه حباً وحناناً لم يمنحهما أحد من قبل، ولكن هيهات. . كم هو غبي هذا الإنسان، فهو لا يعرف قيمة الشيء إلا بعد أن يفقده. . أغبياء أكثر من هذا الغباء؟!. . لقد ترك لها من الملايين ما يمكن أن يجعلها مرفهة طوال ما بقي لها من عمر، فرغم كل إنفاقه الكبير في وجوه الخير في شهوره الأخيرة، ورغم وصيته بتخصيص ثلث ما يملك لأعمال الخير، وما كان يمكن أن يرثه خالد وقد سجله باسم عبيدة ابنه، مع الحرص على وصيتهم باستمرار البحث عن «أم محمد» وأولادها، وعدة ملايين لجواهر زوجته السابقة، التي قال في وصيته إنه ظلمها كثيراً، إلا أن ثُمن ما بقي بعد ذلك، الذي هو نصيبها من ميراثه، تجاوز المائة مليون ريال، وهو رقم لا تستطيع حتى أن تتخيله. ماذا تفعل بكل هذه الملايين التي لا تكاد تعرف كيف تحصيها؟ تنازلت عن معظم نصيبها من التركة لطارق وعبيدة، واحتفظت بالبيت ومزرعة صغيرة في الخرج، وعمارة تدر عليها دخلاً يجعلها غير محتاجة لأحد. احتجت بدرية على تصرف والدتها، فنصيبها من التركة هو في النهاية نصيبها وأخواتها البنات، وكانت لطيفة تعلم أن زوجها يقف وراء اعتراضها هذا، ولكنها في النهاية فعلت ما بدا لها صواباً. سبحان الله. . أخذت لطيفة تحدث نفسها دون أي انفعالات. . من كان يتصور أن تصبح بدرية بهذا الشكل؟. . بدرية الحنونة العطوفة ذات الشخصية المستقلة، بل المتمردة، تصبح مجرد لعبة بيد زوجها؟. . لديها من مالها ومال زوجها ما يكفيها ويكفي أحفادهما، ولكنه الطمع. . حقاً. . لا يملأ فم ابن آدم إلا التراب. .

كانت تعلم أنهم كانوا من الأثرياء، ولكنها لم تكن تتصور أن صالحاً كان بكل ذاك الثراء، فترحمت عليه وكل ذرة في كيانها تتمنى لو كان حياً، حتى لو

بقوا في الصالحية عمرهم كله، أو في بيت خرب في منفوحة، أو حتى في «روضة النعيم»، قريتهم التليدة، التي لم تعد من مكونات هذا الوجود. .

*

أربعة أعوام مضت منذ أن غادر صالح الدنيا، وهي غير قادرة على النسيان، إذ هل ينسى الإنسان حياته كلها؟. .خياله في كل مكان، ورائحته لا تغادر أنفها. .تلك الرائحة التي كانت تأنف منها أحياناً عندما كان حياً، فإذا هي اليوم تشتاق لها اشتياق المدمن لمادة إدمانه. .غريبة هي الأيام. .عندما نملك السعادة لا نشعر بها ونعتقد أننا من التعساء. ولكن ما أن تُغادرنا تلك السعادة التي لم نقدرها حق قدرها، احتجاجاً علينا ربما، حتى تعلن التعاسة عن وجودها الفعلي، فنعلم أن الألم هو القاعدة، وما عداه هو الشذوذ عن القاعدة، ونندم ساعة لا يفيد الندم على ما أضعنا وما فقدنا، ولكنا نتشبث بما هو موجود، فربما يغادرنا ما تبقى من سعادة، طالما عرفت التعاسة الطريق.

إنها لا تريد المال اليوم بقدر حاجتها إلى السعادة، وعندها أدركت بالفعل والتجربة صحة مقولة أن المال لا يشتري السعادة، رغم أنه وسيلة من وسائلها إن لم يكن هدفاً بحد ذاته. .فالمال قد يشتري ألذ الأطعمة، ولكنه لا يشتري الشهية. .والمال قد يشتري أجمل المساحيق والماكياجات، ولكنه لا يشتري الملاحة. .والمال قد يشتري أجمل اللوحات والمناظر الخلابة، ولكنه لا يشتري الإحساس بالجمال، أو ذات الجمال. .والمال قد «يفك» أزمة أحدهم، ولكنه لا يعلم بالضرورة حب الخير. .

وخلى عليها البيت. فهي لا ترى طارقاً إلا في المناسبات، بعد أن تخرج من الجامعة وتولى أعمال أبيه الواسعة، ولم يعد يقر له قرار. فقد اتفق الجميع على عدم تقسيم تركة الوالد، وإبقاء الأمور على ما كانت عليه أيامه، ودمج مؤسساته العديدة في شركة كبيرة واحدة، بحيث تكون حصة كل وريث فيها بقدر ميراثه. اتفق الجميع على ذلك، ما عدا بدرية التي فضلت أن تحصل على ميراثها من تركة أبيها. أثار قرار بدرية غضب الجميع، وخاصة طارق، وحاولوا ثنيها عن مثل هذا القرار بشتى الوسائل، ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود. كانوا يعلمون أن زوجها يقف وراء هذا القرار، وأن أبا زوجها حمود

النبقة يقف وراء المسألة كلها، فحصة بدرية من التركة كبيرة، ومغرية لرجل لا يعرف من هذه الدنيا إلا المال، ولكنهم لم يجدوا بداً من تحقيق مطلبها. فزادت الشقة بين بدرية وبقية عائلتها، خاصة وأن الجميع يلومونها وزوجها في داخلهم على موت صالح. فلولا قضية «السفه» التي كانوا يريدون رفعها ضد صالح، والآلام التي سببتها له في تلك الأيام القاسية، لربما كان حياً يرزق إلى اليوم، فهو لم يبلغ من العمر حداً يجعله يموت تلك الميتة المفاجئة. يستغفر الجميع ربهم على مثل هذا التفكير، فكل شيء بقضاء الله وقدره في النهاية، ولكنهم لا يستطيعون التوقف عن مثل هذا التفكير بالرغم منهم.

*

ورغم غضب طارق من شقيقته وزوجها، إلا أنه حمد الله في قرارة نفسه على أن علياً فعل ما فعل. إذ لولا ذلك، لكان نصف هذه الثروة، والذي يقدر بمئات الملايين، قد ذهب هباءً منثوراً، بسبب حزن والد ملتاع أفقده الحزن رشده. ورغم امتعاض طارق من بدرية وزوجها، إلا أنه لم يقطع العلاقة معهما، كما فعلت لطيفة جزئياً ومشاعل كلياً، فقد كان في نيته أن يسترد نصيب بدرية بشكل ما، فهو مال أبيه في النهاية، وهو من يحمل اسمه وليست هي، حتى لو اضطره ذلك إلى الدخول في شركة ما مع حمود النبقة. فإذا كان حمود النبقة ثعلباً، فهو ذئب لا تغفل عينه، ومن يضحك أخيراً يضحك كثيراً على أية حال. ورغم أن طارقاً كان لا يزال في النصف الأول من العقد الثالث من عمره، فهو لا يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر، إلا أن تصرفاته توحي بأنه كهل طحنته التجارب. وعندما كانت لطيفة تطلب منه أن يهدأ قليلاً، ويريح نفسه من هذا الجري الذي لا آخر له، وأن الخير كثير فلماذا كل هذا الحرص، كان يرد عليها بمنطق من حنكته الأيام وربته السنون: «هذا هو السوق يا أمي.. إن توقفت، تغدوا بي قبل أن أتعشى بهم.. وأنا لا أحب أن يتغدى بي أحد، كما أني أحب العشاء كثيراً»، ويضحك بعمق وثقة، تذكرها بأبيه في الأيام الخوالي، وهي تنظر إليه باسمة وتقول لنفسها: «صحيح.. من خلف ما مات.. من خلف ما مات..». كما أن جواهر حاولت أن تطالب بحق ابنتها لطيفة في التركة، ووكلت أخاها عبدالله للقيام بهذه المهمة، ولكنهم أوقفوها عند حدها، فلطيفة الصغيرة تبقى

من عائلة الأثلة، وابنة الشيخ صالح، كما أن لها أخاً كبيراً هو ولي أمرها وهو المسؤول عنها في النهاية، مثلها في ذلك مثل الوالدة وهدى وندى.

حاولت لطيفة تزويج طارق بعد التخرج مباشرة، فربما جعله ذلك يهدأ قليلاً، ولكنه لم يكن يفكر بالزواج، ووجد في الأعمال والحركة متنفساً لطبيعته التي لا تعرف الهدوء. وهي لا تكاد ترى عبيدة، فهو لا يقر له قرار، خاصة بعد أن اشترى له عمه سيارة بالرغم من معارضة جدته لطيفة، ويستعجل السنوات كي يصبح راشداً، ويشارك عمه إدارة الشركة التي له فيها بقدر ما لعمه، فلم تكن المدرسة تستهويه كثيراً، وهذا هو ما كان يقلق لطيفة. ولطيفة الصغيرة، التي نضج جسمها قبل الأوان رغم أنها لم تكمل الثالثة عشرة من عمرها بعد، لا تكاد هي الأخرى تستقر في البيت، فهي إما عند أختها مشاعل، وإما عند أمها، وإما مع صاحباتها يذرعن الرياض طولاً وعرضاً. وعندما تكون في البيت، فإنها لا تكاد تفارق سماعة التليفون، أو غارقة في أكوام من مجلات الشعر الشعبي، وسماعتي جهاز التسجيل لا تفارقان أذنيها. ليس هناك ما يؤنس وحشتها في هذا البيت الكبير إلا التوأمان، هدى وندى، فما زالت على الأقل ترعاهما من الصباح وحتى المساء، ولا تسمح لأي من الخدم بأن يرعى أياً منهما بدلاً منها.

خطبها الكثيرون، شيباً وشباباً، حتى من قبل أصدقاء زوجها الراحل، ولكنها رفضت الجميع، بل لم تكن تفكر بالزواج من جديد على الإطلاق. وضحكت كثيراً من أعماق قلبها ذلك اليوم، حينما أتتها إحدى الخاطبات الشهيرات في الرياض، وهي تعرض عليها خاطباً ما كانت تتصور ولا في الكوابيس أن يضمهما فراش واحد. جاءتها «أم سعود»، أشهر خاطبة في الرياض، والتي لا تتعامل إلا مع علية القوم من الأثرياء والوجهاء، وأفصحت لها عن رغبة أبو فهد في الاقتران بها، وكيف أنه أحبها منذ أن رآها في «أورلاندو» ذات صيف منذ سنوات بعيدة برفقة صالح والأولاد، ولكنه كتم حبه ورغبته احتراماً لصديقه الفقيد، وإن بقي الحب في الأعماق. ضحكت حتى دمعت عيناها، وأم سعود لا تدري ماذا قالت أو فعلت حتى تُضحك الشيخة أم خالد بهذا الشكل. وكلما سألتها أم سعود عن ردها على العرض، كانت تضحك من جديد. . «هل يعرف ذلك المخلوق الحب؟ . . إنه يشتهي كل

أنثى يمكن أن يراها، حتى لو كانت دجاجة!..أبو فهد؟!..إنه لا يرى من المرأة إلا شيئاً واحداً، فكيف يحب من لا يرى؟..أبو فهد؟!..»، وتستمر في الحديث إلى نفسها، ثم تنطلق في ضحك صاخب من جديد، وأم سعود لا تدري عما يجول في خاطر هذه التي «انهبلت فجأة».

*

سعت كثيراً حتى استطاعت إقناع أختها قماشة بالعيش معها في الرياض، فالمنزل كبير، والزوج قد مات، والأطفال قد كبروا. بل أنها سعت حتى استطاعت أن تقنع زوج أختها منيرة بالانتقال إلى الرياض، وتكفلت له بشراء منزل كبير ليس بعيداً عن بيتها، فهي اليوم أشد ما تكون حاجة إلى العائلة وإلى تلك الجذور التي ضاعت منها في لحظة من لحظات الزمان. أخوها محمد هو الوحيد الذي رفض أن يترك القرية، أو ما تبقى منها، مبرراً ذلك أنه والقرية كالماء والسمك، لا يمكن أن يعيش خارجها، فاشترت له منزلاً، وخصصت له مرتباً شهرياً كبيراً يريحه من عناء المشقة في هذه الحياة. ولكن شقيقتها قماشة قد شاخت بشكل يفوق سنها الحقيقي، حتى بدت كعجوز في التسعين، وأصبحت كثيرة الشكوى من الزمن وأهله، بحيث أنها كانت تجعل من إشراقة الشمس ظلاماً دامساً. كل شيء في البيت لا يعجبها، وهي تتصرف معها وكأنها ما زالت تلك الطفلة الصغيرة التي كانت رقيبة عليها في قرية لم تعد موجودة.

حتى الفيلا كانت قماشة لا تدخلها إلا لماماً، فهي مليئة بكل ما حرم الله، ونهى عنه رسوله..تماثيل..لوحات..صور..حيوانات نجسة..وبقيت في الملحق الخارجي للفيلا لا تبرحه. واكتشفت لطيفة أن ما تبحث عنه قد ضاع مع ما ضاع في الزمن. فالبون الشاسع بينها وبين قماشة، جعلها تحس أنهما ينتميان إلى عصرين مختلفين، وحياتين لا علاقة بينهما. بل إنها وجدت ذات البون بينها وبين شقيقتها الصغرى منيرة، التي غادرت القرية مثلها منذ زمن بعيد، ولكن يبدو أن القرية لم تغادرها. وفي النهاية، لم تجد لطيفة بداً من إعادة قماشة إلى القرية، فهي تبحث عمن يزيل وحشتها ويؤنس وحدتها، وليس من يشعرها بمزيد من الوحشة والوحدة والظلام المحيط، بعد أن

اشترت لها منزلاً واسعاً، وخصصت لها مرتباً شهرياً، وجعلت لها خادمة وسائقاً يقومان برعايتها.

وبعد سنتين من وفاة صالح، علموا بمكان وجود زوجة خالد الأفغانية. أبلغهم أحد رفاق خالد القدماء في أفغانستان، أن عائشة صفندهاري تعيش في قرية صغيرة بالقرب من بلدة «بلخ» في شمال أفغانستان، غير بعيد عن الحدود مع أوزبكستان وتركمستان. طار طارق إلى باكستان على عجل، وأصرت لطيفة على مرافقته، ومن هناك وجد طريقه إلى أعماق أفغانستان. وبعد جهود مضنية، استطاع طارق أن يقنع أرملة أخيه بالسفر معه إلى بيشاور حيث يمكن أن ترى الوالدة حفيديها المجهولين. وهناك كانت المقابلة الأولى لتلك التي فضلها خالد على من اختارها له أبوه. لم تكن عائشة بذاك الجمال الذي تخيلته لطيفة، وهي التي كانت تسمع الكثير عن جمال الأفغانيات، بحيث يفضلها خالد على إيمان الصماني، ولكن مسحة من الأسى لا تفارق وجهها كانت تعطيها ملاحة فريدة، مع حزن عميق يطل من عينيها. وقابلت محمداً وفاطمة، ولدي خالد، فضمتهما إلى صدرها وهي تشم ريح خالد فيهما. يا سبحان الله. لقد كان محمد نسخة طبق الأصل عن أبيه، أما فاطمة فلم تكن تشبه أحداً من عائلة الأثلة، وإن كان دم العائلة واضح الجريان فيها. كانت لطيفة تعتقد أن عائشة سوف تعود معهم، إن لم يكن من أجل خاطر الشهيد، فمن أجل خاطر الطفلين اللذين يجب أن يترعرعا في كنف أهلهما. ولكنها وطارق اكتشفا أن عائشة متزوجة من أحد المقاتلين في حركة «طالبان».

حاولا إقناعها بالعودة بالطفلين على الأقل أو أحدهما، ولكنها أبت، فهي تريد أن تنشئ محمداً على الجهاد ومفاهيم الجهاد، لعل الله يمن عليه بالشهادة كما منَّ على والده من قبله، كما أنها لن تفرق بين ولديها. فكرت لطيفة أن تلجأ إلى الحكومة، أو سفارة بلدها في باكستان، إذ لعلهم يجدون مخرجاً لمثل هذا الإشكال، فهي على غير استعداد أن تتخلى عن حفيديها، ولكنها اكتشفت أن الظروف التي تعيشها أفغانستان لا تساعد على أي شيء، وأن عائشة أقوى منهم في هذه الحالة. ورفضت عائشة أي مساعدة مالية، أو راتب منتظم لها ولأطفال خالد، فهي لا تعيش على المساعدات وإن كانت حقاً لها، فهي زاهدة في الدنيا وما عليها، ولن ينساها الله هي وأطفالها. كان امرأة صلبة

وعنيدة، فلم يجدا إلا العودة بخفي حنين، ملحين عليها أن تتصل بهم عند الحاجة أو غير الحاجة، ولكنهم لم يسمعوا عنها بعد ذلك، إذ إنها تركت «بلخ» إلى حيث لا أحد يدري، وكان تلك المقابلة آخر العهد بها وبأبناء خالد الأفغان، رغم محاولات البحث عنهم من جديد. والحقيقة أن طارقاً كان سعيداً بعدم عودة زوج شقيقه معهم، فهو لا يريد أن يكون مسؤولاً عن أناس لا يحس في داخله بأي رابط يربطه بهم، كما لا يريد أن يأتي لعبيدة بمن يشاركه نصيبه من ثروة جده، وهو يحب عبيدة كثيراً، ولا يعترف بإبن أخ له غيره. أما هؤلاء الأفغان، فإنه لا يشعر بأي شيء تجاههم..

*

وبرغم كل ما جرى من مآس عرفت للبيت طريقاً، كانت كلمات الدكتور سليم كزبرة ترن في أذني لطيفة دائماً. عليك أن تجعلي لحياتك غاية يا لطيفة.. ففي الغاية يكمن معنى الحياة.. في الغاية يكمن معنى الحياة.. أحست أنها تكتشف شيئاً في هذه الكلمات، واستولى عليها حماس جديد لم تعهده من قبل.. سوف تجعل لحياتها هدفاً ومعنى، ولكن كيف؟.. وتذكرت حلمها القديم بالحصول على شهادة جامعية، وأدركت أن تحقيق هذا الحلم هو البداية، بل فيه تكمن كل الغاية. تقدمت لنيل الشهادة الثانوية من منازلهم، وانتسبت إلى إحدى الجامعات العربية، وحصلت على بكالوريوس في علم النفس بسهولة، ولكنها لا تزال تشعر بالخواء يستولي على روحها، والوحدة تقتل ذاتها. لم يعد الحلم حلماً بعد أن تحقق، ولم تعد هناك أحلام أخرى، فعادت إلى نفسها تنهشها، وإلى ذاتها تحاورها، وكلمات سليم كزبرة تلاحقها، فتزيد من عذابها، ولكنها حائرة لا تدري ماذا تفعل..

وفجأة خطرت بيروت على بالها، فأحست بشيء من الابتهاج، وكثير من الحماس غاب عنها منذ زمن بعيد.. نعم بيروت.. لقد اكتشفت نفسها التي ضاعت منها أربعين عاماً هناك، في ذلك المصح الذي أعاد الذاكرة إلى ذاكرتها، وحقيقة نفسها إلى نفسها التي لم تكن تعرفها. نعم.. لماذا لا تعيش في بيروت؟.. لم يعد لديها ما يربطها ببلدها ومجتمعها.. مات الزوج، واستقل الأبناء، وتشتت الأخوة والعشيرة وأبناء العم، وأصبحت وحيدة في حياة

بدت لها طويلة مملة. ورغم أنها تجاوزت الخامسة والخمسين من العمر، وتعتبر امرأة ثرية بكل المقاييس، ومثقفة بمقياس من المقاييس، إلا أنها لا تشعر بحرية الحركة، وروح الانطلاق التي تستولي على كل فؤادها.

فطارق المدين لها بحياته كلها، منذ أن كان نطفة تتخلق في أحشائها، ثم جنيناً يتغذى من دمها ويتنفس من هوائها، وطفلاً غذته من ثدييها، ويافعاً يخفق قلبها قلقاً لكل نسمة هواء يستنشقها، حتى أصبح رجلاً سوياً، قادر على أن يمنعها من أية حركة وكل حركة، طالما أنه ولي أمرها. .وابتسمت وهي تتخيل طارقاً ولياً لأمرها. .كأنها قاصر أو فاقد عقل يحتاج إلى وصي عليه خشية أن يؤذي نفسه، أو يفعل ما لا يجوز. .طارق الذي علمته ما يجوز وما لا يجوز، هو ولي أمرها، والوصي على حركاتها وسكناتها، يعلمها ما يجوز وما لا يجوز، وإلى أين تذهب ومن أين تجيء. .عاشت عمرها كله وهم يفترضون أنها غير قادرة على تولي أمرها بنفسها، فإن لم تكنْ قادرة على تولي زمام أمورها الآن، فمتى يكون ذلك؟. .سنون طويلة من عمرها وهي تنتقل من ولاية الأب إلى ولاية الزوج ثم إلى ولاية الابن. .فمتى تكون لها الولاية على أمرها؟. .تريد أن تعيش. .تريد أن تشم الهواء وتعب الماء، وتصبح الولاية لها على أمر نفسها. .أذلك كثير؟. .فإن لم يكن ذلك اليوم، فمتى يكون؟

*

ولأول مرة تحس لطيفة بسعادة صافية تحتل جنبات نفسه، فهاهي تعود إلى بيروت وتحس كأنها قد عادت إلى قواعدها سالمة. لم يكن إقناع أولادها سهلاً برغبتها في الاستقرار في مدينة كبيروت، وخاصة طارق الذي ثار وزمجر وهدد بأنه لن يسمح لها بمغادرة البلاد، بل لن يسمح لها بمغادرة المنزل، مذكراً إياها بالفضيحة وكلام الناس. ماذا يقول الناس عن أمه وهي تعيش في بيروت لوحدها؟ ماذا يقول الناس وهم يرون أم الشهيد خالد، وزوج الشيخ صالح، وهي تضرب بعرض الحائط كل عادة وكل تقليد؟ الناس لا ترحم، وهم يبحثون عن أي شيء كي يتكلمون فيه. ذكرها طارق بثورته وفوران دمه وحديثه بأبيه رحمه الله. .سبحان الله. .تختلف الأجيال، وتختلف الظروف، ولكن العقول لا تريد أن تتغير. .«الناس. .الناس. .طز في الناس. .وش جانا

من الناس غير الكلام وقلة الراحة»، كانت تحدث نفسها وهي تنظر إلى طارق وكأنها تنظر إلى أبيه من قبله. هاهو شاب جامعي يفترض فيه أن يكون من زمرة المثقفين، ورجل أعمال يفترض فيه أن يكون من البرجوازيين الجدد، ولكنه لا يختلف في شيء عن أبيه الذي كانت القرية تلاحقه أينما كان.. ويبدو أن القرية اختفت من المكان والزمان، لتعشعش في الرؤوس والعقول على مدى الدهر.

ولم يقتنع طارق إلا بعد لأي وعلى مضض، بعد أن هددته لطيفة بالزواج من أحد المتقدمين الكثر لها، بل وأبي فهد تحديداً، وتتخلص بذلك من ولايته عليها. فأبو فهد، رغم كل عيوبه، لن يكون عقبة في طريق تحقيق كل ما تريد وهو المتشوق لكلمة الموافقة منها. كانت لطيفة تعلم أنها لن تتزوج بأبي فهد حتى لو كان هو الرجل الوحيد الباقي في هذا الكون، كما أن فكرة الزواج كلها لم تكن هاجساً بالنسبة لها، ولكنها كانت تلعب لعبة معينة، فإما صابت وإما خابت. كان كل ما يقلقها أن تخيب لعبتها، ويطيش سهمها، ويتشبث طارق برأيه. ولكن السهم أصاب الهدف، فكل شيء إلا أن يكون لأمه زوج غير أبيه، وخاصة ذلك القميء أبو فهد. .أحس طارق أن أمه حشرته في زاوية ضيقة، فهو لا يستطيع منعها من الزواج لو صممت على ذلك. بل قد ينتهي الأمر بفضيحة هو في غنى عنها لوصمم هو على منعها، فأحس في تلك اللحظة بمقت شديد لأمه، وطافت في ذهنه أفكار شيطانية كان أقلها تمني الموت المفاجئ لها. وأخيراً وافق على رغبة أمه، ولكن بشرط أن تكون إقامتها جزئية في بيروت، ودون أن يدري أحد باستقرارها هناك، بل يبدو الأمر وكأنه سفر عادي. وافقت لطيفة على شروط طارق، وبدأت تعد العدة لإلحاق الأطفال بمدارس هناك.

رفض عبيدة أن يغادر مع جدته، وفضل أن يبقى في بيت العائلة مع عمه، أو ينتقل للعيش مع أمه الأرملة، بعد وفاة زوجها الثاني بحادث سيارة، في منزل جده الشيخ منصور الصماني. ولكن لطيفة لا تأمن أن تترك مراهقاً في عهدة طارق، وهو ذاته من يحتاج إلى عهدة أحد. ولم يكن لديها مانع حقيقة في أن يكون عبيدة في رعاية جده وأمه، ولكن طارقاً رفض بحده، فهو لا يريد لأحد أن يعلم بقرار أمه المجنونة، وتصرفاتها الأكثر جنوناً، كما

أنه لا يريد أن يكون عبيدة بعيداً عن أنظاره، وهو شريكه الرئيسي في الشركة، فيلعب أحدهم برأسه وتحدث أمور لا تتوافق مع تخطيطاته، فوضع العقدة في المنشار كما يقولون. وحاولت لطيفة أن تجبر عبيدة على مرافقتها، ولكنه كان عنيداً كأبيه وجده وعمه، وجدته لطيفة أيضاً، إذ يبدو أن العناد يجري في هذه العائلة مجرى الدم. وكاد مشروع الانتقال أن يتوقف من أجل عبيدة، حتى تكفلت مشاعل أخيراً برعاية ابن أخيها، وإبلاغ أمها بأخباره أولاً بأول، على أن يقضي أشهر الصيف بطولها معها، سواء في بيروت أو أي مكان آخر، وتقضي هي أشهر الشتاء معه في الرياض.

وأبت لطيفة الصغيرة أن تغادر الرياض مع «ماما لطيفة»، ففي الرياض صاحباتها وشقيقاتها. ولكن لم يكن هناك مشكلة بالنسبة للطيفة الصغيرة، فقد كانت أمها تعيش وحيدة، وكم رجتهم في الماضي أن يسمحوا لها بالعيش معها وهم يرفضون، وهي التي لم تتزوج بعد طلاقها من صالح، رغم كثرة الراغبين. ورغم تعلق لطيفة الصغيرة بماما لطيفة، إلا أنها كانت تحب أمها بشكل كبير. ولم تمانع لطيفة في أن تعيش لطيفة الصغيرة مع أمها، بل كانت في غاية السرور، واشترط طارق على زوج أبيه السابقة أن يستعيد أخته في أي لحظة يراها مناسبة، أو في اللحظة التي تتزوج فيها جواهر، وليس لها علاقة بنصيب لطيفة في التركة أو حصتها في الشركة، ولهما عليه أن يوفر لأخته وأمها سبل العيش الرغيد، حتى وإن كانت جواهر محسوبة في عداد الأثرياء. ووافقت جواهر على كل شروط طارق وهي في غاية السرور من أن ابنتها سوف تعود إلى أحضانها بعد طول غياب. بل إن عودة لطيفة الصغيرة إلى والدتها كانت فاتحة خير لطارق، إذ إن جواهر تنازلت عن جزء كبير من المال الذي أوصى به صالح لها، لابنتها لطيفة، وأصبح جزءاً من رأس مال الشركة تلقائياً، وهو مما أبهج طارقاً كثيراً، فقد بدأ يعود إليه ما يعتقد أنه حق له وحده.

زهور الخريف

اشترت لطيفة منزلاً بسيطاً ومريحاً في منطقة مرتفعة بين الأحراش بين بيت مري وعين سعادة، تطل على وادٍ عميقٍ من أحراش الصنوبر من الشرق، وعلى البحر البعيد من الغرب، فهي تعشق رؤية الشمس وهي تغرق في مياه البحر، كما تعشق رؤيتها وهي تولد بين الأشجار. وألحقت هدى وندى بمدرسة داخلية غير بعيد عن سكنها، بحيث تستطيع أن تراهما في أي وقت تشاء، وتقضيان معها عطلة نهاية الأسبوع. ولكن الغريب أنها حرصت على حجز غرفة دائمة لها في مصح الأجنحة المتكسرة، كانت تذهب إليها مرة واحدة أسبوعياً على الأقل. كانت تشعر بزوال كل توتر يمكن أن تعاني منه عندما تذهب إلى تلك الغرفة، وتشعر أن جزءاً منها يختلط بهواء المصح. لم يتغير المصح ونزلاؤه كثيراً، سوى أن الدكتور سليم كزبرة لم يعد موجوداً، وهيفاء عصفور ترهبنت وغادرت إلى دير بعيد قبل سنتين، وسط دهشة لطيفة لهذا التحول في حياة هيفاء. وحزنت كثيراً عندما علمت بوفاة ريمونا أسعد. قالوا لها إنها لم تنهض في صباح يوم ربيعي قبل سنة أو يزيد، ففتحوا عليها الباب، فوجدوها غارقة في دمائها. لقد قطعت شرايين يدها اليسرى بذات الصليب الذهبي، الذي كان لا يغادر عنقها، وتعبث به أناملها طوال الوقت. ووجدوا الصليب في قبضة يدها اليمنى، وقد تجمد الدم على حافته المسنونة بعناية، وبالكاد استطاعوا أن يفكوا أصابعها ليستخرجوه. حزنت كثيراً على ريمونا، ولكنها شعرت أن ما حدث أريح لها من تلك الحياة التي كانت تعيشها.

وتبرعت تبرعاً سخياً للمصح، بشرط أن يطلق اسم الدكتور سليم كزبرة على أحد أجنحة المصح، كما اتفقت مع إحدى المؤسسات الثقافية على منح جائزة سنوية باسم الدكتور كزبرة، تتكفل هي بقيمتها المالية، لأفضل بحث أو كتاب يناقش المشكلات النفسية للفرد العربي. كانت لطيفة تريد أن تجد معنى لحياتها من خلال غاية سامية، فيما كلمات الدكتور كزبرة لا تريد أن تفارق أذنيها. ولكن الأيام تمر، والأشهر تنصرم، وهي لا تزال تحس في داخلها بالخواء واللامعنى وضبابية الرؤية، رغم كل ما فعلت وتفعل، فلا تجد إلا اللجوء إلى غرفتها بالمصح، فتشعر ببعض الراحة، ولكن إلى فترة لا تلبث طويلاً.

*

وقابلت هيفاء، أو «الأخت ريتا» كما أصبحت تُدعى، في دير «قيامة يسوع» المتواري بين أشجار الأرز، وخلف الكهوف الموحشة، ولكنها لم تجد هيفاء التي تعرفها قبل ما يقرب من عقد من السنين، فلم تعاود الاتصال بها، كما أن هيفاء لم تحاول الاتصال بها بدورها. فمنذ أن انقطعت رسائل هيفاء قبل عامين تقريباً، وهي تسعى لأن تعلم ما حل بها. وكان أول شيء فعلته حين وطأت قدماها بيروت من جديد، هو البحث عن هيفاء عصفور. فوجئت عندما أخبروها في المصح أنها قد انخرطت في سلك الرهبنة، وكرست نفسها لخدمة الكنيسة. لم تصدق بادئ الأمر، وأكد لها من يعرف هيفاء في المصح أنهم لم يصدقوا أول الأمر، فقد حدث كل شيء فجأة وبسرعة. كانت في الحقيقة تتوق لمعرفة كيف تم ذلك التحول الجذري في حياة هيفاء، وهي التي كانت لا تعترف بالدين أو وجود الله. غير أن كل ما فهمته خلال تلك الساعة التي قضتها مع هيفاء في الدير هو أن حلماً رأته ذات ليلة مطيرة، بعد عيد ميلاد ليس ببعيد، قلب حياتها رأساً على عقب.

لم يكن حلماً عادياً كتلك التي يحللونها في المصح، كما قالت هيفاء، بل هو رؤيا أقرب ما تكون إلى واقع متجسد. فقد تجسد لها تلك الليلة «بولس الرسول»، وعن يمينه كان يقف مرقس، وعن شماله كان يقف لوقا. وكان بولس يحمل بين يديه طفلاً يصرخ لتوه خارجاً من بطن أمه، وهو يؤنبها على

غيها وعدم اكتراثها بالحقيقة التي تصرخ أمامها وهي لا تريد أن تراها. ومن بعيد، كان يسوع يقف على تل أخضر، وعن يمينه يقف بطرس ويوحنا، وعن شماله يقف سمعان ومتى، ومن ورائهم جوقة من الملائكة تنشد: «المسيح قام من بين الأموات، ووطئ الموت بالموت، ومنح الحياة لمن في القبور»، فيما كان الجميع يبكون دموعاً من دم، لا تلبث أن تتجمع وتتحول إلى جدول يصبغ بالحمرة كل ما يمر عليه.

دفع بولس بالطفل بين يديها، فأحست بحرارة تحرق يديها، فيما امتدت يد الطفل إلى صدرها باحثة عن ثديها. وما أن وجده حتى التقمه، ولكن لا حليب يخرج، بل كان صديداً له رائحة عفنة. ألقت الطفل على الأرض، وأخذت تنظر برعب وتقزز إلى الصديد الذي لا يريد أن يتوقف، فيما كان بولس يختفي في الأفق وهو يشير إلى الطفل ويهز رأسه.

عندما انتبهت هيفاء من نومها صباح اليوم التالي، كانت لا تزال تشعر بالرعب والتقزز، ولكنها في الوقت نفسه أحست أن شيئاً في قلبها قد اختفى وحل محله شيء آخر لا تستطيع وصفه. «شيء بارد كالثلج، ولكنه ليس بثلج. لذيذ كالعسل، ولكنه ليس بعسل. مسكر كالخمر، ولكنه ليس بخمر»، قالت هيفاء ذلك، وروحانية غريبة حلت عليها، واحتلت وجهها كله، فيما كانت نظراتها شاخصة إلى السماء. بدت لها الحياة عديمة الجدوى، عديمة الهدف والغاية، وبالتالي لا يمكن أن تكون هي الحياة.

وجاءها الحلم مرة أخرى بعد ذلك، وبتفاصيل مختلفة، وإن كان المشهد العام ذاته، ولكنها لم تفهم معناه تماماً، فلجأت إلى الأب جورجيوس مزدكاني، راعي أبرشية طائفتها، ففسر لها الحلم. قال لها إن المسيح يحبها، وإلا لما ظهر لها في الحلم هو وبعض الرسل، فهي طاهرة القلب رغم كل خطاياها وكفرياتها. ولأن يسوع يحبها، فهو يريد إنقاذها، طالما كانت الفرصة سانحة، قبل أن تأتي الساعة. وجد حديث الأب صدى طيباً في روحها، وقررت بعدها أن تلبس المسوح، وتنذر روحها للرب عساها تصل إلى الحياة الحقيقية. وغادرت لطيفة الدير وهي لا تفقه كيف تم التحول. كلا.. لا بد أن المسألة أعمق من مجرد حلم، وربما أن شيئاً حدث لهيفاء خلال السنوات التي غابتها

عنها، ولكنها لا تدري ما هو. وأخذت تستعيد بعضاً من أحاديثها القديمة مع هيفاء، فلربما وجدت بعضاً من جواب لما طرأ عليها من تغير..

تذكرت كيف أن هيفاء حدثتها ذات مرة عن طفولتها، وكيف كانت تشعر بالغيرة من تفضيل والديها لشقيقها الصغير «جوزيف»، وشقيقتها الكبرى «هدى»، لدرجة أنها فكرت ذات ليلة بخنقهما وهما نائمان. نعم لقد كانت «شقية» في طفولتها، وكانت تحب مرافقة الصبيان، وهو ما أثار عليها حنق أمها وغضب أبيها، ولكنها لن تغفر لهما تفضيل شقيقيها عليها. ورغم أن «جوزيف» كان واضح الميوعة، وأقرب إلى الأنثى في شكله وسلوكه، إلا أنه بقي حبيب «الماما»، وقرة عين «البابا»، كما كانت هيفاء تعلق وقد اكتسى وجهها بعلامات الغضب، وكأن الزمن قد عاد سنوات عديدة إلى الوراء، إلى يوم كانت تعيش في منزل ذويها. وفي سن السابعة عشرة، هربت هيفاء من الضيعة، وأغرقت نفسها بين البشر في بيروت، ومارست الحياة كما يجب أن تمارس، على حد قولها. عرفت الكثيرين، ومارست كل عمل يمكن أن يمارس، حتى استقر بها المقام في النهاية في هذا المصح. كانت هيفاء تجتر ذكرياتها تلك، ثم تقول في النهاية ضاحكة بصخب، هو أقرب إلى السخرية المريرة منه إلى المسرة والانشراح: «كان الأولى أن أكون نزيلة هنا، لا أن أكون مشرفة على النزيلات..»، وما يغيضها اليوم حين تستعيد تلك اللحظات، هو أن ذويها لم يسألوا عنها أو يبحثوا عنها، فافترضت أنهم ماتوا جميعاً، أو يجب أن يكونوا كذلك، ولم تعد تسأل عنهم أو تكترث بهم.

لم تكن لطيفة تكترث بأحاديث هيفاء كثيراً، ولا بزلات لسانها العديدة، أما اليوم فهي تحاول أن تسترجع كل كلمة من الممكن أن هيفاء كانت قد تفوهت بها، ولكن لم تعد الذاكرة تسعف، أو ربما أنها لا تريد. طافت كل هذه الأحاديث الخاطفة في ذهن لطيفة وهي تحاول أن تفسر هذا التحول الجذري في حياة هيفاء، ولكنها لم تستطع التوصل إلى إجابة شافية، وهيفاء لا تريد أن تتحدث بغير تلك البشارة الغريبة التي تلقتها في حلم غريب في ليلة مطيرة، من ليال شتاء حزين.

وعادت الوحدة والملل يلفانها من جديد، حتى أنها فكرت في العودة إلى الرياض، ولكن ماذا تفعل في الرياض ولا أحد لها هناك، رغم أن كل أهلها هناك؟ . وماذا تفعل في بيروت أيضاً، وقد مات سليم، ولا تدري أين ذهبت هيفاء التي كانت تعرفها؟ . . نعم كانت هيفاء تزعجها كثيراً في مناقشاتها الصريحة، بل الوقحة، ولكنها كانت تستطيب تلك المناقشات على الرغم من تبرمها وضيقها. تساوت لديها الأمكنة والأزمنة. . غريبة هي الدنيا. . لم تعد راغبة في البقاء في مكان لم يعد المكان الذي عرفته، وليست راغبة في الرحيل إلى مكان تعرفه ولم تعد تعرفه، وأصبحت مثل وضعية ملك شطرنج أعزل في حالة «ستول مايت». لا تفعل شيئاً طوال النهار سوى القراءة والتدخين وحل الكلمات المتقاطعة والتجول في الأسواق، ومشاهدة أفلام السينما والفيديو، وشرب فناجين لا تحصى من قهوة مرة، ومراقبة الشمس وهي تولد بين الأحراش، ثم تموت مجدداً في بحر بيروت. وعندما يجن الليل، تحس بوحدة شنيعة تلفها، ويلسعها البرد في أشد الأيام حرارة، وكأنها أصبحت وحيدة في كل هذا الكون الممتد أمامها، فلا تجد ملاذاً إلا كتابة يومياتها، وقراءة يوميات سابقة، فتغرق هي وذاتها في بحر السرمدية، وكلمات السويدية أوديث سودرجران ترن في أذنيها: «أتطلع إلى بلد ليس له وجود، لأني سئمت الرغبة في كل ما هو موجود. . حياتي كانت وهماً محتدماً، ولكني وجدت شيئاً. . والحق إني كسبت شيئاً. . هو الطريق إلى بلد ليس له وجود».

*

وفي ليلة بدت كغيرها من ليال عادية مملة، وكانت قد عادت لتوها من مدرسة هدى وندى، كانت تقرأ بلا تخطيط في دفاتر يومياتها، فتتشكل صور قديمة أمام عينيها، وكأنها كانت بنت ساعتها. كانت تقرأ وهي تغالب الدمع تارة، وبسمات الفرح والأسى تارة أخرى. وفجأة خطرت لها فكرة جاءت كومضة برق في ليلة اشتد بردها وظلامها، أو كإلهام طال انتظاره. . لماذا لا تكتب قصة حياتها؟ . . حياتها الحقيقية التي لا يعرفها أحد؟ . . نظرت إلى دفاتر يومياتها متراكمة على طاولة المكتب، فاعتراها حماس عرفته قبل حين، ولكنه يتركها في كل حين. نعم، لماذا لا تكتب قصة حياتها على شكل رواية، فحياتها أكثر درامتيكية من أي رواية سبق أن قرأتها؟ ولكنها لا تعرف فن

الرواية ولا تقنياتها، فكيف تكتب رواية؟. . ولكن من قال إن كاتب الرواية يجب أن يكون ملماً بتقنياتها؟. . كبار كتاب الرواية كتبوها نتيجة تجربة ومعاناة، وليس لامتلاكهم تقنياتها. تقنيات الرواية استخلصها النقاد من كتابات الروائيين، ولم يفلح الروائيون لأنهم التزموا بتقنيات النقاد. الناقد بحاجة إلى الأديب، ولكن الأديب ليس بالضرورة بحاجة إلى الناقد. . والحياة برمتها عبارة عن رواية كبيرة، ونحن نعيشها دون أن نعي تقنياتها. وهي تشعر في داخلها بأن حياتها رواية تستحق الذكر والنشر، فلماذا لا تكتبها وتترك للقلم أن يتحرك على سجيته، ثم لينشغل النقاد بالبحث عن التقنيات.

وأحست أن روحها تريد أن تتجسد أمامها، فأمسكت بالقلم، وأخذت تنظر إلى الورقة البيضاء أمامها، ولكن لا شيء يخرج. إنها تعلم أنه ما إن يخرج الحرف الأول، حتى تسيل بقية الحروف سيلان نهر انهارت سدوده، وفاضت حدوده، ولكن هذا الحرف اللعين يأبى الخروج. إنها تعلم أن شيئاً هناك، يصارع للخروج من داخلها، فمتى يأتي النصر، ويتجسد سفر الخروج. .بل سفر التكوين. وفي الهزيع الأخير من الليل، مع هدأة الأنفاس في ليل بيروت الصاخب وراء الجدران الصامتة، اختفى كل شيء في المكان، وتلاشت دقات الساعة فسكن الزمان، ولم يعد إلا هي وذاتها، ثم اختفت هي ولم يبقَ إلا الذات مجردة، ورأت روحها وهي تتجسد شيئاً فشيئاً أمامها، كبخار أبيض نقي، ثم لا يلبث البخار أن يتكثف حبراً أزرق على ورق أبيض صقيل، وكانت روحها تتحدث إليها بصمت يصم الأذن بصراخه وهي تقول: «فتحت عينيها المسهدتين، وعتمة كثيفة لا تزال جاثمة على صدر المكان، عدا ذلك البصيص الخجول من نور أزرق باهت يأتي من مصباح الممر الواهن، وهو يحاول اختراق عتمة ليس له معها أية حيلة. دعكت عينيها الواسعتين بقوة وهي تحاول فتحهما على اتساعهما، ونظرت إلى يديها وكلها حرقة على تلك الشعيرات التي تعلم أنها سقطت من أهدابها الطويـلة. . . . . .

وفي البدء كانت الكلمة. . وفي الختام تبقى الكلمة

ويبتسم الدكتور ابتسامة نصر وهو يقفل جهاز التسجيل، ويقفل دفتر الملاحظات، وملامح الرضا تحتل كافة زوايا وجهه المتغضن وهو يقول:

«الإنسان يا لطيفة مثل جبل جليد عائم في محيط، المغمور منه أكثر من الظاهر.. وحياة الفرد مثل سفينة تجوب ذاك المحيط، مهما بدت عظيمة وكاملة، إلاّ أنها من الممكن أن تغرق بالاصطدام بمثل تلك الجبال المغمورة.. قد نستطيع تجنب الاصطدام برأس الجبل عند رؤيته، ولكننا لا يمكن أن نتفادى المغمور منه إلاّ بأجهزة تفوق الرؤية المباشرة.. وما نفعله هنا هو شيء من ذلك النوع..»

يشكّل هذا الجزء من الرواية تلخيصاً كاملاً لها. فالإنسان ذلك المجهول، كما سمّاه أحد المفكرين، أو القرد العاري، كما سمّاه آخر، يحمل في أعماقه كل المتناقضات، وكل الصراعات، وهو الذي فرض نفسه سيداً على الأرض بالرغم من ذلك. هذا الإنسان أشبه حقيقة ببحيرة متسعة الأرجاء، تعتقد فيها كل الهدوء والجمال حين تنظر إلى سطحها في يوم رق نسيمه وصفت شمسه، ولكنه يحوي في أعماقه كل ما يمكن أن يُتصور وما لا يمكن، حين تتجاوز السطح إلى الأعماق. في داخل هذا الإنسان يكمن الخير والشر، القوة والضعف، الرحمة والقسوة. يتسامى حتى يكاد يصل إلى مرتبة الملائكة، ويتدنى حتى يكاد يصل إلى مرتبة الشياطين، ولكنه في النهاية يبقى إنساناً، لا هذا ولا ذاك. ما هي الظروف التي تجعل من الإنسان هذا أو ذاك؟ هذا هو السؤال الذي ما زال مفتوحاً لكل إجابة. فرغم أن الإنسان حقق الكثير في محاولته السيطرة على محيطه المادي، إلاّ أنه لا زال لغزاً هو بذاته، ولا يزال مجهولاً بالنسبة لنفسه. وإن كان قد أجاب على كثير من الأسئلة في هذا المجال، إلاّ أن الأسئلة لا زالت كث... لا زالت عديدة، والخافي أعظم. قرون عديدة تفصلنا عن «... سؤاله الأزلي لا زال يرن في الأذن: اعرف نفسك..

ISBN 1 85516 557 0

